أنا أختنق

شايب الحسين

بسم الله الرحمان الرحيم

الطبعة الأولى 1442 هـ 2021 م
الايداع القانوني / أفريل 2021
ر د م ك / ISBN - 978-9931-810-44-5

اسم العمل: أنا اختنق
اسم المؤلف: شايب الحسين

مدير النشر / السيدة: صيام يمينة حرم برحايل
تنسيق داخلي: أمينة حمودي
الإخراج : عبد الحميد مشكوري
تصميم الغلاف: الشافعي أحمد ملكي

صفحة الدار على موقع فيسبوك:
Facebook.com/sadjed.edition
الموقع الالكتروني:sajededition@gmail.com
الهاتف /الفاكس0541389203/ 033554911

دار ساجد للنشر والتوزيع

جميع حقوق النشر الورقي والالكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ أو
التعديل إلا بإذن من الناشر

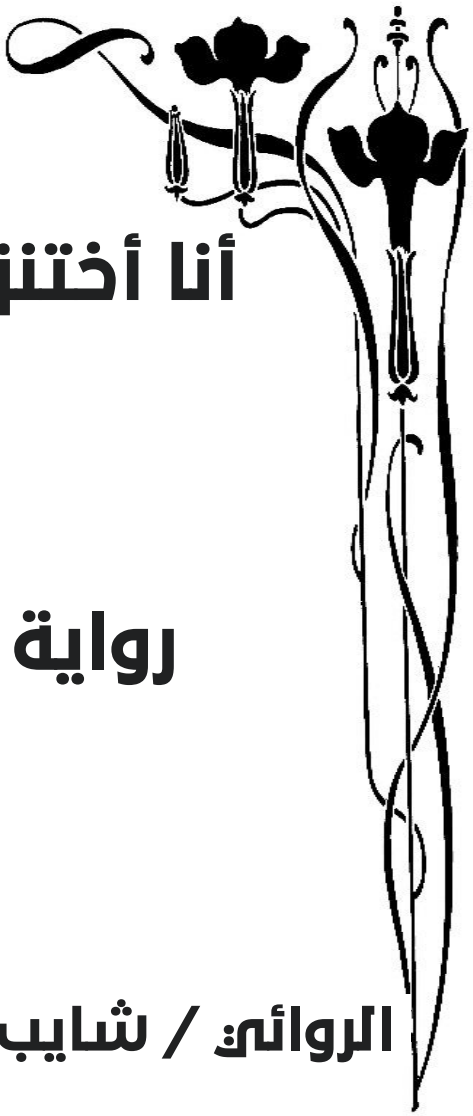

أنا أختنق

رواية

الروائي / شايب الحسين

إهداء

لكل من يؤمن بأنه قد خلق حرّا
وسيعيش حرّا وسيموت حرّا...

***

لا تنفك تراودني وتترك مخيلتي لتنشغل بغيرها، نعم أتذكّرها جيّدا وكيف لي أن أنساها... فقد خلّفت جرحا عميقا لكل إنسان لم تلبسه كفنها الأبيض وهذا الجرح لا يمكن أن يشفى أبدا أو يضمحلّ أثره ولو قليلا، لأنه سيبقى راسخا في قلوب جميع من نجا، هذا إذا كان هناك ناجين بعدد أصابع اليد من الأساس...

نعم إنها تلك اللّيلة المشؤومة الّتي تغيّر فيها كلّ شيء بلمح البصر دون حتى أن يشعر أي منا أنه قد حصل حدث خارج عن المألوف... شملت شتى بقاع العالم أجمع بلا استثناء لم تترك مكانا ولم تذقه مرارة طعم فقدان من نحب... تلك الليلة جاءت لتترسخ في الأذهان بأنها أسوأ ليلة في تاريخ البشرية كلّها وهم قليلو الحظ فقط الذين تمرّدت عليهم بمفردهم دون غيرهم من بني آدم... تلك الليلة التي بدأ فيها عصر جديد للبشرية لا يمكن التنبؤ بطيات صفحاته غير المعلومة .

(1)
عصر الاختناق

أتذكّر أنّنا كنّا نائمين مطمئني البال أنا وبني في فراش واحد حتى استيقظت على رائحة الغبار المتناثرة في أرجاء الغرفة أتت من سقف المنزل التي تتبعها هزّات خفيفة في الأرضية فقمت وارتديت ملابسي لأسمع صوت دقّ الباب بقوّة كان هناك قائل ينادي... سيدتي استيقظي... سيدتي افتحي الباب رجاء... سيدتي... سيدتي... تملّكني فزع شديد ثمّ علمت هوية هذا الشّخص من صوته بعد اقترابي من باب الغرفة المطلّ للخارج... إنّه عمر... فتحت الباب له قائلة:

_ ماذا بك يا عمر! هل هناك خطب ما؟

لم يستطع أن يقول كلمة واحدة لأنّه كان يتنفّس بسرعة شديدة واضعا كفّيه على ركبتيه ينتظر ليعود تنفّسه لطبيعته تقريبا ثمّ استقام في وضعيته بصعوبة... تعجّبت لأمره جدّا لماذا يلهث هكذا؟، ثمّ قال:

_ إنّ أمرا عجيبا يحدث الآن يا سيدتي...

أتذكّر حينها عصفت أصوات انفجارات مرعبة بشكل متوالٍ بلا توقّف في كلّ مكان تبعتها هزّات أرضية رجّت القارات الأربع دفعة واحدة وغيوم رعدية رمادية تعمّ سماء اللّيل الحالكة تخفق رعدا وهي قريبة منّا جدّا... لم أع ما قال من هول المنظر لأن نظري كان موجّها للسماء انتبهت له فقط حين نطق... كذلك لقد علموا بأمر تواجدكم هنا يجب عليكم الهروب فورا... سأتقدّم أمامكم لأحضر شيئا مهما سنحتاجه جميعا لننجو بغية أن نستشعر ضوء الشّمس غدا ونحن أحياء، حافظي قدر المستطاع على سلامتكما ريثما أعود لكما...

***

تراجعت للخلف صوب بني وقلت له متلهّفة:

_افتح عينيك... افتح عينيك... هيا استيقظ... استيقظ يا بني حالا... سنهرب هيا لنخرج من المنزل الآن ما عليك إلّا أن تمسك بيدي بكل ما تملك من قوة ولا تفلتها مهما كلّفك الأمر هل فهمتني...؟ هيا هلمّ معي يا بني...

استفاق مذعورا، فتح عينيه الصغيرتين بهلع كبير كأنّه صعق بالكهرباء، لم يفهم شيئا، غير أنني حملته وأمسكته بقوّة مصارحة إياه:

_ سنخرج حالا... تجاوزنا الباب المؤدّي للخارج، قلت له... هيا اركض بأقصى ما تستطيع، يجب أن لا يمسكوا بنا أحياء... هيا سنسرع أكثر من هذا، ربما هم ما زالوا خلفنا لحدّ الساعة يتعقّبون آثارنا منذ مدة طويلة والليلة علموا بمكاننا لكن كيف حصل هذا. لم نخبر أحدا مطلقا بمكاننا الجديد... لو أمكننا فقط أن نتوارى عن الأنظار لمهلة من الزّمن سنستطيع إضاعتهم... يجب أوّلا أن نزيد فرق المسافة الّتي تفصلنا عنهم حتى يتسنّى لنا بعدها الاختباء، بينما نحن نركض بأقصى سرعة لنا، تعثّر بني واقعا على الأرض. أوقعني معه فأسرعت بزحف نحوه، بدأ بالبكاء مع ظهور قطرات دماء على جبينه لم تتوقّف عن السيلان عبر وجهه لأنه رطم رأسه على الأرض بقوة ثم قربت رأسه لحضني ومزّقت قليلا من فستاني لأقوم بربطه على مكان النزيف لأضعف قليلا من ذاك المدّ الأحمر اللّامنتهي...

قمت بسرعة بعد ذلك لكن ولدي أبى الوقوف مستمرّا في البكاء والصراخ كأنه لا يجيد غيرهما،

ثم قال:

_ أمي أنا أتألّمّ كثيرا هنا ووضع يديه الصغيرتين على رأسه مشيرا لمكان النزيف...

قلت له وأنا الأخرى باكية:

_ أعلم أنك تتألّم بشدة لكن علينا أولا النجاة من أولئك القتلة يا صغيري...

أعلم أنك لن تفهم شيئا مما سأقول لصغر سنّك، لكن يجب علينا الهرب فإن أمسكوا بنا سنكون سببا رئيسيا لتعرّض كلّ البشر للخطر والإبادة الجماعية والفناء. حتى بطريقة بشعة للغاية لهذا علينا الوقوف والمضي للأمام بسرعة...

أمسكت ببني ووضعته فوق ظهري لأني علمت أنه لن يقوى على الاستمرار بمفرده فمازال جرح جبينه ينزف ببطء رغم إحكامي لمكان النّزيف... مسحت دموعي، كلّ ما خطر على بالي مواصلة التقدم، وما إن رفعت جسمي للأعلى حتى سمعت صوت رجل خلفي يقول لقد وجدناهما تلك المرأة والصبي... بدوري التفتّ بذعر وخوف شديدين لأرى مجموعة من الرّجال ربما يرتدون زيّا غريبا لونه أسود شديد العتمة ويضعون على رؤوسهم أقنعة كانت

أشبه برأس غراب ذي عينين حمراوين للغاية بريقهما كان واضحا في تلك العتمة...

من الرّعب الّذي اكتساني من أولئك الأشخاص لا إراديا منّي انطلقت بكلّ ما لديّ من قوّة إلى الأمام، حملت بني، لم آبه لأيّ شيء إلا بالفرار عنهم مردّدة بصوت عالٍ سننجو مثلما وعدتك يا عزيزي... سنجتمع لنعيش معا من جديد... سنلتقي عمّا قريب كما خطّطنا، فمثلما سألتزم بوعدي فلتلتزم بوعودك لي أنت الآخر لتنجو أولا وسأبذل ما بوسعي للنجاة مع ابننا كذلك...

شققت طريقي عبر ذاك الممرّ الّذي يؤدّي بنهايته نحو الغابة المحيطة بالقرية لأن هذه القرية ما هي إلا منازل على طرفين مع طريق رئيسي واحد يقطعها لنصفين محاطة بالأشجار من كلّ ناحية...

توالت عبر أذني صيحات أولئك الرّجال... توقّفي لا مفرّ لك... سنمسك بكم... ستدفعون ثمن ما قمتم به... سنسلّمكم لمخلّص العالم الجديد

لتنالوا عقابكم أيّها الحثالة... الخونة... العديد والعديد من الجمل غير اللّائقة الشّتائم والتّهديدات وغيرها... بينما أنا أركض وهم خلفنا بدأت صيحات ناس تتعالى من كلا الجانبين أكثر ممّا كانت عليه قبل دقائق، لقد أصبحنا الآن في قلب الحدث أخيرا فالغيوم الرّمادية أصبحت فوق رؤوسنا مباشرة...

صراخ شديد مع نحيب يمزّق الآذان في كلّ مكان لم يخف أبدا... أصوات تقول... لقد أتى يوم الحساب... سنعاقب أشدّ عقاب... سنعاقب بسبب أسلافنا. وآخرون يكررون سنهلك اللّيلة لن يسعنا الهرب مطلقا، أصوات أخرى فقدت الأمل تقول... استعدّوا يا أبنائي اليوم ستتذوّقون طعم مصيركم ألا وهو الموت الحتمي...

ثم سمعت صوت دوي ليس ببعيد عنّا ثم توالى هذا الصوت مرارا وتكرارا ليصبح أكثر صخبا... لم أعِ ما سأصنع حينها، كيف أتجنّب ما وقع لأهل القرى المجاورة، لكن رغم هذا واصلت الرّكض لأشاهد الناس يخرجون من منازلهم منتشرين هنا وهناك كأنّهم نمل، خرجوا من مخابئهم فجأة... لتزداد زحمة مع صعوبة المرور بذلك الممرّ ثم نظرت خلفي مرة أخرى لأشاهد أولئك الرّجال خلفي مقتربين مني أكثر من السابق فدفعت بنفسي لاختراق ذاك الزحام فأسقطت كلّ من اعترضني أرضا ثم زاد ذاك الممر كثافة بالقرويين، قلت في نفسي أنّه من حسن حظّي أنّي تجاوزتهم... لأسمع أولئك الرّجال المخيفين يقولون سنجدك أينما ذهبت هل تسمعين لا مفرّ لك منا...

فعلمت أنّهم علقوا في الزّحام، فأكملت جريي لكن أنهكت من ذلك المجهود الّذي قدّمته حتى الآن لأنّني لم أبذل هكذا جهدا في حياتي أو حتّى اعتدت على ممارسة مثل هذا الضغط ثم أكملت الطريق مشيا لأستجمع شتات نفسي وأريح عضلاتي قليلا بينما أنا بعيدة عن أولئك لمهلة محدودة من الزّمن... قلت مخاطبة نفسي هيّا كدت أقترب لن يجدوني إن دخلت تلك الغابة... ثمّ سأمضي لذلك المكان... فجأة بلا

سابق إنذار بدأت تتحطّم منازل القرية التي خلفي واحدا تلو الآخر، الّتي على يميني وكذلك شمالي ما كان لي إلّا الهرب، لكنّي مازلت متعبة للغاية لا أظنّني سأتمكّن من النجاة بهذا الوضع الصّعب مع هذا الموت تحت الحطام ليس خيارا مطروحا كذلك، سأحاول تخطّيهم هنا وحالا... كنت أهرول والأنقاض تتراكم خلفي مع تعالي أصوات الناس هم يقولون ساعدونا... أي أحد ... سنموت ساعدونا يا قوم... سنهلك سنهلك...

قلت مرتعبة:

_ هل هذا يعني أن كل أولئك الناس قد لقوا حتفهم... أصبح ذاك الممر قبرهم إذن هذا يعني... أظن أولئك المطاردين قد ماتوا كذلك!

قلت متنفّسة الصعداء:

_ الحمد لله أن عمر أتى ونبهني مبكرا فهو السبب الرئيسي في كوني أنا وبني على قيد الحياة... صحيح أين هو لحد الساعة أتمنى أن لا يصيبه مكروه...

صدى الناس المختلط ببكاء ابني أصابني بالقشعريرة كان هو الدافع الذي يدفعني لمواصلة الهرولة، بالكاد كنت أجري مرغمة نفسي على خطو تلك الخطوات لكن يجب علي تجاوز الممر، تمسك بي يا بني لم يبق الكثير... في تلك اللحظة تهدّم مبنى بشمالي نظرت إليه كيف يسقط نحونا علمت لحظتها أنه من المستحيل علي تجاوزه بسرعتي الحالية يعني هنا سأموت أنا وبني ذو الثلاث سنوات يا لها من نهاية بائسة سنختم بها حياتنا التي لم نذق فيها طعم السعادة إلا بضع مرات... اللعنة على هكذا حياة، اقتربت بقايا الحطام منا لتنهي حياتنا. أغمضت عينيّ فقد قبلت بمصيري على الأغلب فلا مخلص لنا سينقذنا للأسف سنموت هنا... أنا آسفة أظنني لن أحقق تلك الوعود التي قطعتها لك...

إذ بقوة تدفعنا من الخلف لترمينا لأمام نحن الاثنين أنا وبني، من أين أتى هذا الفعل الغريب غير المتوقع؟ فقد طرنا في الهواء لبضع أجزاء من ثانية لأرتطم بمفردي على الأرض بشدة... فتحت عيني المرة الثانية

لأشاهد تلك الأنقاض التي كادت أن تبتلعنا داخلها، فعلا حجمها عملاق تبدو ثقيلة الوزن كدنا أن ندفن تحتها لنصبح حطاما، انقضى الغبار الذي زاد من عتمة الليل سوادا للحظات... قلت يا إلهي نجوت بأعجوبة غير مصدّقة... قلت لكن كيف حصل هذا لنا؟
ثم حركت عيني قليلا لليمين لأرى شخصا آخر مطروحا على الأرض كان على قدمه اليسرى قطعة من الصخر تبيّن لي أنه فاقد لوعيه، تفطنت لظهري لا ضغط عليه... قلت بصوت عال:
_أين بني؟ فبحثت يمينا وشمالا لم أجده ثم نظرت لتلك الأنقاض العملاقة مشيرة لها بعيني، خطر على تفكيري احتمال وحيد...
قلت والدموع تملأ عيني:
-هل هو حقا... هل تركته هناك؟

توجهت مثل المجانين محاولة إزاحة ذاك الحطام فلم أستطع تحريكها لثقل وزنها ثم سقطت على ركبتي أناجي الله ألا يكون تحت الأنقاض أدعو أن يأخذ روحي وألا يصيبه مكروه... يا إلهي مازال صغيرا للغاية على أن يموت ببشاعة وبهكذا طريقة... بعدها بلحظات ذاك الرجل أصبح يسعل محاولا الكلام يقول سيد... سيدتي هل أنت ب... بخير... تعرفت على هويته من صوته للمرة الثانية إنه عمر...

انطلقت ناحيته زاحفة على الأرض فأوقفتني ردة فعله الغريبة فقد رفع يديه بغرابة لأتوقف لوهلة ثم أشار بإصبعه إلى جهة معينة لأرى بني واقعا في عربة صغيرة مرصوفة على طرف الطريق كانت لأحد بائعي الملابس فوقعت أرضا على ظهري باكية... كانت عيني موجهة لتلك الغيوم الرمادية ثم شكرت الله لحسن الحظ أنه لم يصب فلذة كبدي بأذى... ثم أعاد عمر السعال فلاحظت أنه أشار بيده ناحية كيس

كبير نوعا ما كان في الجانب الآخر من الطريق لكن نصفه للأسف مهشم بواسطة صخرة متوسطة الحجم اعتلته... طلب مني سحبه ثم فتحه...
قال بصوت يكاد لا يسمع حتى:
_ تأكدي من فضلك أنه يوجد ثلاث أقنعة للتنفس...
ما إن فتحته وجدت ثلاثة أقنعة كانوا على شكل طائر اللقلق الذي يحبه عزيزي... لكن اثنان سليمان أما آخر عبارة عن أشلاء متناثرة داخل الكيس لا يصلح ليرتديه أي شخص... قال:
_هل كلها سليمة؟
قلت له:
_لا اثنان سليمان... الآخر قد تحطم بفعل حطام المبنى...
قال بغضب وألم ضاربا الأرض بيديه:
_اللعنة على هذا...
ثم طلب مني مساعدته على إزاحة الصخرة التي فوق قدمه، فتقدمت نحوه وقمت بدفعها بكل ما أوتيت من قوة حينها، فقمت بإزالتها بصعوبة بالغة...
قال لي:
_ يمكنني الوقوف لكن لا يمكنني الجري، أكمل هل أنت ذاهبة صوب الكهف الذي بداخل الغابة هل جننت يا سيدتي؟ أنت تعلمين أنه لن يقبل بهذا الفعل ستفضحين سرّا خطيرا للغاية...
قلت له:
_لا حل آخر لي يجب عليّ أن أحمي ابني لن أسمح أن يعاني بسبب فعل هو لم يقم به هذا ليس عدلا، بالإضافة لدي وعود قد قطعتها سألتزم بها، أيضا أظن أنه أرسلنا لهذه القرية ليس عبثا بل لسبب وجيه هو أدرى به...
قال بغضب:

_ سيّدي أيضا لا دخل له، هناك أمر مريب قد وقع، لا تحمّلي سيدي فعلا لم يرتكبه هو الآخر، أنت أعلم بماهيته، من المستحيل ارتكابه لهكذا خطأ ضخم فهو يعلم ويتقن ما يفعله جيّدا بالإضافة فلا يمكنه أذية نملة... مستحيل قيامه بهكذا فعل مريع...

قلت له:

_إذن ما الذي يجري يا عمر هل يمكنك أن توضّح لي؟ لربما قد أخبرك بشيء أرجوك لا تخفي عني فأنا أعلم أنه لا يخفى عنك أي سرّ مهما كان صغيرا...

قال:

_لا أعلم لكن يبدو أن مخاوف سيدي قد تحققت فقد نبأني بأن أمرا فظيعا سيحصل لعالمنا وحسب اعتقادي يا سيدتي فإننا على حافة انهيار ه الشبه التام. سبب وقوع ما حصل الليلة يبقى مجهولا حقا... قلت له:

_ ماذا تقول، إذن كيف سينتهي الأمر وماذا علينا أن نفعل؟

قال:

_ سيدي أعطاني ثلاثة أقنعة قال لي إن وقع أي شيء يدل على نهاية العالم، ارتدوا جميعا تلك الأقنعة فإنها ستساعد على بقائكم على قيد الحياة ثم أكمل: هذا العالم على وشك أن يختنق كما تنبأ أسلافنا!

قلت:

_ لكن هناك الاثنان فقط...

زاد صوت رعود تلك الغيوم الرمادية فقد تخطتنا وأصبحت أمامنا أحسست بضيق مع ضغط على رئتي كأنما الهواء أصبح غير موجود بمكاننا هذا... ثم أتى صوت ثلاث رجال، صوت عند سماعي له علمت أن الأمور ستزداد سوءا أكثر مما هي عليه... لقد قل عدد أولئك الأشخاص بعدما كانوا خمسة رجال في بادئ الأمر، قلت هيا يا عمر علينا الهرب حالا فهؤلاء لن يرحمونا إن وقعنا في شراكهم...

قال محتارا:

_لا أستطيع الهرب ألم تري قدمي بالكاد أستطيع المشي ثم ما بال تلك الأقنعة لم هي أيضا على شكل طائر؟ ما الذي يحصل هنا جديا يا سيدي... ما الذي أخفيته عني!

نطق أحد الرجال بصوت مرتفع وهو يصفع نفسه كالمجانين:

_ هيا أريدهم أحياء كلهم لا تتركوا لهم مجالا للفرار هذه المرة ...

***

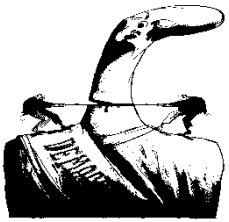

(2)

حياتي

إياد... إياد... انهض يا بني سنتأخر كلنا عن موعد الزيارة هيا يا إياد قم حالا... ألا تسمعني يا إياد... إياد... فتحت عيني على صوت أمي وهي تنادي علي ثم بقيت بضع ثواني مستلقيا لأفكر ما بال هذا الكابوس المزعج الذي دائما يظهر لي كلّما أخلد للنوم فعلا قد سئمت منه كأنه فيلم درامي ممل يجب علي إجبارا مشاهدته رغما عن أنفي ولا حق لي على الاعتراض عليه... أووووف يا إلهي ليته يخرج من رأسي ليدعني وشأني لأنال نوما طيبا على الأقل فهذا أقصى ما أتمنى بحق، ثم سمعت صوت أمي مرّة أخرى تقول هيا يا بني سنتأخّر استيقظ...

***

أنا إياد سعد... أبلغ من العمر تسعة وعشرون سنة... خريج جامعة بسكرة بالجزائر منذ ثمانية أعوام... أعزب عاطل عن العمل حاليا وربما سيتغيّر هذا الوضع اليوم إن سارت الأمور على أحسن وجه كما آمل...

***

توجهت لغرفة أمي لأجدها مستلقية على فراشها تنتظر مني حملها ووضعها على كرسيها المتحرّك، نعم فهي لا تقوى على تحريك أسفل جسمها لأنها مقعدة بل تحتاج لمساعدة من شخص آخر وغير هذا فلا يمكنها عمل شيء بمفردها وما يزيد عجزها أنها تبلغ من العمر واحدا وستين عاما... ستقولون أنني أتأسّف لحالها لن أخفي عليكم إن كان ذلك الكابوس المزعج يختلي بي كلّ ليلة فالتفكير بأمي لا يفارق بصيلات عقلي مطلقا حين أستيقظ لغاية آخر ثانية أغمض فيها عيني ومع هذا العبء الذي يخلع الكتف من مكانه فإنني أنسى ذاك الثقل حين أدخل لغرفتها

كل صباح كما الآن نعم قد ارتحت قليلا... إن أمي تبتسم دائما ولطالما كانت كذلك، فبالرغم من أنها لا تقوى على الحراك كغيرها فإنها تتفوق على أي إنسان بنقاوة قلبها مع فيض من الحنين غير منته وتمسكها بحبل الله الذي لا ينقطع بتاتا فمن معتقداتها الإيمان بأن الغد سيكون أجمل من الأمس بإذن الله... أتمنى من ربي أن لا يأتي ذلك اليوم الذي لا أرى تلك الضحكة على وجنتيك الجميلتين أدامك الله علي يا سبب سعادتي في مستقر الحياة...

تقدّمت نحوها وجلست على الفراش ثم عانقتها بحرارة كبيرة كأنما عدت من حرب طويلة الأمد ثم قبّلت جبينها الطاهر ورأيت في عينيها بريقا خفيفا...

قلت لها ضاحكا:

_ أعلم سبب سعادتك الزائدة اليوم سترين زوجك أليس كذلك!

احمرّت خجلا منزلة رأسها للأسفل دون التلفظ بأي كلمة... أعدت سؤالها عدة مرات، بقيت على حالها لكن مع ابتسامة طفيفة ترسم تدريجيا كلما قلت كلمة زوجك... تعجبني أمي حين أرى على محياها تلك الابتسامة الخجولة فهذه متعتي الأسبوعية لأكون صريحا... كنت أظن الحب يفقد عقبه وشبابه حين يتخطى الشخصان عمر الخمسين بفعل التعود على بعض أو الروتين المتكرر كل تلك السنين، أما ما استنتجته فهو العكس تماما فعنفوان الحب النقي الطاهر لا يزول بمضي ألف سنة إن لازم الأمر فما يحتاجه أناس يقدرون قداسته ويسقونه ودّا بداخلهم في قلوبهم مثلا فيزداد ذاك الحب الصغير شبابا وتوهجا فلا يكبر أبدا من بعدها، هذا كان سر ضحكة أمي فالزمان كفيل بتغير أجساد البشر أما الحب الحقيقي فيحافظ على القلب من تقدم الزمن...

ثم ناولتني بإحدى يديها محاولة ضربي وهي تقول يكفي لا تتكلم أكثر... أرخيت رأسي في حضنها ثم أمسكت إحدى يديها الضعيفة ووضعتها على

رأسي بلطف وقلت يمكنك ضربي متى ما تشائين أيّتها الغالية فهزّت يديها ثم أعادتها على رأسي قالت أجدك تستمتع بالأمر أيها المشاغب فلا تضحك كثيرا فغدا سيأتيك شخص ما ويفعل بك ما تفعل بي تذكر كلامي جيدا...

ضحك كلانا بعفوية لفترة قصيرة وقلت لها لربما أعرف ما تحسين يا أمي، هنا ضربتني بالفعل قلت لها ما سبب هذه الضربة المباغتة منك؟...

قالت بنرفزة:

_ ماذا تعني بأنك تعرف ما أحسّ... ثم أكملت آه منك أيها المحتال لديك شخص آخر تحبه غيري وأخفيتهُ عني...

قلت لها ضاحكا:

_ نعم لدي شخص آخر أعشقه غيرك وليكن في علمك أحبه أكثر منك بكثير...انتفضت وقالت ابتعد عني إذن اذهب إليه ليغرقك بحنانه... اذهب

قلت لها:

_ ليتني أستطيع لكن ليس بمقدوري وما بيدي حيلة يا أمي...

قلت:

_ ما الذي تتفوه به... ما بال وجهك عبس فجأة ثم من يكون هذا الشخص ألا تريد إخباري من هو ؟

التزمت الصمت مؤقتا بعدها قلت:

_ إنه زوجك أي أبي يا أمي....

عبس وجه أمي مثلي انتهى حديثنا على هذا النحو بلا أي إضافات... فعدت لغرفتي لأرتدي شيئا لائقا فعند الانتهاء من نفسي قصدت آلة الغسيل لأحضر بعض الملابس من هناك لأساعد أمي على أن ترتديها... ثم قلت في نفسي لقد نجوت بأعجوبة منك أيتها الحذقة...

سأفصح لك عن الشخص الذي يليكما منزلة في قلبي بعدكما مباشرة حين يحين الوقت المناسب لهذا...

***

وضعت أمي على كرسيها المتحرك ثم قدتها ناحية الباب لأسمع صوت خرير الماء توقفت للحظة محاولا تحديد مكانه مديرا رأسي في كل الاتجاهات حتى حددته، إنه قادم من المطبخ قلت في نفسي تبا لهذا المنزل الرديء المحطم من كل جهة وتبا أيضا لضيق غرفه وتبا لجدران مطبخه التي تقطر ماء من كل مكان، تبا لسوء ألوانه الكئيبة... تبا لحالتي المادية الفقيرة التي أسكنتنا إياك مرغمين كم أتمنى السير للقاء اليوم بصورة حسنة هذا سيساعدني على تبديل حياتنا بطريقة أفضل يا إلهي ساعدني لا تتركني وحيدا فلا مغيث لي سواك...

شردت وأنا أمسح بعيني خبايا ذلك المنزل غير المريح لأمي ففي كل مرة أحاول التأقلم مع أي وضع كان لا تهمني نفسي... لا أريد سوى راحة أمي لا أكثر... عدت عند سماعي لأمي وهي تقول هيا يا بني ما بها حاسة سمعك اليوم هل تعطلت يا ترى... لقد جلبت علبة الطعام أليس كذلك، نعم يا أمي إذن هيا لا أريد التأخر هنا لا أريد إضاعة أي دقائق هنا، بعدها أنزلت رأسها قليلا واحمرت من جديد قائلة بصوت غير مسموع لكني سمعته:

_فكما تعلم هي ملك لأبيك وحده ...

أضحكتني ردة فعلها تلك كأنها بنت صغيرة تطالب بألعابها المفقودة الآن أنت فعلا تصبحين صغيرة الروح عندما يتعلق الأمر بمحبوبك الأول يا إلهي كم أنك تؤثّرين علي بالإيجاب وتصنعين الفرحة بحالتك الطفولية تلك... على الأقل سنخرج من هذا الباب نضحك والبهجة تعانق قلوبنا... ثم قلت حسنا يا سيدتي سنجرج فورا لا تقلقي سنتوجه لحيث ما تريدين...

أغلقت باب المنزل وخرجنا من البناية التي نقطن فيها حتى رأيت مجموعة من شباب الحي هم تقريبا بمثل عمري أو أقل بقليل جالسين قبيل بعضهم يتبادلون السجائر فيما بينهم وينظرون للذاهب والعائد فيقومون بالتعدي عليهم لفظيا أو رمي الكلمات الجارحة بلا مبالاة لمشاعر الناس ثم يبدؤون بالضحك باستهتار، لم أفهم ما بهم لربما هم يجدون متعتهم الحقيقية فيما يقومون به. كان بينهم شخص يدعى مروان السجين... نظرا لدخوله السجن عدت مرات بعد أن أمسكته الشرطة بتهمة التشهير بالمخدرات وبيعها كذلك فقيل عنه أيضا أنه قائد لمجموعة من المرتزقة اختصاصهم تعاطي المخدرات بأنواعها أو بيعها للمراهقين وهذه المجموعة بدأت تتوسع بسرعة كبيرة... ما زاد الطين بلة أنه يسكن فوقنا مباشرة فمن عادته ضرب والديه وتهديدهما بالقتل على مسمع من كل سكان البناية دون الدخول في تفاصيل الصراخ العالي الذي لا يقطعه مطلقا متعمدا ذلك، فالسجن أصبح بالنسبة له مثل منزله أما ما أقلقني ليس هو فأنا أكبر منه حجما وطولا بل أخاف أن يتلفظ بكلام لأمي فلا أسيطر على أعصابي وأبرحه أرضا فمن إحدى سلبياتي عدم مقدرتي على كبح غضبي لا أريد أن تنظر أمي لجانبي السيء الذي لطالما لم أطلعها عليه فأصبح بين لحظة وأخرى مثل مروان تماما نتشارك في خوف والدينا منا...

ضغطت بيدي على مقبضي الكرسي المتحرك لربما هذا سينفعني في السيطرة على غضبي إن تلفظ بكلام سيء لي أو لوالدتي وتابعت التحرك نحو مخرج الحي الوحيد حيث هم جالسون لكي لا يفلت أي أحد من ألسنتهم السليطة وحين كدنا نصل إليهم وجدتهم ينظرون إلينا... كذلك قام مروان بإخبار زميله في أذنه كلاما لم أسمعه وبعدها بدأ بالضحك ثم أعاد وجهه ناحيتنا بابتسامة مليئة بالخبث والمكر كأنه يريد أن يلدغنا بكلمات ظاهرها وباطنها سم، هنا شعرت بحرارة جسمي ترتفع تدريجيا

فضغطت على مقبض الكرسي أكثر داعيا الله على كبح جنون الثور الذي بدأ يعتريني... بعدها أحسست بيد أمي فوق يدي تربت عليها هنا كأن السماء أمطرت ماء باردا أطفأ لهيب غضبي وأتبعت قائلة بحزم يا بني الآن يجب على حاسة سمعك أن تتعطّل إياك الإصغاء لهم لا تجعلهم يتلذذون بما يقومون فقط واصل التقدّم... التزمت الصمت وأكملت دفع كرسي أمي للأمام...

بلغنا ناحية المخرج المؤدي خارج الحي فتمسكت بالصمت مبديا عدم الانتباه لهم وبدورهم لم يلفظوا حتى كلمة فقط واصلوا تتبعنا بأعينهم إلى أن قالت أمي بحسن النية صباح الخير يا أبنائي... تحفّظوا بعدم الرد لوهلة من الزمن لأنجح في تخطيهم ووضعهم خلف ظهري لأسمع ذلك الحقير مروان يقول باستخفاف هل سمعتم ما قالته صحيح... وأنا الذي ظننت أن هذه العجوز عاجزة عن الكلام مثل عجزها عن الحركة... وبدأوا يضحكون جميعا بشكل وقح للغاية...
تلك الكلمات التي قالها فجّرت في داخل جوفي ذاك البركان الهادئ فأفلت كرسي أمي لأعود أدراجي نحوهم ضاغطا على قبضتي بقوة مستعدا لتحطيم رؤوسهم رغم كثرتهم لكن أنا حين أغضب لا أخاف فبالنسبة لي فإن الغضب يقتل الخوف مهما كان عميقا ولا يبقي منه جزءا صغيرا حتى...

اقتربت منهم دون قول أي كلمة وهم كلهم وقفوا من مكانهم كنت مستعدا للعراك وكذلك هم. قصرت المسافة بيننا فسمعت صوت أمي ينادي توقف يا إياد لا تقترب منهم أكثر أرجوك... أذناي كانتا تسمعان وجسدي أبى الخضوع لتوصيات أمي. فما يحركني هو غضبي، عذرا يا أمي لكن لن أستطيع تركه ينجو بما قال أنا آسف... هنا ما إن

استعددت لضربهم حتى قفز جسم غريب يفصل بيننا ممسكا بي وضمني إليه قائلا:

_ليس أمام أمّك يا بني انظر إليها إنها تبكي فعلا... لن أتركك حتى تهدأ لا تلطخ يديك بهؤلاء الحثالة... فهم لا يستحقّون ذلك صدقني...

نظرت لهم مطولا بغضب محاولا الفرار ممَن يمسكني فلم أقو على الفرار يا لشدة صلابة قبضته... فأنزلت عيني لأرى شخصا أصلع من وسط رأسه ويحتوي بعض الشيب الأبيض في الجانبين، شخص أقل مني طولا فتعرفت عليه إنه العم وائل هذا الشخص يبلغ من العمر خمسين سنة يسكن معنا بنفس البناية فوق المعتوه مروان وهو أيضا يتعرض من مروان أحيانا بالسوء لكن لا يبادر بأي فعل سيء له...

قال بحزم:

_ سأفلتك حين تهدأ يا بني غير هذا فاعذرني لا يمكنني السماح لك بالمجازفة بأن تعرض أمك للوحدة بسبب طيشك، هدّئ من روعك فقط يا بني أرخي جسمك قليلا ما بك ...

ما قاله لي أزال توتري بعض شيء وحين استدرت لأشاهد دموع أمي الغالية التي تساقطت خوفا علي من أن أغطس في غضبي وأقع في ما لا يحمد عقباه بلا داع عدت لذاتي لألبس من جديد معطف الهدوء والسكينة فطلبت من العم وائل تركي لأن هذا الغضب قد انتهى فقام بتركي... قالت أمي ماسحة دموعها:

_ هيا لنذهب من هنا يا بني ألم أقل لك بألا تقوم بأي رد فعل لا داعي له...

قلت لها مبتسما:

_ حسنا يا أمي أعدك ألا يتكرر هذا الفعل من جديد وألا أنفصل عن ذاتي مهما حصل...

ثم نظرت للعم وائل وشكرته فلولا تدخله لوقعت كارثة كانت ستتسبب بإيذاء كلا الطرفين وأنا من كنت سأخرج محملا بمعظم الأضرار كنت

سأترك أعز إنسان على قلبي بلا شخص يرعاه، كدت أن أتسبب في قتل أحد أولئك الأوغاد... فعلا شكرا لك أما أنت يا أمي فسامحيني من فضلك لا يجوز لي أن أشغل بالك بي أنا آسف...

نطق مروان ضاحكا بتلك الضحكة المستفزّة مجددا قائلا:

_ أين الأسد الذي كان قريبا على التهامنا جميعا أنا لا أراه، آه انظروا يا جماعة إنه أمامنا، لكن ذلك الأسد قد أصبح قطا صغيرا يحتاج لغيره لكي يحميه...

اقتربت منه ورفعت كفي مشيرا للعم وائل بألا يقلق لن أفعل شيئا متهورا سأتحدث معه لا أكثر، فاقتربت أكثر لأنظر لأعمق مكان في عينيه وقلت بصوت خافت بكل جدية:

_ ستدفع الثمن لكن ليس الآن سيأتي وقتك وسأقتلك لأنهي شرك المبسوط على الناس... وغد... جبان...

قال وهو ينظر في عيني مستخفا:

_سأنتظر ذلك اليوم على أحر من الجمر يا ذا العينين الزرقاوين لكن لا تنس أنت في ملعبي ولتحذر لأنك بلا فريق...

عدت أدراجي ناحية أمي ومضينا نحو وجهتنا المنشودة تاركين العم وائل يوبخ مروان ومن معه لتصرفه الوقح تجاه أمي، فعلا أكره ذلك المنزل وذلك الحي الأسود يجب علي الانتقال مع أمي لمكان آخر أكثر أمانا...

***

لقد استغرق الوصول نصف ساعة على الأقدام لحسن الحظ أننا وصلنا في الميعاد المناسب ولم نتأخر سندخل حالا لتري زوجك يا سيدتي، أعلم أنك تتحرقين شوقا للنظر إليه والجلوس معه وإطعامه بأيديك مما أحضرت له من طعام يحبه قبل هذا كله أريد الاعتذار منك عما سبق مني قبل خروجنا من الحي لأنني لم أسيطر على نفسي لأنفعل

بذلك الشكل الفظيع فأرجو أن لا تخافي مني فأنا إياد سعد ابنك الذي يحبك جدا ويخاف عليك من نفسه قبل الجميع فأستسمحك عذرا لتلك الدموع التي ذرفتها من أجلي...

قالت بصوتها المعهود صوتها الحنون: حبي لك سيبقى دائما يحيط بك مهما كانت حالتك سعيدا، غاضبا، حزينا فلا أمّ تكره ابنها أما الخوف منك هذا أمر مستحيل فأنت أحن علي من نفسي أنت صبور جدا وكفء متحمل المسؤولية هل تعلم يا بني عندما أراك أشعر بأنك في يوم ما ستصبح ذا شأن عظيم... أتعلم كل صباح أستيقظ به أتذكّر هناك رجل في الغرفة المجاورة لغرفتي سيحميني ويهتم بي ولن يتركني وحيدة يطمئن قلبي... ابتسمت تلقائيا قائلة: أدامك الله لي دائما يا بني...

قلت لها واضعا يدي على رأسي:

_ لا تبالغي يا أمي فأنا أقوم بواجبي تجاهك... هذا نجاحي الوحيد في هذه الحياة أما من باقي النواحي لا أجيد شيئا فكما تعلمين لا عمل حاليا، غارق في الديون لا أستطيع النوم كباقي البشر وفوق كل هذا حظي سيء جدا...

قالت معاتبة إياي:

_يكفيك من هذا الكلام الذي لطالما تتفوه به عن حظك، ألم أقل لك تمسك بحبل الله فهو لا ينقطع أبدا كن قوي الإيمان كل ما تريده ستحصل عليه يا بني... قطعت حديثنا أحد موظفات الاستقبال قائلة:

المعذرة على مقاطعتكما تفضلي أيتها السيدة يقين يمكنك مقابلة السيد باهر إذا أردت فقد جهّزناه لك هو في الغرفة التي على اليمين في آخر الرواق كالعادة فذلك مكانه المعتاد حيث يحب أن يلقاك، أمامك ساعتان ونصف للتحدث معه لعلّه يتحسن عند النظر لوجهيكما هذه المرة أو الاستماع لكلامكما... أما الآن أستأذنكما سأذهب للقيام بأعمالي... شكرتها أمي بلطف كعادتها وتوجّهنا ناحية الغرفة، قالت أمي هذه الممرضة دائما

ما تعتني بي هنا، ثم رفعت يديها للسماء مناجية الله: فليحرسها الله ويحميها من كل متخطرس ظالم... قلت لها ضاحكا:
_هاااي أمي أنا أمامك تعلمين أني سأغار منها أو تعلنين أنك تقسمين حبك لنصفين، سأرفض ذلك ليكن في ذهنك... أريد حبّك كله لي وحدي لابنك الوحيد... ضحك كلنا وتوجهنا ناحية الغرفة...

اقتربنا من باب الغرفة ليخرج الطبيب منها أشار علي بأنه يريد مقابلتي خارج الغرفة فقبلت طلبه بتحريك رأسي بالإيجاب موافقا على ذلك... عند دخولنا رأينا أبي باهر جالسا أمام الطاولة بحلّته البيضاء كما لون شعره الأبيض ينظر لنقطة معينة من الغرفة كالمعتاد بلا إبداء أي ردة فعل كالكلام أو التعبير عن حالته بالابتسام مثلا... فردة فعله الوحيدة الّتي يبديها هي تناول الأكل من يدي أمي لا أكثر، وغير هذا الأمر لا جديد حصل... أدخلت أمي ووضعتها بجانب أبي كانت عيناها تنطقان بسعادة وابتسامة لا نظير لها كأنها تراه للمرة الأولى فعلا أمي تتغيّر كليا كتغير الشرنقة لفراشة عند مقابلة حبيبها الغائب لسنين طوال، أسرّني منظرهما الخلاب الذي يبوح حبا جميلا عذريا فتخيلت نفسي مع... قبل أن أستطيع رسم صورتها في ذهني دقّ الطبيب الباب ففهمت أنه يريدني خارجا فطلبت الإذن من أمي وخرجت له ليكلّمني بما يعرف من مستجدّات جديدة عن حالة والدي...
قال الطبيب في صوته نبرة الأسى:
_كيف سأخبرك بهذا... اسمعني جيّدا وافهم ما سأقول، حالة أبيك تتبعتها لأربعة وعشرين سنة. أي قرابة ربع قرن تقريبا وحاله كما هي مستقرّة بلا أي ردة فعل كأنه شخص ميت على قيد الحياة...
قلت له مستغربا:
_ماذا تعني بقولك أيها الطبيب فلتوضّح رجاء؟

قال:

_أبوك حالته شاذّة للغاية، لم أشاهد في حياتي شخصا مثله حسب خبرتي سأقدّم لك نصيحة لا تهدر ما تملك من نقود في سبيل علاجه فحالته غير معروفة إذا كان سيستجيب أم لا على المدى الطويل، فلو استجاب حقّا لكان الآن بوعيه بينكم أو ما الداعي لبقائه في مستشفى للأمراض العقلية طوال تلك الفترة؟

قلت له غاضبا بعض الشيء:

_ما هذا الهراء الذي تتفوه به يا دكتور صحيح أنني فقدت كل نقودي واقترضت العديد من الديون لكن كل هذا حتى يعود أبي لحالته الطبيعية لقد وعدتني منذ كنت بسن الثامنة أنك ستعيد أبي لحاله إن نسيت... فأنا سأذكّرك مرارا وتكرارا، هل فهمتني سيشفى أبي وسيعود لسابق عهده معافى بكل قواه العقلية، إيماني بالله هو من يخبرني بهذا يا أيها الطبيب...

قال محتارا:

_إذا أردت فعلا مساعدته فعليك ببلد أجنبي، لربما يمكنهم تشخيص حالته لعلاجه فمثل هكذا حالات لا تشفى في بلدنا وأنت أدرى بهذا يا بني، أما أنا فقد قمت بما عليّ سأحاول الوفاء بوعدي لك كما وعدتك فإن لم أستطع لا تلمني رجاء فقد ربطت كلتا يدي من وضعيته فهي شيء جديد كلّيا بالنسبة لي... قلت له:

_تمسّك بحبل الله معي يا أيها الطبيب فإنه لا ينقطع، سيعود لوعيه حتى إن انتهى بي المطاف أبيع آخر قطعة من ملابسي، سأنتظره عشر سنوات لو تطلب الأمر...

ربت على كتفي قائلا:

_جيد... جيد... لا تفقد حماسك فهو سيلعب دورا كبيرا لشفاء والدك هذا ما شعرت به عند الاستماع لكلماتك، كن فخورا بنفسك أنت مثال

يحتذى به حين يتعلق الأمر بمن تحب فعلا قد كبرت لتصبح رجلا يا بني... أستودعك خيرا يجب علي الرحيل فلدي الكثير من المرضى وداعا...
بعد رحيل الطبيب دخلت فورا لأمي وقلت لها بأني سأتركها مع أبي لساعة على الأقل ريثما أنهي مقابلة العمل التي أنتظرها منذ شهرين...
فقد خرجت مسرعا حتى لا أظهر أي حزن أمام أمي فهي يمكنها قراءتي بسهولة فتجبرني على البوح بالحوار الذي دار بيننا... يا إلهي أمي فعلا حذقة للغاية، أحبهما كثيرا فهما أول حب حظيت به منذ ولدت سأعود لكما حاملا الأخبار المفرحة لكما بإذن الله' ...

***

شققت دربي نحو مكان المؤسسة مشيا على الأقدام لعدم حيازتي لأي مبلغ من المال... استغرقت بعض الوقت لحسن الحظ مكان هذه المؤسسة ليس بالبعيد عن مبيت والدي، لا أحب قول كلمة مستشفى المجانين للأمانة فهي تشعرني بأن أبي لا يمكن شفاؤه وتزيد من ضعفي على مواصلة تحقيق حلمي الرئيسي... سأسعى بكلّ ما أملك لتحقيقه.
لكن أوضاع من هم أمثالي أي الطبقة السفلى من المجتمع الذين يغطيهم التراب وهم أحياء سيؤذون أعناقهم إن رفعوها للأعلى منتظرين هذه المنظومة الحكومية لتدفعهم قليلا لتحقيق طموحاتهم فإما تنهض بنفسك يا إياد أو تبقى تلامس قعر الفشل وحيدا وترضى بعدم التغيير...
وهذا ما أرفضه قطعا كاملا سأحقق كل ما أريد غدا بإذن الله...

بعد مضي تلك المسافة الآن أنا أمام باب المدير يجب علي التحلي بالثقة الكاملة أمامه يجب عدم إظهار أي ثغرات، لا يمكنني خسارة الوظيفة مهما كلف الأمر إن حصلت عليها سيخفّ الضغط عني قليلا من الناحية المالية وإن لم يقع أي خطأ يمكنني تسديد كلّ ديوني وبعدها سأقوم بالرحيل عن ذلك الحي، سأستأجر منزلا أكثر راحة لأمي ثم سأتمكن من معالجة أبي بعد كل تلك السنوات العجاف ثم بعدها

سأشتري سيارة وأخيرا سأتزوّج أروى حبيبتي الغالية... سمعت سكرتيرة تنادي باسمي المدعو إياد يمكنك مقابلة المدير فهو يريد مقابلتك الآن... أجبتها أنا قادم حالا يا سيدتي... بينما كنت أمشي ناحية الباب قلت في نفسي لن تصير أحلامي حقيقة حتى أضع كلتا يديّ على هذه الوظيفة... أول خطوة هي إقناع هذا المدير بقدرتي فقط تشجع إما اليوم أو فلا...

طرقت الباب ثم دخلت لأرى شخصا ذا نظرات ثاقبة أصابني بالذّعر نوعا ما أول مرة، لكن تمالكت قلقي مشجعا نفسي لا تهرع يمكنك القيام بها لا تهرع أنت أهل لهذه الوظيفة وغيرك ليس أفضل منك تشجّع... قال بصوت صارم:

_ تفضل فلتجلس في هذا المقعد الذي أمامك وبعدها سنرى في أمرك...

جلست دون القيام بأي ردة فعل أو التلفظ بأيّ كلمة، ثم قال إذن بماذا سيفيدنا توظيفك عندنا وما هو طموحك الوظيفي أخبرني...

كان علي التريث قليلا وتحليل شخصية المدير جيدا حتى لا أقع في فخّه فلاحظت أنه يداعب فكّه بيده اليمنى بينما ينظر لي مركّزا في عيني ويراقب الساعة في يده اليسرى حين أخفض عيني، نعم لقد أخفضت عيني عمدا لأعرف ماذا سيفعل، نعم لقد حلّلت شخصيتك أنه شخص يعطي للوقت قيمة كبرى لهذا إجبارا يجب الإجابة باختصار كبير وألا أثرثر أمامه بالكلام الزائد وحركة يديه قد تعمّدها ليريني أنه يحب إدخال لغة الجسد لتزيد درجة إقناعي حين أختار الكلمات المناسبة... لن أفشل هذه المرة سأحصل على الوظيفة وأنت أول من سيعترف بي كموظف مؤهل لهذه المؤسسة... قلت بالثقة مع ابتسامة طفيفة على وجهي:

_ سيفيدك توظيفي بزيادة جودة مؤسستكم في السوق فأنا أثق أني سأخلف أثرا واضحا داخل وخارج محيطكم مع إمكانيتي شغل العديد من المناصب المختلفة فأنا متعدّد المهارة هذا ليس غرورا مني يا سيدي لكن يمكنك تسميتي بالموظف المطلوب في كلّ المؤسسات... يمكنك

تجريبي إذا أردت أما عن طموحي فهو شغل مكانك قبل عمر الأربعين...
بدأ يضحك من مكانه ويقول يبدو أنك لاحظت كيفية الإجابة عن أسئلتي مثلما أردت باختصار وباستعمال يديك كذلك وما أعجبني ثقتك العالية في نفسك وطموحك الكبير... سأعطيك الوظيفة لكن سأطرح عليك سؤالا أثار حيرتي بعدما قابلتك، عندما أمسكت سيرتك الذاتية علمت أنك ذكي للغاية لأنك الرقم واحد الثابت في دراستك الثانوية والجامعية بتخصص المحاسبة مع إضافة تخصّص إدارة أعمال أي أنّني أمام شخص يمكن أن يصير مديرا بالفعل قبل الأربعين، أمّا ما حرّك حيرتي أنك طردت ثماني مرّات فيما مضى دون تبيين سبب ذلك وأقصى مدة مارست فيها العمل لا تتعدى أسبوعا... فماذا حصل لك فلتصارحني رجاء...

علمت أنه سيطرح علي هذا السؤال فلا داعي للكذب إذن سأخبره ببساطة وبلا مراوغات... حسنا سأخبرك بالحقيقة لأكون صريحا معك ما قلته كلّه صحيح لا يمكنني نكران ذلك أبدا أما عن أسباب طردي فهي بالفعل غير معروفة حتى أنا لم أعرفها لا ربما أخذ شخص مكاني بفضل أموال والديه أو توصية خارجية فلا تستغرب فهذا حال كل من هم بأمثالي لا داعم لهم إلا الله المستجيب لدعوات أمهاتهم، وأنت طلبت مني عدم كتم أو إخفاء أي شيء وأظن نفس الأمر سيحدث لي معكم فليس بالجديد بالنسبة لي... فقال:
_لا تقلق يا بني مؤسستنا لا تتعامل بالمشبوهات التي أشرت عليها أثبت جدارتك تضمن منصبك هذا مبدؤنا الأول، أما في حالة طردي لك كن مطمئنا سأطلعك على السبب لا تقلق أبدا... أنت بالفعل شخص مثير للاهتمام أراك غدا، إذن ستتولى منصب المحاسب الجديد. يمكنك المباشرة

عند خروجك فلتتوجّه عند السّكرتيرة ستطلعك على باقي تفاصيل عقد عملك وغيرها... شكرته بحرارة ثم قلت له:

_سترى لن أخيب ثقتك بي، فقط راقبني يا أيها المدير...

بعد ساعة أنهيت كل المعاملات الضرورية لأعود أدراجي عند أمي فقد أخبرتها أن لي بشرى سأزفّها إليها لتشاركني فرحتي وكنت أتخيل أن تلك الأحلام بدأت تصبح واقعا ملموسا، فهذه المرة سأرتقي عاليا... بينما أنا أمشي ممتلئا على آخري بالسعادة أحسست بشخص خلفي يلاحقني فأدرت وجهي بسرعة لأرى من يكون هذا الشخص فلربما هو أحد أتباع ذلك المعتوه مروان يريد الإيقاع بي أو لربما يكيدون لي مكيدة دون علمي... حين استدرت لم أعثر على أيّ شخص إلا عجوزا طاعنة في السن تمشي بمفردها تتكئ على عصاها معها بعض الأغراض ثم قمت بتمشيط كل المكان لأتأكّد من الأمر فلم أجد أي علامة تدل على أن هناك شخصا يتابعني خفية... فقلت وأنا واضع يديّ على رأسي أنت تتوهّم يا إياد، لقد أفقدتك تلك السّعادة عقلك كليا... ثم أكملت طريقي بلا أن أعير اهتماما كبيرا لتلك الشّكوك ...

عدت للمستشفى أين تركت أمّي وأبي دخلت عليهما قائلا يا والداي لقد حصلت على تلك الوظيفة فاقتربت لأمّي وقبّلت يديها وهي تربّت على رأسي قائلة ألم أقل لك ما عليك سوى التحلّي بالإيمان فمن يصبر ينصفه الله وها قد كافأك بما يريد قلبك يا بنيّ... قلت لها ممتنّا:

_قد حصل يا أمي... قد حصل أخيرا...

ثم رفعت رأسي لأقبّل رأس أبي قائلا:

_ إن كنت تسمعني وأنا أعرف أنك تسمعني أريد إخبارك ببضع نقاط هي كالتّالي أول نقطة هي زوجتك لا تأكل همّها فهي في أياد أمينة، أما النقطة الثانية اليوم حظيت بوظيفة جديدة ستساعدني في السّعي لتوفير مال كاف لأعالجك في أقرب وقت، أما النّقطة الثّالثة والأخيرة هي أنّني أفتقد وجودك بقربي يا أول حبّ لي... أرجوك لا تطل هذه الوضعية التي

أنت بها، كافح من أجلي ومن أجل زوجتك والأهم من أجل نفسك. ثمّ بدأت أذرف قليلا من الدّموع أخفيتها عن أمّي متمّما كلامي يا أبي فعلا نيران الشّوق لك قد أحرقتنا فلتصحِ رجاء.... عد لوعيك رجاء...

هنا دخلت الممرضة معلنة أنّ وقت الزّيارة قد انتهى وحان وقت دواء السيد باهر وأيضا ليأخذ قسطا من الراحة... ناديت على أمّي هيا نحن كذلك يجب علينا المغادرة، فقد كان يومنا حافلا حتى اللّحظة...

خرجنا من المستشفى كلانا سعيد وبينما نحن نتبادل أطراف الحديث عن مقابلة العمل، لكي نخفّف من طول الطّريق، توقّفت سيارة فاخرة للغاية أمامنا مباشرة ونطق من بداخلها: هناك توصيلة بالمجّان إذا أردتما وإن لم تريدا الصّعود سأضطرّ إلى اختطافكما بالقوة هل سمعتني يا عيني السّماء...

عيني السماء وهذا الصوت أمّي أليس هو...؟ قالت أمّي نعم إنّه هو لا أحد سواه، إنه أخوك آدم... قلت نعم بالتّأكيد أنّه هو عيني العشب ثم نزل من سيارته وقلت يا إلهي كم تغيّرت عن السّابق ففي الماضي كنت قصيرا وكان وزنك بنفس وزن الرّيشة أمّا الآن كأنّه مددك أحدهم لتصبح بمثل طولي ويا له من جسم هل ستدخل لمسابقة حمل أوزان أو لدخول حرب وشعرك ازداد طولا وسوادا لقد تغيّرت كثيرا لكن عينيك العشبيتين وصوتك بقيا كما هما يا أخي فعلا بداية اليوم المريعة لا تعني بالضرورة نفس النهاية، فعلا هذا أحد أفضل أيام حياتي...قال ضاحكا:

_تعال أمي يقين سأحمل حقيبتك حتى يضعك إياد على المقعد الخلفي ثم سأخفي كرسيك المتحرك في الخلف...

تمت العملية لنصعد بعدها للسيارة وانطلقنا ناحية المنزل فتحدّثنا عن أين كان وماذا يفعل في حياته، ما هو عمله وغيرها من الأسئلة المعتادة التي تسأل لأيّ شخص عزيز يأتي فجأة بعد طول غياب...

وصلنا للمنزل، لم يرد النّزول من السيارة وأشار بيده بأنّه يريد مقابلتي وجها لوجه، فقلت لأمّي حسنا أمّي حان وقت دوائك أنت أيضا سأذهب لأشتري طعاما وهكذا سيتسنّى لي أن أفضفض قليلا مع عيني العشب فقط بعض الوقت وأعود إليك... قالت برضا:

_لا تشغل بالك بي يا بني سأتدبر أمري بمفردي لتذهب وتتحدث مع أخيك آدم فأنا متأكدة أنكما مشتاقان لبعض كثيرا...

قال آدم شاكرا:

_شكرا لك على تفهّمك يا أمّي يقين ما زلت ذكية جدا كما السّابق فعلا تتفهمين الأمور بلا حاجة منا لنطقها كم أحسد ذي عيني السماء على أمّ مثلك على كل حال سنذهب، سآتي لأزورك بين الفينة والأخرى إن لم أسبّب لك إزعاجا...

قالت أمّي بصوتها الحنون:

_ سامحك الله يا بني... أنت أيضا بني حتى لو لم تكن من صلبي فقد رعيتك بعيني وأنت أدرى...

انتهى حديثنا بتوديع آدم لأمي ثم أدخلتها المنزل واضعا إياها على فراشها وذهبت أنا وأخي لشراء الطعام، توقفنا عند أحد المطاعم وقال هل تتذكر هذا المكان؟ علمت ما كان يقصد فالتزمت الصمت وأكمل هنا بالذات أتذكر أنني كنت صغيرا ذو عشر سنوات وكان بائع السندويتشات بدكّانه الصغير هناك وكما تعلم فأنا لا أملك والدَيْن فقد قيل لي أنهما قد تركاني وأنا بعمر سنتين بعدما رموني أمام باب الميتم فعشت طفولتي بلا تكوين أي صداقات بعدها تكفل بتبني رجل فاحش الثراء وأنا بعمر الرابعة لأنه لم يتزوج أو ينجب أطفالا لكن رغم حياة الترف والعزّ التي بسطت لي ظل يحاول إرغامي على أن أكون دمية، هو الذي يقوم بصنعها دمية لا روح لها ولا إرادة فقط شخصا مسلوب الحرية شخصا لا يتنفس كما يريد، شخصا دائم الاختناق في هذا العالم

حتى وصلت عمر العاشرة فقرّرت الهرب وبالفعل قمت بالهرب وتجوّلت في هذه الأزقّة... بدأ يضحك مع الحرقة قائلا فمن وريث لرجل يملك من المال جبالا إلى أصغر متسوّل في المدينة جائع... ضائع... لا مأوى له... لا أحد له غير الله ونفسه أنظر هناك ذلك المطعم الّذي أصبح الآن أكبر من الماضي أتذكّر جيّدا أنّي ذهبت باكيا طالبا الطّعام منه فطردني ثمّ أعدت المحاولة فضربني وألقى بي خارجا طفلا بعمر العاشرة يعامل بلا رأفة طفل بعمر العاشرة لا يسأل عنه أحد من كل هؤلاء، يصطفّون لطلب تلك الشّطائر لأبنائهم... أتذكّر كان الفصل شتاء كنت واضعا رأسي أسفلا بين ركبتي أرتعش بردا ودموعي لم تتوقف عن النزول مطلقا... إلى أن سمعت صوت فتى، رفعت رأسي لأرى فتى بمثل عمري تقريبا ذي عينين سماويتين حاملا معه إحدى الشطائر فقسمها لنصفين نصف له والنصف الثاني لي ثمّ عاد لأمه المقعدة التي أعطته وشاحها فأتى ولفّه حول عنقي... كان أنت يا إياد أول شخص في حياتي يعاملني بلطف مقدّما لي المساعدة بحسن النية بغير محاولة تغييري لقد تقبلتني كما أنا...

التفت لي وقال:

_هل تتذكر يا إياد ما حصل بعدها في ذاك اليوم؟

قلت ضاحكا:

_ نعم أتذكر جيدا لقد أخذناك لمركز الشرطة وقمنا بالإبلاغ عنك... بعدها أعطيناهم عنوان المنزل احتسابا لحدوث مستجدات ثم رجع ثلاثتنا لمنزلنا وأمضينا أربعة أيام لا تنسى من لعب معا ومرح فقد كنت أول فتى ألعب معه كل تلك المدة بلا توقّف...

انفجرنا بالضحك وقال ناظرا لأعلى السماء:

_ فعلا أفضل أيام في حياتي هي تلك لا يمكن تكرارها بسببها عرفت معنى كلمة عائلة حقا...

ثم قلت له:

_أتذكر أيضا أنه حضر شخص يبدو ما بين السادسة والأربعين أو الخمسين في السن قام بأخذك من مخفر الشرطة بعد أن أوصلناك هناك، يبدو شخصا ذا مكانة وهيبة من ملابسه السوداء ووشاحه البني ونظراته الغريبة مع طريقة كلامه اللبقة... قام بشكر أمي لأنها اعتنت بك وسألني هل هذا صديقك قصدا عنك... قلت له نعم إنه صديقي الوحيد الذي أعرفه...

قال:

_ما اسمك... قلت له... إياد... قال وهو يضحك: سأرسله ليلعب معك بين الفينة والفينة لتعتني به ثم قطعت له وعدا بذلك أما ما يبدو أنك أنت من تعتني بي ولست أنا...

قال مغيّرا مجرى الكلام حفاظا على كرامتي... نعم فمنذ ذلك اليوم أصبحنا نلتقي وزاد ارتباطنا ببعض، فقد أصبح بيننا رابط أخوي حتى لو لم يكن بيننا صلة دم... وأكملنا دراستنا مع بعض لكن يا ذا العينين السماويتين كنت دائما تتفوق علي لم أستطع مجاراتك، كنت رقم واحد ودائما أنا خلفك يا لك من منافس شرس يا إياد... كنت خير أخ صادقته وخير منافس نازلته أنت رائع صدقا...

ثم قال آدم ضاحكا:

_حكايتنا فعلا يمكنها أن تصبح فيلما يجني ملايين الدولارات إن عرض هل تعلم هذا... صحيح قد غبت لأن ذلك الرجل الذي تبناني قد مات أو بالأحرى قد قتل قبل أربع سنوات مخلّفا ثروته كلها لي، هذا الأمر الذي دفعني لأنظم كلّ أعماله خارج البلاد مما استغرق مني كل هذا الوقت لأعود...

قلت له:

_أنت تمزح أليس كذلك!

قال بجدية بالغة:

_لا لست أمزح فقد عثروا على جثته مقتولا في غرفته عبر نحره لكن الفاعل لم يعثروا عليه لحد الساعة ودوافع الجريمة غير معروفة للأسف أتمنى أن يجدوا الفاعل ويعاقبوه، صحيح أنه شخص آذاني في السابق بمحاولة إخضاعي بطريقة تربيته لي لكن القتل نهاية بشعة لا يستحقها...

قلت له:

_يا إلهي كل هذا حصل لماذا لم تخبرني...

قال:

_لم أرد إزعاجك وهو ليس بالموضوع الذي قد يفيد التحدّث فيه، دعنا منه قل لي ماذا تعمل؟

أجبته:

_لقد عينت في وظيفة اليوم كمحاسب لإحدى المؤسسات متوسطة الحجم وسأبدأ غدا بإذن الله...

قال:

_هكذا الأمر إذن أنا أيضا كنت أريد عرض عمل عليك فإذا أردت تغيير عملك فلتخبرني يا أخي.

قلت:

_حسنا سأجرب هذا العمل وأخبرك ما هو قراري، أما بشأن الديون التي أقرضتني إياها سأسدّدها لك في أقرب فترة ممكنة... أعرني القليل من الوقت فقط...

قال مبتسما:

_حسنا لن أجبرك يا أخي افعل ما تريد إذا أردت فأرجعهم وإن لم ترد فحسنا الأمر برمته راجع لك... أكمل قائلا وهو مصر اليوم طعامكم على حسابي ولا أريد اعتراضا منك المرة القادمة عليك، هذا الدين أنت مجبر على رده فلا تنسى... أجبته: حسنا ليكن لك ذلك...

نزلنا واشترى الطعام لنا كأنه علم لأنني لا أملك دينارا واحدا في جيبي... أنت بالفعل رائع يا آدم دائما ما تغرقني بجميلك وتساعدني

في أضيق زاوية في حياتي، أما أنا فماذا قدمت لك مجرد نصف شطيرة ووشاح أمي لا أكثر... فعلا الجميل يختلف على اختلاف الناس فأنا الذي أرى كل تلك الديون التي اقترضتها منه كبيرة جدا، هو لا يراها تساوي ثمن تلك الشطيرة والوشاح يا له من منطق غريب لدينا نحن البشر...

***

شكرا لك على إيصالي وتمضية الوقت معك يا إياد لقد استرجعت أفضل ذكريات طفولتي، لكن لماذا لا تقبل بدخولك المنزل لنتناول معا الطعام... قال لا أريد إزعاجكم وأنا متعب من السفر سأغادر لأنال قسطا من الراحة... ودّعني ورحل هو هكذا دائما...
صعدت للمنزل وعند فتحي الباب وجدت أمي تنتظرني قالت أين آدم؟ أجبتها لقد رحل لم يرد الصعود فهو متعب من السفر... قالت أريد شكره لأنه أخفى بعض المال بداخل حقيبتي... قلت في نفسي لهذا غادرت مسرعا يا لك من شخص يا آدم... فعلا شكرا لك...

***

أخيرا بقينا لوحدنا يا أمي فعلا كان يوما حافلا لا ينسى... أكلنا لحد الشبع فقد كانت شهيتنا مفتوحة على غير المعتاد ثم صلينا معا شاكرين لله وحان وقت دوائك، بعدها وضعت أمي في فراشها صحيح أن الوقت قد يكون غير متأخر للنوم لكن بما أنني سألتزم ببرنامج معين لأصحو به صباحا من أجل العمل لا بدّ لي من النوم حالا، هكذا يمكنني توفير ثمان ساعات على الأقل، فنومي المتقطع بسبب ذلك الكابوس المتواصل يجعلني دائما بحالة يرثى لها من احمرار في عيني مصحوبا مع سواد أسفلهما والنعاس المفاجئ...

***

(3)

ذكرى من الماضي

مضى أسبوع كامل كان كل شيء مستقرا، أمي بحالة ممتازة أراقبها باستمرار، أما في عملي حظيت بالقبول من جميع من في المؤسسة. برهنت عن قدراتي هناك واقتنع بي مديري بعد إخضاعي لتجربة نجحت بها بالعلامة الكاملة، أما آدم فتأجّلت رحلته الأسبوع القادم ليغادرنا مرة أخرى خارج البلد لكن ما لم يتغيّر إلا صيحات المعتوه مروان على والديه في البناية، لكن يبدو أنه لم يجلس مطلقا أمام مخرج الحي، نعم توبيخات العم وائل قد نجحت وكذلك حال أبي لم يتغيّر مطلقا فمازال كما هو ينظر في الفراغ...

عدت من العمل مرهقا فوجدت أمي حضرت مائدة بسيطة فيها بعض الطعام قلت لها لماذا أجهدت نفسك عبثا لقد أحضرت معي بعض الأكل الجاهز... قالت ممازحة لي:

_ ليس لك وحدك فلدينا ضيف مهم اليوم...

قلت مبتسما:

_ ربما عرفت من يكون...

فتحت الباب لأجد أخي ذوي العينين العشبيتين تكلمت بصوت مرتفع قليلا إذن فأنت ضيفنا اليوم... تفضل مرحبا بك.

أدخلته بعدها تناولنا الطعام وجمعت الأطباق ثم غسلتها وتركت أمي مع آدم يتحدّثان في موضوع ما، ثم عدت لأجلس معهم فتبادلنا الحديث مطولا حتى وصلنا لنقطة معينة أشار بها آدم لأمي... قال سائلا:

_أمي يقين لطالما أردت طرح هذا السؤال عليك لكن ظننت أنه مبالغ به وهنا أظنّها فرصة مناسبة لأمليه عليك، كيف اجتمعتما أنت والعم باهر؟

قلت مؤيدا له:

_ صحيح لم تخبريني أبدا هيا أخبرينا يا أمي... لقد حركت الأجواء هنا يا آدم سترى احمرارا لا تراه كل يوم...

فعلا تغير لون وجه أمي خجلا، ترددت في الوهلة الأولى من الحديث عن حكايتهما لكن نظرات آدم لها أرغمتها على تخطي خجلها فهذا أول سؤال أو يعتبر طلبه الأول لها فكان عصيا عليها رده وعدم إخباره، لربما إن ألقيته أنا عليها لقابلتني بالرفض لأن نقطة ضعفها هي أبي وهي تخجل للغاية حين يفتح أي موضوع يخصه خاصة أنها لا تحب التكلم عنه أمامي لأنني أستغل الأمر بشكل سيء... شكرا يا آدم سأعرف قصتهم بفضلك... قالت بخجل:

_سأخبرك يا بني فقط لا تسمح له بالتكلّم هل اتفقنا...؟

قال آدم:

_حسنا يا أمي يقين دعي أمره لي فجلس بجانبي ومرر يديه فوق عنقي ووضعهما على فمي حتى لا أتكلم مطلقا... يا له من فعل خبيث قمت به يا آدم...

تكلمت أمي: قصتنا بدأت قبل واحد وأربعين سنة من يومنا هذا حين كنت أبلغ عشرين سنة وأبوك اثنين وعشرين سنة كنت ذلك الوقت يمكنني أن أمشي لكن ليس كباقي الناس كانت تلزمني عصا طبية لأتكئ عليها فقد عانيت منذ الصغر من ضعف في قدمي ورثته عن جدي... واصلت العيش لكن الكآبة بدأت تتوغل داخل قلبي رويدا رويدا لأنني كرهت نفسي فقد صرت عبئا كبيرا على عائلتي لعدم قدرة أبي على توفير مصاريف علاجي لأن احتمال شفائي من ما أنا فيه الآن كان واردا للغاية لكني لم أمتلك الصبر اللازم لذلك أردت الشفاء سريعا فكلما رأيت شخصا عاديا يمشي على قدميه كان يؤلمني قلبي للغاية... تفطن أبي أنني في حالة تتدهور تدريجيا فنصحه أحد أصدقائه بعدما حكى له ما يجري لي... قال له لماذا لا تغير المكان لعدة أيام لعلها تبتهج وتخرج مما هي فيه فأخذ أبي بالنصيحة بعدها بيومين توجهنا لأحد الولايات الساحلية في شمال

الجزائر لنقيم هناك... وصلنا لأحد الغابات شديدة الاخضرار منظرها أكثر من رائع، هواؤها كوجبة طازجة لكل من استنشقه وزقزقة العصافير تعم المكان فتزيده بهجة وصفاء... كل الأشياء في بداية الأمر كانت مثل الخيال، ظننت أني في حلم، لكن حين مسست تلك الطبيعة بعيني علمت أن هذا المكان حقيقي، نصب أبي الخيمة مع أخي الصغير لنخيم هناك فلم تكن هناك فنادق بذلك الوقت وجهزت أمي بعض الأكل لنأكله حتى حلّ الليل، نمنا جميعا إلا أنا لم يغمض لي جفن، شعرت بالملل الشديد فسحبت عصا بقربي لأنهض بمساعدتها ثم غصت داخل الغابة لم أعلم أين إلى أتجه فقط أمشي وأمشي حتى ابتعدت عن مكان مخيم عائلتي. توقفت قدامي عن حملي فوضعت ظهري على شجرة كانت كبيرة للغاية وحجمها مختلف عن باقي الأشجار... مرعبة الشكل... لونها داكن للغاية... تعالت أصوات الحيوانات بعد هدوء دام لبضع دقائق... أتذكر أنني وضعت يدي على فمي وانهمرت عيني بالدموع قائلة ما الذي حركني من موضعي بئسا لي...

بقيت على وضعي حوالي عشر دقائق لأسمع إطلاقا للنار ليس ببعيد عني، تلك كانت أول مرة في حياتي أسمعه كان دويه قويا جدا فزاد معدل ضربات قلبي مع ارتجاف شديد لجسمي لأتصلب في مكاني حتى تكرر دوي الرصاصة الثانية والثالثة والرابعة... قلت ماذا يحدث هل هناك حرب في الأفق...؟ زاد مستوى إطلاق النار ليقترب أكثر فأكثر فبدأت بالصراخ من أجل أن يسمعني أبي ويهرع لإنقاذي حتى اقترب مني ضوء فأخفيت وجهي عبر يدي لأحمي عيني من شدة سطوعه القوية... قلت أبي... أبي... أهذا أنت...؟

نطق شاب بمثل عمري تقريبا أو أكثر لم أره جيدا من الضوء الذي يحمله رغم ذلك تعرفت من صوته أنه ليس بصغير فوضع مصباحه على الأرض... قال بصوت حنون:

_ماذا تفعلين هنا هل أنت ضائعة؟
أومأت له برأسي إيجابا، قال مطمئنا إياي:
_لا تقلقي أنا وأبي نحرس هذه المحمية بينما كان أبي يحاول قتل ذئب رآه سمعت صوتا من بعيد فتتبعته لأجدك مستلقية على هذه الشجرة الغريبة... سأبقى معك وأحميك ريثما تشرق الشمس فنتمكن من التحرك براحة لأنه من التهور التقدم في الظلام الدامس كهذا...
انتهى صوت إطلاق النار المخيف وكذلك أصوات الحيوانات انقطعت عنا فساد المكان الهدوء من جديد... لم ينم كلانا حتى بزغت الشمس، حاولت النهوض بمفردي لكن خارت قواي فطلب مني بأدب أن أسمح له بحملي على ظهره لكي نجد عائلتي بأسرع وقت ممكن...
انتهى بي المطاف على ظهره وحاول التكلم معي لكن لم أرد على حديثه مطلقا فلا خبرة لي بالتكلم مع الغريبين عني... كان شخصا ظريفا... شخصا يحب مساعدة الناس المحتاجين للمساعدة... شخصا دائم الابتسام والتفاؤل... شخصا لا مثيل له...
بعد أن تهنا مرات عديدة لكن بلا توقف واصلنا المشي، سمعت صوت أبي من بعيد فأشرت بإصبعي السبابة ناحيته فأخذني إليهم، كانوا قلقين... حملني أبي باكيا وتبعته أمي وأخي... شرح لهم ذلك الشخص ما جرى وطمأنهم بأنه قام بحراستي حتى الصباح...
قال له أبي:
_ما اسمك يا فتى؟
رد قائلا:
_اسمي باهر يا سيدي...
شكره أبي قائلا:
_أنا مدين لك بحياتي يا باهر لأنّك اعتنيت بابنتي العاجزة...
ثم جاء بعدها والد باهر وشرح له باهر ما جرى بالتفصيل وكيف آلت الأمور لهنا وتوطدت العلاقة بين أبي وأبيه... هكذا انتهت قصتنا بالزواج...

أمسكت أمي صورة أمامها بها صورتها هي وأبي أمام تلك الشّجرة الغريبة تنظر إليها بتمعّن قائلة:
_انظرا هذه الشّجرة هي أول مكان جمعنا مع بعض، هذه الصورة بعد زواجنا هي رمز لمكان لقائنا العجيب الذي ربطنا ببعضنا البعض للأبد...

***

بالفعل يا لها من قصّة غريبة قد جمعت فيما بينهما، لولا سؤال آدم لما عرفت أيّ شيء عنهما، لكن ليس هناك داع لإخفاء هذه القصّة في نهاية المطاف حتّى لو كانت تخجل من أبي بالتّأكيد هناك أمر مريب في الأمر... إحساس غير مسبوق يثير فضولي لمعرفة سبب عدم البوح لي... سأنتظر فقط لربما في يوم ما تخبرني هي بنفسها، ليس من الصّحيح الإلحاح عليها لربما لديها شؤونها الخاصة لإخفاء الأمر...

***

مرّ يومان على حديثنا... كالعادة نزلت من المنزل بغية اللّحاق بالعمل حتى لا أتأخّر لأنه من الضروري ترك انطباع جيّد عني من أول شهر لي في العمل... كنت أرتّب ربطة عنقي عند خروجي من باب البناية الرئيسي لأشاهد المدعو مروان يحمل حقيبة في ظهره، ما إن رآني أراقبه هرب مسرعا كأنه رأى وحشا أمامه... لم يكن على طبيعته الحقيرة بل متوترا...مترددا... خائفا.. جميع حواسه متأهبة على أقصى حدودها... قلت ربما تورّط في أمر أكبر منه من جديد، لطالما كان كذلك دائما يدفع ضريبة قراراته الخاطئة وغير المحسوبة، فالعالم الذي يحاول التوغّل فيه يوجد به أسوأ البشر على الأرض... نهاية أمثاله معروفة هي التضحية به من أجل أشخاص يعتبرونه مجرّد بيدق يقومون بتحريكه حسب رغباتهم الجشعة...

قلت في نفسي بنظرة يغمرها أسى على حاله:
_ فليهده الله ويرجع لطريق الصّواب...
ذهبت مشيا على الأقدام أنظر للسّاعة بين كلّ دقيقة وأخرى لأتأكّد بأنّني سأكون أول الواصلين، فشغف العمل طغى على عقلي كلّيا وأمنية أن أصبح مديرا قبل الأربعين الّتي قلتها مجاملا نفسي بها، أريد جعلها واقعا لأرضي قلبي الّذي يحركني لأحقّقها... الأربعون ليست ببعيدة عنّي والفارق الذي بيننا سوى عشر سنين وخمسة أيام إذا حسبنا اليوم... فعلا العمر يمضي بلمح البصر والأحلام لا تتعلّق بالعمر بل تتعلّق بشخص لا أكثر هذا أحد مبادئ المقتنع بها اقتناعا منقطع النّظير...
كدت الوصول لباب المؤسسة لألتقي بشخص يبدو في الخمسين من عمره أو أكثر، ذي بشرة داكنة لون شعره مزيج بين السّواد والشيب، يتمتع بطريقة مشي تلفت الانتباه مثيرة للشفقة، يحمل أدوات مطبخية على اختلافها: شوكات... معالق... أطباق بلاستيكية... وغيرها... بدأ يترنّح في المشي ثمّ وقع أرضا مع أغراضه... هرعت له لمساعدته فأمسكت جميع أغراضه المتساقطة وأرجعتها لداخل الصندوق ثم ساعدته للنهوض قائلا:
_ هل أنت بخير يا عم؟
قال ناظرا لعيني بتمعّن:
_ أنا بخير بفضل مساعدتك لي يا بنيّ، وأكمل لقد كبرت يا فتى حقا...
قلت له: ماذا تقصد يا عم، هل تعرفني أو أعرفك؟
قال نافيا:
_لا...لا أعرفك، قصدت أنّ جيلك كبر ليقدّم المساعدة لجيلي... لقد كبرنا يا بني... شكرا لك سأذهب لأبيع هذه الأغراض في السّوق لأسترزق ببعض النقود فعائلتي جوعى...
أخذت عملة ورقية بفئة المئة أعطيتها له وتمنّيت له يوما مباركا ثم أكملت نحو باب المؤسّسة لأدخل وأبدأ بالعمل مباشرة...

أنهيت دوامي وخرجت آخر شخص من العاملين بعد المدير طبعا، فهو آخر شخص يخرج، هذا طبعه على كلّ حال... قدمت للمنزل لألقى أمي أعدت بعض الطّعام الخفيف... جلسنا ثمّ تناولنا كلّ الطّعام وبعد أن غسلت الأطباق تذكّرت ذلك الرّجل يا لحاله الحزينة فعلا فقراء يعيشون حياة قاسية جدّا... يا ليت الفقر يهجر عالمنا بلا عودة... جلست مع أمي ثم تبادلنا الحديث مطوّلا حتى وصلت لنقطة معينة... قالت فجأة:

_يا بني متى سأرى أطفالك؟

قلت خجلا:

_حين يحين الوقت المناسب يا أمي... أكملت أريد تأسيس عائلة لكن حين تتيسّر حالتنا المادية قليلا فأنت تعلمين متطلبات الحياة الزّوجية في بلادنا غالية جدّا وبحالتي هاته سيكون مصيري الطّلاق لا محالة... لا... لا... ليس الآن.

قالت مبتسمة:

_إذن هناك حلّ ستخبرني من تكون تلك الفتاة التي سرقت فؤادك منك ثم سأخطبها لك حتى تتيسّر حالتك قليلا فتتزوج... ما رأيك؟

قلت خجلا ومتلعثما:

_لم أفكّر بهذا الأسلوب من قبل... إذا كنت مصرة سنطلب يدها، ثم كيف علمت لم أخبرك مطلقا عن أمرها...

قالت: أعلم... أعلم... فأنت تذكرني بنفسي عندما وقعت في حبّ أبيك... كنت أتصرّف مثلك بالضبط.. عدم إخبار أحد... احتواء ثم محاولة قمع مشاعري... احمرار وتلعثم في الكلام مثل الّذي أصابك الآن... فلتبلّغها عند أقرب فرصة أتيحت لك... لنبدأ بتحقيق أحلامك معا يا ابني لن أتركك تسير وحيدا سأكون دائما بجانبك...

أمسكت يديها ناظرا في عينيها قلت:

_حلمي الأكبر يا أمّي هو إيجاد طريقة ما تساعدني على لمّ شملكما أنت وأبي مجدّدا... هذا أولا ثم سأنظر لنفسي بعدها وبما أنّك طلبت مني

سأخبرها لكن لن أتزوّج بها حتى يعود والدي مثل السّابق... قد تظنّين أنني لم ألاحظ... أنت لا تستطيعين التنفّس إلا بوجود أبي معك وهذا الأمر يؤلمني جدّا... سأبقى أناضل لأنهي اختناقك وأقتل ألمي... هذا وعد منّي لك يا أمي...

ابتسمت أمي كعادتها قائلة:

_حسنا يا بني لكن عدني أوّلا أنّك ستحافظ على نفسك وأنت تمضي في سبيلك...

قلت بكلمة واحدة:

_أعدك...

***

(4)
لماذا أنا؟

مرّت ثلاثة أيام كالبرق وبقي يوم فقط لعيد ميلادي الثّلاثين منذ الصباح الباكر، اتّصلت بي أروى طالبة مني ملاقاتي اليوم وأنها لديها هدية لي مع بعض الكلام تريد اطلاعي عليه... من فرحتي حدّدت موعدا في المساء قلت لها أنا لدي ما أقوله لها أيضا... سمعت صوت صراخ أمي... بني... بني... هيّا سنتأخّر عن أبيك... جهّز نفسك بسرعة ريثما أنتهي من طهي بعض الطّعام لأبيك... جهّزت نفسي ثمّ نزلنا نحن الاثنان وعندما خرجنا قابلنا آدم مزيحا نظّارته عن عينيه قليلا وابتسامة صغيرة في وجهه... قال مازحا:

_هل تريدون توصيلة... لا تقلق يا إياد لن تكلّفك الكثير... سأرفق بك جيدا...

هو دائما خفيف الظلّ يجيد كيف يجعل الإنسان يضحك في أسوء حالاته فعلا، الحياة تغيّر البشر من الخارج والداخل أما آدم فقد غيّرت مظهره الخارجي أما باطنه كما هو لم يطرأ عليه أيّ تغيير رغم كل ما عايشه مع متبنيه... قالت أمي:

_شكرا لحضورك يا بني... لم تردّني حين طلبت مساعدتك...

أوصلنا آدم للمستشفى لنضع أمي هناك مع أبي ما إن دخلنا حتى أمسكني الطّبيب من معصمي وعلامات التعجّب مع عدم التصديق تأكل وجهه... لم أفهم ما به حتى... قال:

_هناك تغيّر غير طبيعي في حالة والدك ويمكن أن ينطق في أي لحظة ستكون معجزة إذا فعل ذلك بعد كلّ تلك المدة الطويلة...

بلا قول ولا كلمة دخلت للغرفة مسرعا لأجد كل من آدم والممرضة في صدمة ثم أزحت عيني نحو أمّي لأجدها وضعت كفّيها على فمها... حتى بكت لتسقط دموعها الغالية، كان واقع الصّدمة جليا عليها...

قلت في نفسي:
_ما الذي يحدث هنا يا ترى...؟ صوت دقّ على طبول أذني كالغريب العائد لأرض الوطن... صوت أسمعه لأول مرة منذ أكثر من أربعة وعشرين سنة حتى أني نسيت نبرة صوته، ناطق بكلمة غريبة لم يتوقّعها ولا أحد منا... بقي على حاله يحدّق في الفراغ مثل شخص تائه في متاهات الصحراء... كعادته الملتصقة به منذ سنين... قال بصعوبة بالغة:
_أخبريه... أخبريه... أخبريه...
كلمة ليست بالمنتظرة من شخص صامت لقرابة ربع قرن من الزمن... لكن لا يهم ماذا قال فعلا ما يهمّ أنه تمكن من الكلام بعدما انتظرناه طويلا وهذه بشرة خير بالنسبة لنا كلّنا... الحمد لله كم غمرتني الفرحة يا إلهي... بعدها عاد لوضعيته كأنه لم ينطق أبدا..
نظرت للسّاعة فعلمت... سأتأخّر عن العمل خاطبت آدم بعيني فأومأ لي برأسه إيجابيا، لقد فهم علي أنني أوكلت أمر أمي له ليعيدها للمنزل، لحظة خروجي صادفت طبيب أبي أمامي... جيد سأستفسر عن حالة والدي إذن... قلت له:
_ هل اليوم سيكون نقطة تحوّل في مسار الشفاء لأنه تمكن من النّطق؟
قال لي:
_احتمال شفائه ضئيل جدّا، لأن هناك مؤشرات عديدة مثل تحريك جسده... نظرات عينيه... الوعي... وغيرها، فإن لم تحدث كلها لا يمكنني الجزم بأنّه سيشفى... الأهمّ أنه أعطانا بصيص أمل لنتفاءل...
أربعين دقيقة ستكفيني لأصل مشيَا... وصلت للشّركة دخلت متوجّها لمكتبي كدت أجلس على كرسيي لأبدأ بعملي بكلّ نشاط... نادتني سكرتيرة المدير... قائلة:
_المدير يحتاجك يا إياد...

استغربت لماذا يريدني المدير في هذا الوقت من الصباح...؟ ربّما لاحظ مثابرتي ويريد دعمي على المواصلة بهذا النّسق الممتاز... حاولت إخراج بعض الكلام من السكرتيرة.

قلت لها:

_ ألم يخبرك ماذا يريد منّي؟

قالت:

_لا قال أنّه أمر شخصي بينكما... هيّا لا تدعه ينتظرك أكثر...

قلت:

_لا توجد أمور شخصية بيني وبينه فقط علاقة عمل...

طرقت الباب ثمّ دخلت وأمرني بالجلوس... بدأ الحديث...قال بجدّيّة:

_أنت تعلم أني قدّرتك منذ أول يوم عرفتك فيه مدركا أنك ستكون قطعة أساسية في مستقبل هذه المؤسسة... أليس كذلك؟

قلت مترددّا:

_نعم يا حضرة المدير وأنا شاكر لك...

قال بلا تردّد:

_أنت مطرود... سأنهي عقدك معنا إذا، عندما تعود لمكتبك اجمع أغراضك رجاء، أكمل قائلا قد وعدتك بإخبارك سبب طردك إن حدث... يبدو أنّك لم تطرد لعدم كفاءتك أو لأن شخصا أخذ مكانك بالرّشوة أو بتوصية... لا هناك سبب أكثر خطورة يا بني... قد أرسل لي شخص فيديو مصور فيه جميع أعضاء عائلتي زوجتي وأولادي الثلاثة وأنا ثم هدّدني بالقتل إن أبقيتك معنا لهذا توجّب علي طردك فورا، لا أريد خسارة عائلتي بسببك... أنا أجزم أنه كان وراء حالات طردك السابقة. لهذا لم يدرج أي من مديريك السّابقين سبب طردك حتى لا يظلموك في محاولة البحث عن وظيفة جديدة... نعم يا بني لقد هدّدوا بسبك يا بني... لتذهب رجاء يا إياد سعد كان شرفا لي معرفتك عن قرب أمل أن نجتمع في مكان آخر غير هذه المؤسسة... الوداع...

غادرت المؤسسة بعد جمع أغراضي وأخذ تعويضي بلا قول كلمة واحدة، قد تكرّر نفس سيناريو تجاربي السابقة... قد نزل وقع كل حرف قاله المدير كصاعقة إذن أنا مراقب من قبل أحد المختلين عقليا يا إلهي من يكون... نعم أعرفه لا بدّ أنه مروان الحقير، فمن من الممكن عمل هكذا أمر منحط... بالتأكيد هو من فعلها لكن انتظر لحظة هم سكنوا منذ خمس سنوات وأنا أول وظيفة طردت منها منذ سبع سنوات... هذا الأمر غير منطقي بالمرة... من يكون هذا القذر، سأجدك وأجعلك تدفع الثمن غاليا...

***

المتصل أروى... كيف سألقى حبيبتي بهذا الغليان الذي يسري في عروقي، لا يمكنني وإلا سأفسد موعدنا، فنحن نلتقي مرّة كلّ عشرين يوما تقريبا... إن رأتني بهذه الحالة الهستيرية ستلاحظ وتبدأ بالسؤال... ما بك؟... ماذا يجري لك؟... حتى لو أخبرتها لن تصدّقني وسأبدو كالغبي أمامها... لا لا الأفضل إلغاء الموعد ريثما أعود لطبيعتي... مضت ساعة ونصف، الهاتف مازال يرن بلا انقطاع... تنهّدت تنهيدة صغيرة وقلت أوف... ماذا أفعل... خير لي أن أرد عليها فهي لا تكلّ ولا تملّ من الاتصال... أجبت على المكالمة قالت بغضب:

_ لم لا تجيب على مكالماتي؟... أين أنت أريد أن ألقاك حالا لدي شيء سأطلعك عليه...

قلت محاولا الهرب:

_لنأجل لقاءنا حتى الغد... لدي عمل كبير فوق رأسي موكل لي وحسب اعتقادي سأنتهي منه بعد خمسة عشر ساعة من العمل...

قالت صارخة وبلهفة:

_حسنا... لا يمكنني ملاقاتك في فترة الغداء الخاصة بك... سأرسل لك العنوان... إذا تأخّرت دقيقة واحدة سآتي إليك بنفسي لمكان عملك هل فهمتني...؟

قلت رافضا:

_لك ذلك سآتي حيث تريدين لا تأتي لمكان عملي... هنا أدركت أنها قامت بحصري في الزاوية... سأذهب لألقاها إذن... سأخفي حالتي النفسية هذه عنها مهما كلّفني الأمر... أنا فعلا في مأزق...

الساعة تشير إلى الواحدة والنصف ظهرا، جالس في المكان المحدد من قبل أروى... عاصر يدي بقوة من شدة الغضب مبرز نظرات عيني بطريقة مخيفة كلما تذكرت كلمات مديري السابق... أقول في نفسي... من يكون هذا الشخص من يكون... ماذا يريد مني...؟ تبا... تبا له... طردت بسببه...

رفعت رأسي لأشاهد أروى قادمة... بشعرها الأسود الطويل وسمرتها الفريدة من نوعها وعينيها الواسعتين بلونهما البني الخلّاب وبأناقتها المعهودة... لم تكن تحمل شيئا بمناسبة عيد ميلادي لربما أحضرت لي شيئا صغيرا جميلا فأنا أعلم ذوقها الرائع... تغيّرت حالتي للأفضل قليلا... شاهدتها تقترب لتجلس بجانبي... قلت لها:

_ إنه يوم جميل أليس كذلك!

قالت:

_ سيزداد جمالا بالنسبة لي...

وتّرني ما قالته حقا، إذن فإن عيد ميلادي يوم مهم بالنسبة لك... كذلك وأنت شخص مهم بالنسبة لي يا أروى... قلت رافعا رأسي للسماء:

_اليوم يمرّ على ترابطنا معا أكثر من خمس سنوات وأحد عشر يوما، فعلا الوقت يمرّ سريعا... أتذكر كم رفضتني في الماضي مرات عديدة لأنك تحججت بأعذار كثيرة مثل أنا صغيرة... لم أنهي دراستي... أريد تحقيق

أحلامي وارتباطي بفاشل مثلك ليس ضمنهم... فواصلت ملاحقتك في كل مرة لأن قلبي تعلق بك لدرجة لا يمكن وصفها... دائما كان قلبي الفائز بالصراع على كبريائي وعقلي اللذين رفضا التمسك بك... لكن ما باليد حيلة فقد وقع الفأس على الرأس حينها... أتذكر أنني واصلت إقناعك بي حتى تعبت من هذا الفعل... حتى مت ببطء لإهمالك المتكرر وعدم اكتراثك لي تألمت بشدة حتى أصبحت حديث الناس لألقب بصاحب القلب المطروح أرضا.. من قبلك... نقص حماسي للحصول عليك تدريجيا وبدأ قلبي يوافق كبرياءه وعقلي... سئم من مناجاته لك في كل فرصة تأتي له لكن دون جدوى... حتى اقتنعت بالتخلي عنك نهائيا... مرت أيام وأيام لأراك تأتين نحوي بلا سابق إنذار، تقولين لي مباشرة بصراحة.. أنا أريدك مثلما تريدني تماما، أقبل عرضك إن مازال متواجدا... عند انسحابك من حياتي تركت فراغا شاسعا وها أنا أريد ملأه للأبد...

نعم كانت كلماتك المغروسة في ذهني وإحدى أفضل لحظات حياتي التي لا تنسى وكل تلك المشاعر الجياشة المتدفقة بعد ركودها أنت سببها... أحييتني بعدما قتلتني لامبالاتك وإهمالك القاتل... شكرا لك على كل ما قدمته لي يا أروى... قالت مبتسمة بغرابة:

_ أنا من علي شكرك يا إياد فعلا... قامت من مكانها ثم ابتعدت قليلا وأكملت بسببك تغيرت حياتي مئة وثمانين درجة... بفضلك تمكنت من شراء منزل... بفضلك تمكنت من شراء سيارة... بفضلك أصبح لي رصيد بنكي ممتلئ عن آخره... بفضلك سأعيش مثلما أريد...

قلت ضاحكا:

_ أنت تمزحين صحيح، لم أقدم لك إلا القليل القليل من بعض الهدايا لا أكثر من أين سأعطيك ما ذكرتِ...

قالت بجدية:

_ أنا لا أمزح، قدمت لي ما لا يمكن تصوره... قدمت لي ثروة لم أكن لأحصل عليها في أحلامي...

قلت مستغربا:

_كيف هذا، ما هي الطريقة لتطلعيني إن كنت صادقة في قولك..

قالت بازدراء:

_ يا لك من غبي كيف تثق بفتاة لم تنظر لك مجرد النظر ثم عندما تعود لك وتقول بعض الأكاذيب تصدقها مباشرة ألم تشك بي لوهلة... فعلا أنتم يا أيها الفئة من الرجال الذين تحبون بصدق يصلح عليكم لقب الحمقى الكبار بجدارة... نعم ما قلته صحيح جئتك طالبة منك تكوين علاقة من جديد أنت بنيتها على أساس المودة أما أنا بنيتها على أساس المصلحة فقط...

_آه نسيت إخبارك يا صغيري حقيقة ما كسبته بفضلك، منذ خمس سنوات وأكثر جاء لي رجل مجهول عرض علي عرضا مغريا هو تقاضي مرتب مرتفع من المال شهريا بشرط أن أقبل بالارتباط بك لمدة هو يحددها واليوم انتهى هذا العقد الذي دام لفترة طويلة تمنيت أن أبقى معك لأجني أكثر لكن للآسف انتهينا هنا...

أحقا ما نطقت به صحيح أهذا يعني أنها استغلّتني طول تلك السنوات، لا لا إنها تكذب مستحيل ما قالته... كذب كله كذب محال حصول ما تفوّهت به... قلت متلعثما في كلامي:

_كنت سأعرض عليك الزواج اليوم...

قالت باستخفاف شديد:

_ أقلت تتزوجني... أضحكتني... كأني سأقبل بشخص فاشل مثلك يسهل خداعه... من اليوم سننتهي إلى الأبد...

مشت نحو الأمام بضع خطوات معلنة رحيلها وأنا أحاول صياغة ما قالته حبيبتي أروى... أروى... إلى أين تذهبين...؟ هناك تفسير لما قلته صحيح... نحن نحب بعضنا وتواعدنا عدم الافتراق... أرجوك تعالي... تعالي لا تذهبي... ستحطمين ما تبقى مني... لا تتركيني... أروى... توقفت عن المشي وللحظة لكن دون أن تلتفت لي قالت:

_ نسيت إعطاءك هدية عيد ميلادك... هي عبارة عن كلمة واحدة مني سأقولها لك... الوداع...

ذهبت للأبد كأنها لم تكن مطلقا بجانبي... طعنتني طعنة قاتلة قضت على كرامتي ثم أوقفت قلبي الذي لن يخفق إلا لنفسه وأمه وأبيه... اشتعلت غاضبا... أردت تحطيمها لكنّها تلاشت من أمامي، غضبت فصرخت فأسمعت كل البشر أنين قلبي فسكت الجميع من جديد إلا أنا لازلت أصرخ بداخلي وهذا الصراخ سيبقى... سيبقى..

***

عدت ليلا للمنزل محطما من كل جانب تناولت بعض المسكنات في طريق عودتي حتى لا تلاحظ أمي ما وقع لي فتبدأ بالشك ثم السؤال... عند دخولي المنزل ساد هدوء غير معتاد لأنني في أغلب الأحيان أسمع تحيات أمي لي أو تظهر بكرسيها المتحرك لتقوم بتحيتي وتنزل عن نفسي عبء اليوم بنور ضحكتها المشرقة... وصلت عند باب غرفتها لأجدها منغمسة في النظر لصورتها هي وأبي خلف تلك الشجرة الغريبة وتقوم بالتماس صورة أبي بأصابعها مع شرود عميق أخذها لمكان بعيد... كأن تلك الضوضاء التي سببتها عند دخولي المنزل لا شيء، هذه ليست من عادات أمي هناك أمر مريب يجول في خاطرها... لعل رؤية أبي يتكلّم قد هام بها للماضي لتسترجع ما تفتقده اليوم من الأمس البعيد... أوف وجعي لا يضاهي وجعها وأنا الذي ظننت أني الوحيد المستعر بنيران الخيبات غير منقطعة الحدوث...

فما أصعب التمسّك بزمن عشت فيه بسعادة لتفضله عن باقي الأزمان فتبقى تعود إليه كلما صفعتك الحياة بقوة... تريد الرجوع لكن لا تستطيع لأن الوقت لا ينظر للخلف مطلقا، وهكذا نستمر بالتأقلم رغما عن أنفسنا... هذه بعض معاناة أمي.. حسنا لأطمئن عليها فلا أحد يعلم

ما في باطن قلبها غير الله... لأنسى نفسي حاليا ولأشارك أمي بعضا مما تحس به... قلت بهدوء:

_ أمي... قد أتيت ألم تشعري بي عند دخولي المنزل؟

كأنني أيقظتها من نوم عميق قامت بردة فعل غير معروفة ارتباك وسرعة في الكلام مع خشية النظر لعيني، لم أعلم ما بها... قلت لها:

_ أمي هل أنت بخير؟

قالت وهي متضايقة:

_إذن لقد لاحظت حالتي هذه، لا مفر إذن تعال سأخبرك... لتجلس بجانبي...قالت مع بعض دموع مصاحبة لكلامها:

_ قبل أن أتكلم لا تكرهني فلم أتأكد من صحة الكلام الذي سأقوله لك... فهو كلام أبيك...قبل أن أتكلم قاطعتني وأخبرتني أنها لا تريد مني مقاطعتها حتى تكمل حديثها بحذافيره... أكملت:

_أنت تعلم أن والدك كان يعمل في مكان أبيه في المحمية بعد مفارقة الأخير لحياته لهذا قال لي أنه في أحد أيام حراسته ليلا سمع صوت طفل صغير بجوار تلك الشجرة حيث التقينا أول مرة أنا وهو.. طفل يبلغ الثالثة من عمره أو أكثر بقليل، لم يعلم ما يصنع معه فجلبه لمنزلنا لنعتني به مؤقتا حتى يظهر خبر من والديه لربما هو ضائع فاستمرت المدة من أسبوع لشهر لغاية شهرين دون جدوى تذكر.. وكان من الطبيعي بعدها الإبلاغ عن هذا الطفل والإفصاح عن كلّ ما يعلم به للشرطة، فلم يعثروا له على أي ملف أو معلومات بخصوصه، كأنه طفل نزل من الفضاء... ثم نقلوه لدار الأيتام ليعيش هناك حتى اتّضاح أمره... تعلّقت بذلك الفتى كثيرا طول تلك الفترة التي عاشها معنا لأننا لم نرزق بأطفال بسبب كوني عاقرا... فطلبت من زوجي جلبه لنتكفل به... بعد تقديم طلب نقله تمكنا من الفوز به ليعيش معنا... وضع والده المعنوي اسما له ليعيش بيننا ليضيف نكهة كانت تنقص حياتنا والتي تتمثل في نعمة البنين... ذاك الطفل هو أنت يا إياد...

أضافت:
_قد تتسأل لماذا لم أخبرك حتى الآن... خفت أن أخبرك فتذهب لتبحث عن أمك الحقيقية وتتركني وحيدة، صحيح قد كانت أنانية مني لكن محبتي التي دفعتني للقيام بهذا حتى أضمن وجودك بجانبي دوما... والدك أراد إخبارك عند بلوغك سن الرشد لكن أصابه ما أصابه قبل ذلك بكثير وفقد عقله... أنا كنت أمشي بمساعدة عصى كان هناك احتمال كبير لي في التعافي لأمشي مثل باقي العالم كما أخبرنا الطبيب وما حدث العكس تماما لتنقلب الطاولة على رأسي فأخسر الشعور بساقاي كما تشاهد... يبدو أن الله عاقبني لكتمان هذا السر عنك يا بني...

بعد سماعي لكلام أمي أردت الخروج من المنزل لا أكثر... أردت الابتعاد عن الجميع لأجلس وحيدا وأحاول ترتيب ما حدث لي اليوم وأفكّر مليا فيما سأفعل تاليا... طلبت الإذن من أمي بلا إبداء ولا ردة فعل غير ضرورية أو أسئلة عديمة النفع تزيد توتّر علاقتنا... أنا من النوع الذي يلتهم أوجاعه بداخله ويحبسها بإحكام حتى لا يؤذي من حوله دون قصد، صحيح قد أنفعل أحيانا حين أرمق من أحبهم يتأذون أمامي لكن إذا وصلت لي فهي أمر مختلف... أنا أتحمل آلام الجميع وأشاركهم فيها أما آلامي هي تخصني لوحدي ليست للمشاركة إلا مع خالقي... هذه إحدى طباعي... وعليه سأنفرد بنفسي لهذا يا أمي أتمنى أن تفهميني...

تلك الليلة لم أنم والتفكير يأكل عقلي حتى أصابني الصداع... شخص هدّد مديريّ لأعوام من أجل طردي... شخص كان يدفع للفتاة التي أحببتها سابقا ودفنتها الآن في مقبرة قلبي لكي تمثل دور حبيبتي لخمسة أعوام... خمسة أعوام يا رجل... يمكنني أن أجزم أنه نفس الشخص في كلتا الحالتين لكن ما الغاية من فعلته؟... أخيرا أمي عقيمة

وأنا لست ابنها أما أبي فقد وجدني أمام تلك الشجرة اللعينة... وما بال ذلك الكابوس يغزو أفكاري الآن، دعني وشأني لا رغبة لي في النوم... طرأ على رأسي سؤال غريب بين كل الأفكار المتشابكة والمتداخلة ببعضها البعض... إن كان ما يقوله أبي حقيقة لماذا وجدني أمام تلك الشجرة بالذات التي تعني لهما الكثير... لا أظن هذا مصادفة... لأذهب إذن لتلك المحمية غدا ربما أجد شيئا ينفعني لأجل هذا التشابك المعقد وربما حين أعرف من أبوي الحقيقيان لربما يمكنني معرفة ذاك الشخص اللعين الذي قلب حياتي في يوم واحد تبا له... تبا له...

وضع شخص ما يده على كتفي... نطق هذه عادتك المعهودة لم تغيرها أليس كذلك... حين تقسو عليك الدنيا بسوطها تفضّل عدم الصراخ وتنفرد بنفسك لتبتلع ما تشعر به الآن... علمت أني سأجدك أمام المطعم الذي اجتمعت به معك أول مرة يا ذا العينين السماويتين... أمي يقين أخبرتك كما قالت لي إذن... أعرف طريقة تفكيرك جيدا وأنا أريد مساعدتك يا أخي... أخبرني ستجدني طوع أمرك... أومأت برأسي إيجابا قائلا:

_أريدك أن توصلني لمكان معين...

قال:

_المحمية حيث وجدك والدك صحيح؟

قلت بجدية:

_نعم، سأمضي لأفحصها شبرا شبرا لعلي أجد ما ينفعني فيها... ثم هناك شخص أريد معرفة هويته سأخبرك عنه في طريقنا، لقد دمّر حياتي كلّها يا أخي...

قال بصوت حنون:

_حسنا سأتركك لحالك واعذرني على تطفلي عليك، سأذهب لأطمئن أمي يقين عنك فقد تملّكها التوتر حين كلمتني قبل ساعة، مع السادسة صباحا سأمر عليك لنذهب لتلك المحمية بعد حصولك على عنوان المحمية من أمك... نصيحة مني لا تفكر كثيرا وأفرغ ما بداخلك لترتاح قليلا يا أخي...

ارجع لأمك لتضمد جراحك يا إياد... هي الوحيدة بوسعها ذلك... إلى اللقاء أراك بعد ست ساعات...

***

الخامسة صباحا بقيت ساعة واحدة قبل وصول آدم... أنا منهك جدا من التفكير طيلة البارحة وما توصلت إليه لا شيء منطقي... دخلت المنزل لأجد أمي في انتظاري لكن هذه المرة الأولى التي لا تقابلني فيها بابتسامة وجهها المعهودة بل بدموع سيالة، عيناها منتفختان قليلا ومحمرّتان... نعم بالتأكيد قضت تلك الليلة تبكي... هي لا تستحق ذلك فالأمر يفوق حملها... قالت باكية ودون مقدمات:

_بني أقسم أني كنت سأخبرك... لكن مرض والدك على حين غرة جعلني أتراجع عن هذه الخطوة لأعود بأدراجي للخلف... خفت أن تتركني وحيدة يا بني... لا تكرهني يا بني رجاء فلطالما أحببتك أكثر من حب الأم الحقيقية لأبنائها...

تقدمت صوبها ممسكا يديها قائلا:

_لم أكن لأتركك وحيدة مهما كان السبب، فالأم الحقيقية من ربت وليست من أنجبت... غير ذلك إخفاؤك للأمر مبرر فلا داعي للشرح يا أمي... صحيح غضبت قليلا ثم تفهمت الوضع، لكن لن يطمئن فؤادي يجب علي التوجه لتلك الغابة لأنظر لعلّي أجد شيئا يدلّني على من تركني هناك... إحساس ما يحرك عقلي وقلبي وجسدي وحتى روحي، ينخر تفكيري ثم يقول لي اترك كلّ شيء وتوجه لهناك فورا... لا يمكنني صدّ نفسي على عدم الذهاب، سيأتي آدم بعد قليل لنرتحل لهناك... قالت بذعر شديد:

_قلبي ليس مطمئنا لهذه الرحلة يا إياد، أشعر بكارثة ستحصل لك إن ذهبت... رجاء ابق معي هنا...

قلت مطمئنا:
_لن يحصل شيء فقط هي جولة صغيرة ثم نعود...
قالت بحزن:
_أنت مصرّ على قرارك...
قلت مبتسما:
_نعم يا أمي سأذهب...
قالت:
_عدني أنك ستحافظ على نفسك...
قلت مقبّلا يدها:
_سأفي بكل وعودي تجاهك بكل تأكيد... أعدك لن يصيبني مكروه قبل تحقيق حلمي ألا وهو جمعك أنت وأبي معا من جديد... سترين كل شيء سيصبح جميلا مثل الأول يا أمي...
مسحت دموعها وارتسمت ابتسامة صغيرة على وجهها ثم أشارت بيدها لعلبة سوداء اللون صغيرة فوق الخزانة، أول مرة أتفطّن لوجودها حقّا... سحبتها ونفضت عنها الغبار الكثيف ثم أعطتها لي... قالت:
_حين كنت أستطيع الوقوف وضعتها فوق الخزانة بعدها أصابني الشلل فجأة لأتمسك بكرسي المتحرك، نسيت أمرها مع إخفاء ذاك السر عليك والآن تذكّرتها كأنها رمقتني بنفسها تلك العلبة... فتحتها لأجد بها مفتاحا غريب الشكل، مفتاح لونه ساطع البياض ومعه قصاصة ورق مكتوب عليها بضع زخرفات غامضة... قالت:
_هذا المفتاح كان موضوعا على رقبتك وتلك القصاصة الورقية كانت في جيب سروالك الأيمن، أتيا معك عندما جلبك أبوك لأول مرة فقرّرت الاحتفاظ بهما، لهذا خذهما مثلما جاءا معك قد تجد بهما شيئا ينفعك هناك...
وضعت كليهما في جيبي ثم أخذت الإذن من أمي لأستلقي حتى يأتي آدم... مرّت الدقائق بسرعة وأنا مستلقٍ على فراشي حاملا المفتاح فعلا صنعه

غريب مع تلك القصاصة في يدي الأخرى أنظر تارة لهذا وتارة للمفتاح، أتساءل من الغبي الذي يترك هذه الأشياء المبهمة وعديمة القيمة مع طفل في الثالثة من عمره... ثم قلت في نفسي... من أكون؟ من أنا؟ فعلا أريد أن أعرف...

(5)
رحلة إلى المحمية

إنها السادسة صباحا... دق الباب ووصل آدم، حسنا حان وقت الذهاب لأستعد جهّزت بعض الأشياء الطفيفة تحسبا للأوضاع التي سنواجهها من مستلزمات الإسعاف وبعض الأغراض وغيرها... خرجت من غرفتي لأجد آدم مع أمّي يتحدثان، لعل أمي أوصته بي حسب ظني فهي تبالغ في قلقها تجاهي... ما الداعي لكل هذا الحرص إنها رحلة نصف يوم على الأكثر ونعود... قبلتني أمي قائلة:

_توخى الحذر ولترجع سالما أنت وأخاك، وفق الله دربكما... لا تنسى وعدك لي يا بني... أنا سأهتم بنفسي في المقابل حتى تعود فلا تشغل بالك بالتفكير بي وهناك جارنا وائل إن احتجت أي شيء سأنادي عليه...آه نسيت عيد ميلاد سعيد لك يا بني... دمت سالما دوما وأبدا يا أجمل هدية قدمها الله لي...

على هاته المفردات ودّعنا أمي ومضينا نشق طريقنا... نمت في مقعد السيارة طول الطريق، تولى آدم القيادة... مرت إحدى عشر ساعة حتى وصلنا لتلك المحمية، أيقظني آدم استرجلت من السيارة ليتبعني ذو عيني العشب... دخلنا المحمية يبدو أنها بلا حارس، إذن كيف سنعرف تلك الشجرة الغبية...

يا للحظّ العاثر سيتعين علينا البحث عنها بطريقة عشوائية هيا اذهب لجهة الشمال وأنا سأذهب لجهة اليمين إن عثرت عليها اتصل بي والعكس صحيح هيا... افترقنا عن بعضنا البعض كل منا ابتعد عن الآخر... بحثت في جهة اليمين كلّ شبر لمدة ساعة تقريبا، لم أجد شيئا يستحق ذلك العناء فعدت أدراجي منتظرا اتصال آدم بي، بينما أنا ممسك بالهاتف أنظر للساعة الموجودة به حتى أسمع صوت طلق ناري،

ارتعشت خوفا في الوهلة الأولى لكن قدماي تحركتا لوحدهما بعد أن أدركت أن صوت الطلق الناري من جهة آدم...
أركض... أركض بسرعة... تبا... تبا... من أين جاء هذا الصوت اللعين... ركضت بلا توقف بحثا هنا وهناك لعلّي أرمق أخي لكن بلا فائدة لم أعثر عليه لأن المحمية مساحتها شاسعة جدا... سمعت صوت الطلق من جديد فتجمدت للحظة من الركض محاولا تهدئة نفسي محاولا كذلك تتبع صدى الرصاصة فتمكّنت من تحديد مكانها نوعا ما... استمريت في الركض لأجد شخصا يشهر البندقية نحو آدم الملقى على الأرض... قلت له بصوت عال:
_ توقف أرجوك... توقف أبعد بندقيتك عن آدم...
أشهر بندقيته نحوي أنا أيضا وأمرني بالتوقف مكاني... من زيه علمت أنه حارس هذه الغابة... كان شخصا كبيرا في السن أشيب الرأس عيناه حادتان أعرج في رجله اليسرى... اقترب ببطء اتجاهي.. قال بغضب:
_ لماذا جئتم إلى هنا دون تصريح، هذه المحية لم تعد كسابق عهدها يدخلها الناس بلا إذن... فلترحلا الآن وإلا قتلتكما...
قلت رافعا يدي:
_حسنا سنذهب... لا تقتلنا رجاء...
مثل عداء الأولمبياد مضيت نحو آدم لأساعده على الوقوف ثم قال بصوت يكاد لا يسمع لقد استدرجته لهذا المكان قصرا والشجرة التي نبحث عنها خلفنا بمسافة قصيرة كل ما علينا عبور هذه الأشجار... قلت له:
_سيطلق علينا... لا... لا... التهور غير مجد...
سأخبره سبب مجيئنا لهذه المحمية وأتمنى أن يتفهمنا... صرخت بصوت مسموع يا عم صحيح ارتكبنا خطأ بحضورنا غير المرغوب فيه، أرجو أن تصغي لي سأطلعك على سبب مجيئنا... أنا اسمي إياد سعد تركت هنا من قبل، هذا وأنا طفل صغير كما قيل لي أمام شجرة ضخمة وغريبة

الشكل هي وراءنا مباشرة، جئت لأتفقّد تلك الشّجرة فمن يدري ربما أعثر على شيء يقودني لمعرفة من أكون... أبي الّذي قام بتربيتي يدعى باهر كان عاملا هو وجدّي يحرسان هذه المحميّة منذ زمن بعيد... ربما قد أبدو لك أحد المجانين لكني لا أتفوه إلا بالحقيقة، فقد أثير فضولي لأستكشف هذا المكان يا عمّ...

قال مبهوتا:

_أقلت باهر هو أبوك وتركت هنا قبل زمن وأنت طفل... مستحيل... مستحيل ما الذي جاء بك؟... لا يمكن أنت تكون... انتظر فعلا عيناك مثل... لم يكمل كلامه حتى رنّ هاتفي فجأة فترددت في إخراجه من جيبي... ثم قال متردّدا ذلك الحارس أخرجه... أخرجه وأجب على مكالمتك حالا... أمي المتصل... أجبت لأسمع أمي تبكي بشدة قائلة:

_لا تعد يا بني من أجل سلامتك... لقد اتهموك بجريمة قتل...

قلت مصعوقا:

ما الذي تقولينه يا أمي... أي جريمة قتل... لم أقتل أحدا!؟

توتّر الجو آدم يقول لي ماذا يجري يا إياد سمعت أمي يقين تبكي وقرب رأسه ليختلس السمع معي وذاك الحارس يتمتم جريمة قتل وهذا توقيت... لا يمكن أن تكون مصادفة... أيمكن أنه على قيد الحياة... تبا له... تبا له كيف نجا...

أكملت قائلة:

_ مروان قتل بسكين موجودة بها بصماتك والشرطة تبحث عنك في كل مكان لقد جاؤوا عندي ليسألوني عنك، يقولون أنك هددته بالقتل أمام الملأ، فهناك شهود عيان... كما أنهم يقولون أنهم سيأخذونني معهم لحمايتي من عصابة ضخمة تبيع المخدرات لأنهم يعتقدون أنك قتلت مروان بنية سرقة ما بحوزته... وتلك الكمية تقدر بمبلغ كبير جدا... اهرب فالشرطة تلاحقك لتسجنك وتلك العصابة تريد قتلك لتجعلك عبرة...

اهرب... اهرب... ولا تشغل بالك بي سأحاول أن أكون بخير فقط فلتنج يا بني...

نزع آدم الهاتف مني ثم دعس عليه بقدمه بقوة قائلا أيها الأحمق إنهم سيعرفون مكانك من هذا الاتصال ويبلغون الشرطة المحلية لهذه الولاية فيمسكون بك، عليهم ألا يمسكوك حتى تبرئ نفسك أولا... لقد سمعت كل ما قالته والأسوأ هناك عصابة تريد رأسك، وضعك سيء جدا جدا يا أخي... قال ذاك العجوز:

_هذه ليست مصادفة بتاتا لأن اليوم إن لم أخطئ فإنه...

بالي كان عند أمي لهذا لم أجب ذاك العجوز أردت الرجوع فورا لأحميها وأبي سيقتلونه بسببي يا إلهي... لماذا يحدث كل هذا فجأة... هناك شخص يرغمني على الخروج من محيطي، يرغمني على التوجه لمكان محدّد... تبا لك... تبا لك.. عندما أجدك سأقتلك... أمسك آدم يدي قائلا لا تكن أحمق أمك تريد منك الهرب وأنت تريد الرجوع... هذا ليس إلا انتحار ستقدم عليه، يجب علينا إيجاد طريقة لإخراجك من البلاد حالا... صحيح رحلتي غدا سأحاول إخراجك معي يا أخي...

جاء صوت شخص آخر يرتدي قناعا شكله غريب كان وراء حارس المحمية وصوّب السلاح نحو رأسه آمرا إياه بإلقاء بندقيته ثم قال وهو ينظر لآدم... لن يذهب لأي مكان إلا بأمري سأرسله للمكان الذي جاء منه...

أكمل، أنت تحرس هذه المحمية إذن يبدو أنك علمت مكان البوابة الرابعة... ماذا تعتقد أنك بحراستها ستوقفه عن الرجوع لعالمه يا صديقي القديم، كما وعدت سيدتك الميتة منذ سبعة وعشرين سنة... أنت تتذكر جيدا ذلك اليوم صحيح... لا يمكنك أن تردعه لأن قدره العودة لهناك... فهو لا ينتمي لهذا العالم وقد حرصت على إجباره

للرجوع رغما عن أنفه... لأنه إن لم يرجع اليوم سيقضي حياته بين أربعة جدران للأبد أو سيقتل من قبل مرتزقة لا يعرفون غير ردّ الصاع صاعين... سيقتلونه... فهل ستختار موته هنا أو سترشدني لمكان البوابة الرابعة لآخذه معي... اختر مصيره بقرارك...

أدركت من كلامه لذلك العجوز أن ذلك الشخص هو المسؤول عن كل ما أصابني، هو السبب في كوني أطرد دائما من عملي لتهديده لمديريّ السابقين وكذلك هو الشّخص الّذي أعطى أروى المال لمدة خمس سنوات حتى تخدعني كذلك أنا متأكّد من أنه هو من قتل مروان كما أخبرتني أمي ليلصق التّهمة بي... فهمت لقد كان يحاول جرّي لهذه المحمية حتى ينفّذ مخطّطا ما... إن أمسكته الآن فقد يمكنني تبرئة نفسي من تلك التهمة الموجّهة لي... سأمسكه... سأطبق على رقبته، لن أسمح بهربه وهو أمامي مباشرة...

حاولت أن أباغته بسرعة، لكن بمجرّد محاولتي تحريك جسمي بشبر واحد أطلق الرّصاص صوب قدمي اليمنى، لو تحرّكت الرّصاصة سنتمترا وحدا لأصابت قدمي... علمت أنه شخص خطير للغاية... أمسك آدم كتفي وهو يرتعش قائلا بصوت خافت لا تتهوّر مجددا وإلا سيقتلنا جمعيا إنه خطير... خطير جدا... قال بتبجّح:

_صديقك أدرك الأمر قبلك... ظننت أنك بنفس ذكاء أبيك يا لها من خيبة أمل كبيرة له... من حسن حظّك، لا نية لي لقتلك فأنا أريدك حيا... قلت محتارا:

_أتعرف والديّ؟

قال ضاحكا:

_ربما أكون أعرفهم لأسأل نفسي قليلا... بالطبع أعرفهم... ويمكنني اصطحابك لهما إن أردت فقط اتبعني لحيث أقودك...

قلت بصوت عال:
_أنت قاتل... لن أثق بك مهما قلت، إن أمسكت بك سأجبرك على التكلّم بطريقتي الخاصة أيها اللّعين...
قال بغرور:
_حسنا إن لم تعجبك مساعدتي فيمكنك سؤال هذا الأعرج فهو يعلم أكثر مني عنهما... لكن أظن أنّني سأقتله بعد أن يدلني على مكان البوابة فيبقى لك حل وحيد الذي هو أنا لمعرفة من تكون أيها الفتى..
وضع المسدس على رأس ذلك العجوز قائلا:
_أين مكان البوابة؟ دلّني إليها...
قال العجوز بشجاعة:
_أفضّل أن تقتلني على أن أبوح لك بحرف... تبّا لك أيها اللّقيط..
ضربه على رأسه بالمسدس حتى ركع على الأرض ووضع المسدس على رأسه وهو يقول حسنا سأقتلك فلا نفع يذكر منك على كلّ حال... تصلبت في مكاني بلا إبداء ردّة فعل واحدة... لم أعلم ما أصنع... لأسمع صوت آدم يقول بخوف وتوتر شديد خلفي... لا تطلق عليه سأخبرك أنا بمكان الشجرة... صرخ ذلك العجوز قائلا:
_اصمت أيها الفتى... لا تتكلّم أكثر... ستسبّب كارثة... بحق الله لتصمت...
قال ضاحكا:
_تبا... تبا... إذن البوابة عبارة عن شجرة في هذه الغابة... يا له من إبداع وفكرة لا تخطر على بال بشر... هيا يا فتى... قدني.. قدني إليها وأعدك لن أقتل هذا المعتوه...
تحرّك آدم بخوف شديد يكاد يقع أرضا بين الخطوة والتي تليها، لم أره في حياتي بهذا الشّكل... إنه خائف لدرجة تحطّم عظامه من تلك الارتجافة المتواصلة... تحرّكنا أربعتنا لغاية وصولنا لتلك الشجرة

يقودنا آدم وأنا وراءه وذلكما الشّخصان خلفنا يصوب ذلك المقنع على رأس حارس المحمية... ثم توقفنا وأنا أشاهد شجرة عملاقة بالتأكيد هي أكبر كائن حيّ معمر في هذه المحمية، كانت مرتفعة جدا ولونها أسود قاتم ممزوج بالأخضر الداكن متفرّعة الأغصان والفروع... ظلّها يغطّي مساحة كبيرة، نعم إنها نفس الشّجرة التي التقط والداي فيها الصورة الخاصة بهما... أمرنا بالتوقف وقال لي:

_اقترب من هذه الشّجرة...

رفضت الانصياع لأمره لأنّي أحسست أنه ينوي شيئا خطيرا، فضرب ذاك الحارس ليقع أرضا وأطلق علي النار أمام قدمي مثل المرة الماضية... قائلا بغضب:

_لا وقت لي للعب معك... تفصلك عن تلك الشجرة خمس خطوات تقريبا وأنا سأطلق خمس رصاصات، فإن تقدّمت لن أصيبك وإن أبيت سأصيبك... اختر تتحرّك أو تصاب...

قال آدم غاضبا:

_افعل ما يقوله لك يا إياد... هذا ليس الوقت المناسب لإظهار شجاعة ستقتلك بلا معنى... تقدّم هيا...

كلمات أخي الخائف على حياتي حرّكتني طوعا عن نفسي لأتقدّم رويدا رويدا... لغاية وصولي لجذعها، ثمّ قال لديك المفتاح سيفتح هذه البوابة وهو معك أخرجه حيث تخبئه ثمّ قرّبه لجذع الشجرة... حالا...

تساءلت كيف عرف أن المفتاح معي هذا اللعين... ثم سحبته من جيبي ووضعته كما قال... حصل أمر محال فقد فتحت هذه الشجرة لنصفين من جذعها وتحرك هواء شديد القوة والسخونة يسحبنا لداخلها مع ضوء ناصع البياض كاد يعميني عند سطوعه.. تعالت ضحكات ذلك المقنع وهو يقول... سأعود...سأعود أخيرا لعالمي... سيسعد سيدي لأنني سأجلب المفتاح معي... حاولت الابتعاد حتى لا أبتلع داخلها...

قال ضاحكا:

_لا يمكنك الهروب منها فنحن داخل ظلّها وسيسحب جميع بداخلها... ستنغلق بعد دقيقة وثلاثين ثانية على الأكثر... تقدّم ناحية الحارس قائلا أنا من سيمسكه هذه المرة وليس أنت...

رمى المسدّس خارج الظلّ وتوجّه ناحيتي يجري، أردت تجنّبه لكن لم أتمكّن من ذلك لأنّني أقاوم من ناحيتي ذلك المدّ الجارف للهواء السّاخن، تمكن مني وأدخلني لداخل الشجرة... لحظة دخولي لمحت آدم يجذب هو كذلك لكنّه مصدوم مما يحدث أمامه، ربما لأنه إنسان واقعي فأصيب بذهول ممّا يجري لا مقاومة وكذلك الحارس يسحب ببطء لأنه مرمي على الأرض لا يقوى على الحراك... قال محذّرا:

_لا تأبه لهما عليك بنفسك... أمسك هذا القناع وضعه على وجهك..

وضع قناعا مثل الذي يرتديه هو وقال أسرع وإلا ستعلق في هذا الفراغ للأبد... ظل يجرّني معه لأرى أربعة مداخل فدخلنا في إحداها ثمّ قام بضربي أسفل رأسي من الخلف بقبضة يده لأفقد الوعي وأنا أغوص في ذلك الممر الغريب حتى دخلت فيه وهو معي لكن حين دخولنا انفصلنا عن بعض... ماذا ينتظرنا خلف ذلك الباب؟ لا أعلم... لا أعلم شيئا...

***

(6)

الكابوس

سنمسك بكم جميعا... لقد حوصرتم... لا يمكنكم الهرب، أخيرا وقعتم في أيدينا أيّها الخونة...

عمر ماذا سنفعل...؟ لا أعلم سيّدتي فأنا مصاب من قدمي وابنك سيعرقل هربنا منهم إن حاولنا لأن المسافة قصيرة تفصلنا عنهم... يجب علينا إيجاد حلّ لهكذا معضلة وإلا سنفقد كلّ ما نملك... اقتربت سيدتي من ابنها ثم أخرجت مفتاحا كانت ترتديه مثل القلادة حول رقبتها وألبسته إياه، ثم أخرجت ورقة مكتوبة... إنّها رسالة من زوجها على ما أظنّ... مزّقت طرفا منها وخبّأتها داخل جيب سرواله في دهشة من أولئك المتوحّشين... قال أحدهم وهو يصفع وجهه بغرابة أمسكوا بهم... تحرّكوا حالا... أمسكوا بهم...

قالت سيدتي:

_عمر أصغ لي... سأضللهم عنكما وأنت خذ ابني وارحل بعيدا..

قلت ناهيا:

_لا يا سيدتي... نهاية الطريق الآخر منتهية بمنحدر مرتفع وخطير للغاية... هذا انتحار يا سيدتي فإمّا يمسكوك أو ترمين نفسك، لا خيار ثالث لديك... دعك من هذه المجازفة أرجوك...

قالت بحزم:

_لن يمسكوني حيّة... نفّذ ما أخبرتك به وأعهد لك بابني... لا تسمح له بالرّجوع لهذا العالم مهما كلّفك الأمر يا عمر... عدني بذلك...

قلت بحرقة:

_أعدك... سأبذل قصارى جهدي لتحقيق ما طالبتني به...

انطلقت سيدتي مسرعة لجهة اليسار لتدخل نحو عمق الغابة، أمر أحد الغربان الثّلاثة بتتبّعها فانطلق اثنان وراءها وأنا مقاوم لبكاء ذاك الطفل

الصغير وخلف ضحكات ذلك الحقير المستهزئ بي لهيئتي المزرية المثيرة للشفقة ...

أعرج يعد الخطى ليصل للمكان المتفق عليه حاملا الطفل الصغير بين يدي، يناضل باكيا يلحق بطيف أمّه التي تخلّت عنه أمام ناظريه وتركته بين أحضان الغرباء... حاولت الابتعاد عنه قدر الإمكان، لكن مضيعة للجهد المبذول ليس أكثر، كان بإمكانه إمساكي في أي وقت يشاء... كلما ابتعدت عنه بضع أمتار، لحقني وهو يمشي أحسست نفسي حينها نملة حاملة رزقها تهرب حتى لا يتمّ دعسها... ظللت أعرج هاربا مع تكرار كلمات سيدتي المتعلقة كالخرزة في أذني، ظل يتتبعني ببرودة أعصاب... تساءلت ما يدور في رأسه يا ترى أليس هدفه الإمساك بنا...

قلت: هذا ليس وقت طرح التّساؤلات، أنا ملزم على الفرار بهذا الصّغير إن أمسكونا ستحدث مصيبة... هيا سأصل... على هذه الحال، بقيت حالتنا حتى اقتربنا من الكهف، وذاك الغراب خلفنا لم يفقد أثرنا فكلّما زادت المسافة زاد قليلا في سرعة خطواته... وصلنا للمكان المحدّد بعد تحمّل ألم لا يوصف أسفل قدمي، مع عناء بكاء هذا الولد الذي ظلّ مستمرّا بلا توقّف... قلت تلك المغارة هي هدفنا بكل تأكيد..
لحظة دخولنا إليها، لم أر أمامي شيئا من شدّة سواد الظلمة بلا هوادة، واصلت طريقي نحو الدّاخل بلا مبالاة لما يوجد داخل الكهف... بينما كنت أمشي بصعوبة ممسكا نفسي، خشيت الوقوع أرضا... سمعت ذاك المقنّع يقول صوت بكاء الصّغير سيقودني إليكم سأمسككم حتى لو غطستم في قعر الظّلمة أيّها الخونة...

تابعنا التقدّم عميقا فانتبهت لوهلة لأجد احمرارا برتقالي اللّون على بعد أمتار، دلّتني على وجود شعلة نار معلّقة على الجانب الأيسر للجدار ونهاية طريق الكهف بحائط مسنّن... ما أثار دهشتي هو أنه

هناك شخص هزيل الجسم مكبل اليدين والساقين وفمه أخاطه له شخص ما... كانت حالته يرثى لها شبه فاقد لوعيه فيه بعض الأوشام الغريبة بكافة جسمه وعلى جبينه سلسلة أرقام مدوّنة، كان حليق الرأس تماما، هذا ما تبيّن من نور شعلة من تفاصيل تدل عن ذلك الشخص... وضعت الفتى لأنني لم أقو على حمله أكثر لأنني لم أعد أشعر بقدمي اليسرى مطلقا أظنها شلّت...

دون مقدّمات وقعت أرضا من هول ضربة جاءت في عنقي مباشرة كادت تفقدني الوعي... تساءلت حينها هل هذا السواد الذي في عيني من ظلمة المغارة أو أن عيني كساها رداء العتمة الموحشة... وضع إحدى قدميه الكريهتين على ظهري، لقد وصل إلينا، كان ذلك الغراب الذي تتبعنا قائلا بعجرفته:

_يا رجل... ما بال هذا الشّخص مربوط هناك... يبدو غريب الشّكل، متأكد أن وراءه أمر عظيم لهذا سآخذكم معي جميعا...

اختفى السواد من عيني تدريجيا لأشاهد ذلك الصغير يبكي بشدة حتى أيقظ ذلك الشخص المكبل... استفاق مذعورا حين رأى شخصا يرتدي قناع غراب، فبدأ هو الآخر ينادي بصوت مبحوح يخرج من حلقه ليصطدم بفمه المربوط بطريقة بشعة كأنّه يحاول طلب النجدة... رفسه ذلك المقنّع على بطنه آمرا إياه بالسّكوت ثم ذهب صوب الفتى... قائلا:

_كفّ عن بكائك المزعج ولتصمت قليلا... سدّد له ضربة في رأسه أوقعته أرضا بجانب ذلك المكبل، ليبدأ بالضّحك عاليا...

قائلا تعتليه النّشوة:

_أنجزت ما طلب مني، سيفرح سيدي بهذه الهدية القيّمة ثم سيجعلني بالتأكيد أحد الأعمدة الأربعة في المستقبل كم هذا رائع...

رجعت لي الرؤية من جديد لتّتضح عند ذلك الرجل الموشم مفزوعا بشكل لا يصدّق، تكاد عيناه تخرج من رأسه ويحاول الزخف للخلف

مستخدما قدميه، بدا خائفا للغاية ويحاول نطق كلمات بحالته تلك لكنّه لم يستطع... ظلّ يصدر صراخا عبر حلقه ومبتعدا للجدار الّذي وراءه حتى اصطدم بصخرة حادّة ثقبت الجزء السّفلي من ظهره كأنّه لم يشعر قط بالوجع لأن تعابير الرّعب غارت على وجهه أكثر.. اندهشت ممّا أرى بالطبع، ظننت أنه خائف من ذلك المقنّع، لكن اتضح أن المقنع واقف في مكانه منهيا ضحكاته المستفزّة ليحلّ مكانها الحيرة والغرابة مثلي تماما... إذن فممّن هو خائف هكذا؟

استندت على الجدار الذي بجانبي لأقف بصعوبة، فدوي الضربة أثرها ظل محفورا في رأسي... وجدت ذلك الطفل الصغير الباكي واقفا وذلك الغريب الأصلع يبتعد عنه وليس من ذلك المقنع فلم ينظر إليه طرفة عين حتى...

قلت مستغربا:

_ ما المخيف في ذلك الطفل كلّ هذا الحد، الجلي به أن يخاف من الشخص الآخر فهو الذي يهيمن على الوضع... يا إلهي أشعر بشيء سيء سيقع لنا لا بد لي من فعل شيء فورا...

تحرّك الرّجل المقنع والذي صرخ على الطّفل بعدم الحراك ناهيا إياه، تقدم ببطء شديد ليمسكه فقد علم أنه يخفي شيئا ما... شيئا خطيرا جدا... بدوره ذلك الطفل اقترب من ذلك الأصلع ليحتمي به محاولا الدخول بين ثغرات الجدار المسنّن معتمدا على صغر جسمه ليختبئ وراء ظهره... فالتصق ذلك الرجل بالجدار أكثر كأنه يحاول قتل الفتى الصغير بدفعه نحو الشفرات الصخرية الحادة لكن الوجع المتراكم عليه جعله يقف قليلا ليضرب تلك الشعلة المعلقة برأسه فأوقعها أرضا وهي التي كانت تنير عمق الكهف حتى يسود ظلام دامس كما كان في مدخل الكهف مسبقا... بدأ صوت الرجل المقنّع يتعالى... هل تظن أن

ظلمة الكهف ستحميكم، أنتم مخطئون تماما لن تفلتوا من قبضتي جميعكم... هنا تعالى صراخ ذلك الأصلع بقوة كبيرة، ما أسكت الأخير، ارتجف قلبي بشدة من الخوف الذي اكتسح كافة بقاع جسدي... حتما فعلها... يا منقذي...

يبدو من صراخه أنه قد مزّق تلك الخيوط التي جعلت منه أخرسا منذ البداية.. ما الذي يجري بحق معتقداتنا؟!...ثم اندثر ضوء قوي للغاية كاد يجعل مني أعمى حقا هذه المرة... تساءلت ما مصدره؟ نحن في مكان لا يتسرّب فيه الضوء بالفعل أمور مستحيلة بدأت بالظهور يا له من كهف لعين... بدأت أشعر بأنني أسحب نحو ذلك الضوء بقوة طاحنة لا يمكنني مقاومتها بتاتا... تشقّق سقف الكهف من شدة ضغط الهواء وانكمش ذلك الكهف ليسحب هو كذلك نحو الضوء المنبعث مجهول المصدر، تساقطت الحجارة الضخمة ناحيته... كان لي الاتجاه نحوه أفضل من أن أطحن بفعل الحجارة القادمة نحوي من كل جهة... قلت:
_بالطبع الصغير وهذان الرجلان سيسحبان معي هم كذلك... تركت نفسي لذلك الضغط يأخذني نحو الضوء مجهول المصدر البارز ناحيتي فأنا بالكاد استطعت الحراك، لا خيار أملكه غير الخضوع له....

أغمضت عيني حين دخولي هناك لأجد الصغير ملقى على الأرض باكيا، حريص على عدم فقدان وعيه مثلي به بعض الجراح الطفيفة على ركبته اليسرى... وكذلك هناك ذلك المقنع أمامه كومة من الحجارة الصغيرة التي سحبت قبلي، يبدو أن إحداها قد أصابته وأفقدته الوعي... أما الأخير لم أعثر عليه لم أتساءل كثيرا عنه، كل ما أردت أن أمسك بذلك الصغير وأجد مخرجا يمكّننا من الهرب... أمسكته ومشيت قهرا عن نفسي... تارة أقع أرضا ثم أمشي خطوتين وأعيد الكرّة بالوقوع وهكذا كان الحال لأجد ضوء ناصع البياض ليس بعيدا بضعة أمتار على الأكثر...

قررت الخوض فيه بلا أدنى تفكير واصلت التقدم ممسكا يدي الصغير زاحفا... بالكاد واصلنا قلت محفزا نفسي هيا يجب تخطّيه فورا سأستغل هذه الفرصة لأنها الوحيدة لدينا لتنفيذ رغبة سيدتي وكذلك سيدي، سأضحّي بنفسي من أجل تحقيق الوعد المقطوع بيننا... سمعت صوت ذلك المقنع، يبدو أنه أفاق مترنحا قائلا بغضب شديد:
_لن أدعكم تفلتون مني إلا على جثتي أيها الخونة...

واصلت الزحف بكل ما أملك من قوة مدّخرة في جسمي، قلت في نفسي يا ليتني أستطيع الوقوف فقط لأصل لذلك الضوء... تبا سيمسك بنا على هذه الشّاكلة... تبا لماذا الأمور تسوء أكثر فأكثر... هرول نحونا بصعوبة هو الآخر خافضا المسافة التي تفصلنا عنه ببضع أمتار...
قلت مجبرا نفسي على التحرّك هيا الضوء أمامي أكاد أصل لم يبق إلّا القليل... سأصل... سأصل...
اقتربنا كثيرا للضوء لكن المصيبة أنه اقترب منا هو الآخر... علمت أننا لن نلحق في الوقت المناسب، أمسكت ذلك الصغير واحتضنته قلت له إن لم أستطع جعلك تهرب، إذن سأحميك بروحي قبل جسدي...

أصبح لا يفصلنا عنه سوى خمسة عشر مترا أو عشرة أمتار بالأكثر... حتى شعرت أننا نسحب مثل المرة الأولى وبدل الضوء أصبح هناك أربعة كلهم يشعون نورا على آخرهم وكلهم يمتصون ما يوجد قربهم بقوة غاشمة...

كان مسطر لنا الهروب منه لكن الفضل لم يعد لقوة أجسادنا كل الشكر لتلك القوة الغامضة... انشطرنا لاثنين أنا والصغير ألقي بنا في جهة واحدة أما ذلك المقنع فزج به في الجهة المقابلة لنا أي الضوء الثاني ولأنه كان داخل مداه سحب نحوه ثم رمى كلا منا بعيدا... لأفقد وعيي حينها

وأستيقظ بين يدي أشخاص لا أعرفهم وعالم غير عالمي، أما المعضلة الحقيقية ذلك الولد الذي كان معي للأسف فقدت أثره من يدي للأبد...

***

(7)

عالمي

تبا نفس الكابوس يتكرّر مرارا على ذهني من جديد، لماذا لا يتركني وشأني فحسب... بئسا لحالي تلك... ها ها ها... وضعت يديّ على رأسي لأقلّل من شدّة الصداع مع عدم فتح عيني رغم أن هذا لن يحدث فارقا في حالتي الحالية، بعد لحظات تذكّرت، ألم يكن هناك قناع على وجهي، أين هو... بدأت بالضحك مثل أبله قائلا:

يا لي من غبي، قناع ماذا... بماذا أتفوه أنا؟... كلّ تلك الرؤيا كانت جزءا من ذلك الكابوس الذي لطالما حضر في مخيلتي عندما أخلد للنّوم... أنا في غرفتي البائسة الآن لا شيء قد تغيّر استمريت بالضحك مطوّلا... لأسمع صوت فتاة قربي تنادي قائلة:

_هذا الغريب يبدو أنه استيقظ أخيرا! وأكملت، إنه يضحك بلا سبب حقا يا له من شخص غريب...

أدلفت بتعجرف:

_صحيح يبدو أنّني ما زلت لم أستيقظ من ذلك الكابوس لحدّ السّاعة فقد سمعت صوتا غير مألوف على أذني، صوت أسمعه للمرة الأولى...

بعدها قمت بفتح عيني بتمهّل شديد لتتضح تلك الصورة الضّبابية شيئا فشيئا... لأرى فتاة تحملق بي وعلامة الدهشة في محياها... فتاة جميلة للغاية تفاصيلها الملائكية سوداء العينين وذات بشرة ثلجية اللون، ذات شعر طويل مسود منسل عبر ظهرها يلامس الأرض، جبهتها ملفوفة بقطعة قماش بيضاء، تكاد تكون قطعة واحدة منها لنصاعتها... تبادلت النظرات معها متلذّذا بجمالها ومشبعا عيني بتفاصيل وجهها القمري، قلت باستخفاف:

_أتعلمين أنت أجمل ما في هذا الكابوس اللّعين... يا لجمالك الخلّاب يا هذه...

كأنّها ما سمعت ما قلت لها لأنّ تركيزها كان منصبّا على مكان محدّد في وجهي، قالت بتفاجؤ كبير للغاية:
_يا اااه عيناك لونها فعلا أزرق...

تراجعت منسحبة للخلف مع نظرة حزن على وجهها الجميل، فجأة بعد تلك الكلمات أتى ثلاثة رجال ركضا كأنّهم سمعوا خبر وجود كنز بجوارهم، أولهم كبير في السن ربما يبلغ الخمسين عاما أو أكثر بقليل ذو شعر أشيب مجعّد الوجه يملك شاربا غريبا، شكل ونصف أسنانه غير موجودة في فمه... آخر رجل ضخم الجثة عريض المنكبين أظنّ عمره بمثل عمري تقريبا ذو شعر أسود وبه ندبة على وجنته اليمنى قد تكون حدثت إثر شجار بسكاكين ربما... نظر لي وابتسامة تعلو وجهه... آخرهم فتى يافع يبدو في الثامنة عشر من عمره ذو ملامح طفولية متوسط القامة شعره كأنه نسج من دودة القز تغلبه كآبة واضحة بداخل عينيه... ما لفت انتباهي أنهم جميعا يمتلكون أعينا بالغة السواد... أول مرة أجتمع بمجموعة من الأشخاص يمتلكون كل تلك الأعين السوداء مثل تلك الفتاة الجميلة... الفرق الوحيد أن ذلك الرجل الكبير في السن لا يمتلك رقما مثل الرجلين الآخرين بحيث تتكون تلك العلامة من مجموعة الأرقام متشكلة في جبين كل شخص منهما، لقد رأيتها سابقا، أظنها أوشام ليتباهوا بها فيما بينهم من يدري... صحيح كل شيء وارد في الكوابيس فلا ترى إلا الأشياء قليلة الحدوث وغير المنطقية التي لا يتقبلها العقل البشري...

حاولت التحرك من مكاني لكن ذلك الشخص المبتسم أخرج السكين الحادة من العدم بسرعة كبيرة من جيب سترته ووضعها على رقبتي.. قائلا وهو مبتسم بتلك الابتسامة مع ضحكة:
_لا تتحرك من مكانك وإلا نحرت عنقك أيها النبيل...

ثم أمسك ذلك الرجل الكبير في السن يده وقال:
_أنزل يديك ولا تتهور أيها الضاحك أنت أدرى بعقوبة من يتعدى على أمثاله... أنزلها...
أنزل ذلك الرجل السكين من على رقبتي وابتعد تدريجيا عنّي منصاعا لأمر الرجل العجوز لكن تلك الضحكة لازالت مصاحبة وجهه... لم أفهم شيئا ما باله لماذا هاجمني... لم هو يضحك مثل المجانين في وجهي.
قلت مستهزئا:
_ يا له من كابوس... على كلّ حال سأستيقظ منه عما قريب...
نطق ذلك الرجل بحزم قائلا:
_ هل أنت غبي يا فتى... أول مرة أشاهد نبيلا بصفات المعتوه مثلك... سنبحث في أمرك حين تتفطن أين أنت... كذلك أنت في كابوس هذا صحيح لكنك لست نائما بل مستيقظا فيه... لتصحو قبل فوات الأوان...

***

بعد مرور ساعة تقريبا...الكل اختفى تركوني مستلقيا على ظهري في نفس موضع استيقاظي استنبط عقلي شعور... الصدمة الفاجعة... عدم التصديق... عدم تقبل تلك الكلمات التي تفوه بها لسان ذلك الرجل... رجفة الخوف... الشعور، الرعشة تتسرب في جسدي من أعلاه حتى أنامل قدمي... تلك الكلمات أشبه بصقيع صلبتني في مكاني لأعيد على مرمى ذاكرتي ما حصل لي من حين فتح عيني للحظة... هل صحيح ذلك... ألم يكن كابوسا... نظرت لسقف المكان المتواجد فيه لأراه باللون الأزرق السماوي، هذا ليس سقف منزلي ثم التفت يمينا لأرى غرفتين والتفتّ شمالا لأرى كذلك غرفتين في تلك الجهة وأنا مرمي في منتصفهم كأحمق... رفعت يدي بصعوبة من وقع تلك الكلمات على قلبي...
قلت بتمن:

_لا تؤلميني أرجوك!
صفعت وجهي بكل قوة حاسا بوجع شديد على وجهي، ذلك الوجع الذي جعلني أدرك أنني فعلا لست في حلم وكلّ ما مرّ بي كان حقيقيا... نهضت بفزع محاولا استيعاب أين أنا؟ ما هذا المكان غير المريح... من هؤلاء الناس... لماذا جميعهم انصرفوا عني دون ترك توضيح ما الذي يجري هنا؟

قمت وعندما استدرت شعرت بشخص واقف خلفي أشحت ناظري له متمعنا أنه ذلك الفتى الكئيب حامل سكينا كالتي مع المبتسم الغريب بين يديه وهو منحنٍ نحوي ربما كان يراقبني وأنا مستلقٍ... تراجعت للخلف بغير إدراك مني ووقعت على الأرض، اقترب مني ببطء شديد حاملا معه نظرات جوفاء وسط عينيه الكئيبتين...
قلت رافعا كفي يدي أمام وجهي:
_إليك عني... لا تقترب أكثر...

كأنني لم أحدثه مطلقا اقترب أكثر وأكثر... صحيح كنت أكبر منه حجما وقوة لكن جسدي شل بالكامل ما عدا عيني بقيت تتبع يديه وهو يمررها نحوي... ما كان لي إلا إغماض عيني هذا كل ما استطعت القيام به... بعد لحظات أحسسته يستشعر جبيني بيديه، فتحت عيني بتمهّل مصحوب مع خوف شديد... قلت بنفسي مع تنهد طفيف الحمد لله أنا على قيد الحياة... يا إلهي قلبي سيخرج من مكانه ثم تذكّرت السكين التي كان يحملها لأراها موضوعة على الأرض بمقربة مني وكلتا يديه فارغتين ناظرا لي كأنني شيء يراه للمرة الأولى ثم أبدا ابتسامة طفيفة وتغيرت نظرات عينيه لتشع بريقا كأنني ملاك أمامه أو شيء من هذا القبيل...

نادى عليه ذلك العجوز بصوت صارم وعال:
_إبراهيم... تعال هنا كفاك عبثا معه... لتذهب للنوم فورا، لم يبق إلا ساعتين قبل صرخة الشيطان...
قام ذلك الفتى جريا وذهب داخل الغرفة الأولى على اليمين وأغلق الباب بشدة مخلفا صوتا بالتأكيد سيوقظ كل شخص على مقربة...

عبس ذلك الرجل في وجهي طالبا مني عدم الاقتراب منه أبدا.. أو لم يكن طلبا كما ظهر بل تهديد... أكمل أمسك بتلك الأداة فلن تنجو بدونها، أيضا قد تملكني الفضول تجاهك لسبب ما ولا أريدك أن تموت فور خروجك بعد سماعنا لصرخة شيطان، لهذا سأطرح عليك مجموعة من الأسئلة وبعد ساعة ونصف سنلتقي، لهذا لا تبرح مكانك ولا تتحرك كثيرا حتى لا تقتلك تلك الفتاة إن سببت ضوضاء وأيقظتها فقد قتلت شخصين قبلك لأنهما لم يسمحا لها بالنوم بهناء وسأعطيك نصيحة أيها النبيل لأن وجهك يدل على أنك ستقع في مشكلة لحظة خروجنا للخارج، لا تثق بأي أحد هنا حتى في نفسك لا تثق بها، فيمكن أن تؤدي لقتلك!
جديا تساءلت ما بهم هؤلاء يتلفظون بكلمة القتل كأنها مجرد كلمة عادية وفعلها أسهل من لفظها تساءلت هل حقا تلك الجميلة قاتلة مستحيل...؟ قلت مذعورا:
_ما أمر هذا المكان، تبا يجب أن أجد طريقة للخروج منه فورا...
خرج ذلك الضاحك من الغرفة التي بجوار غرفة ذلك الفتى وهو يتثاءب وفي نفس الوقت قائلا بترنح:
_ما هذه الضجة هل تريدون من نجمة أن تنحرنا جميعا يا قوم...
نظر ذلك الرجل له بنظرة اللامبالاة ودخل للغرفة المتواجد بها الصغير وأغلق الباب بقوة كما فعل ذلك الفتى قبله...

أغمض ذلك الضاحك عينيه مع ردة فعل توحي أنه ارتعب قليلا من صوت إغلاق الباب، فتح إحدى عينيه مترقبا الباب الذي يقابله... بعده بلحظات تنهد قائلا:

_نجونا يا صاح...

نظر لي وهو واضع يديه على أسفل مؤخرة رأسه قائلا:

_يا رجل كدت تنزع لي رقبتي عندما سقطت فوقي فجأة... هل أنت مجنون؟ ألا تعلم أن الانتحار أحد المحرمات الأربع هنا، لقد أنقضت حياتك وكل أفراد عائلتك بالصدفة، قناعك أثار فضولي أتساءل أكلّ النبلاء أقنعتهم لا شكل لها مثلك...؟ أنت مدين لي بواحدة تذكر هذا... أمرك مريب فعلا... نبيل يحاول الانتحار ألهذا الوضع انحدر هذا العالم الحقير...

ثم عاد لداخل غرفته وقام يغلقها بروية حتى لا يصدر أي صوت، سادت السكينة أرجاء المكان من جديد... كل ما جال في عقلي جملة تتكون من لفظين لا أكثر وبقيتا تطنطنان بداخل عقلي باستمرار هما... يا إلهي !

***

بعد مضي ساعة أو ساعة وبضع دقائق على ما أعتقد وأنا أراقب أركان المنزل مستغربا من تلك الأنابيب الأربع العملاقة الخارجة من زواياه متسائلا يا ترى ما دورها... ولماذا علقت هناك... التفكير هنا لا طائل منه يجب علي البحث عن الإجابات بنفسي... صحيح مثلما قال ذلك العجوز لن أثق بأحد هنا فكلهم خطرون وغريبو الأطوار... صحيح هم حفنة من المجانين...

بينما أكلّم نفسي وأضع بعض الأهداف أولها محاولة الخروج من هذا الجحيم الحقيقي والرجوع لمكاني المناسب... خرجوا كلهم دفعة واحدة وسمع صوت اصطدام أبواب الغرف الأربع مرة واحدة، ذلك

الرجل مع ذلك الفتى مع العجوز يرتديان ملابس غريبة لونها أخضر مسود ويمسكان أقنعة على شكل الفئران ذاك العجوز يحمل اثنين منهم والفتى يحمل قناعا واحدا فقط أما ذلك الضاحك يرتدي نفس الزي والاختلاف الوحيد هو القناع فقد كان على شكل ذئب... الأخيرة تلك الفتاة القاتلة الجميلة الملقبة نجمة ترتدي نفس الملابس لكن أضيق قليلا مع لفة القماش حول جبينها واختلافها الوحيد عن كل أولئك الرجال هي حملها قناعا على شكل فراشة... من يراهم يظن أنهم فرقة مسرحية ستقدم عرضا مسرحيا...

ما أثار انتباهي أيضا أن الأقنعة مدونة بنفس الرقم الذي في جبينهم في نفس الموضع تحديدا. بينما أنا أراقب جبين ذاك الفتى انتبه لي ووضع يديه على جبينه محاولا إخفاء الرقم المدون به على ناظري مكشرا بنظرة تسودها نية القتل المعلن عنها... أخفضت نظري عنه لأنني تذكرت أيضا كلمات ذلك العجوز وتحذيره... قائلا بداخلي يجب علي تجنبهم قدر الإمكان وعدم الاحتكاك بهم مطلقا. فأنا أجهل نواياهم الخفية تجاهي وما يكنّونه لي..

أدلف ذلك العجوز ناحيتي قائلا:

_هل تعلم ما ينتظرك خلف ذلك الباب...؟

أجبته بلهفة:

من أين لي أن أعرف... لا لا أعلم أي شيء عنكم أو عن عالمكم!

سكت قليلا وأكمل... لن تعيش إذا خرجت للخارج بهذا الشكل المفضوح بل ستصبح لقمة صائغة بين يدي كلاب الشوارع فهم يحبون طينة الضعفاء من أمثالك...

في الحقيقة لا نية لمساعدتك فلا يهمني إن مت بالخارج أو لا... ما يهمني حقا ابني ثم نفسي الباقي لكل ذي شأن شأنه الخاص. لهذا

سأطرح عليك سؤالا وإجابتك هي التي ستحدّد مساعدتي لك من عدمها... والسؤال كالتالي:
_إن وجدت شخصا يكاد أن يلفظ أنفاسه الأخيرة أمامك... لديه شيء أنت تحتاجه بشدة لتبقى حيا وكذلك أنت الشخص الوحيد الذي يمكنك إنقاذ روحه... ماذا ستفعل له، ما سيكون خيارك؟

ظل يراقبني بتمعن لا نظير له حتى غاص بأقصى عمق داخل عيني. أدركت أنه يريد مني أن لا أكذب عليه وأكون صريحا بجوابي له، فقد ذكرني قليلا بتلك المقابلة التي حظيت بها مع مديري السابق... نعم إنه نفس الضغط الممارس علي حينها ولكن الاختلاف الوحيد هو أنني حصلت على تلك الوظيفة بعد المقابلة، لكن يا ترى هل سأحصل على حياتي بعد أن أجيبه... لا بأس لن أفكر طويلا في إجابتي فهي واضحة وضوح الشمس... نعم سأجيبك لن أخاف منك
قلت بكل ثقة وأنا أبادله نفس نظراته:
_إذا كان الشيء الذي أخذه منه يبقيني حيا فهذا يدل أيضا على أنه يحتاجه بقدر احتياجي له وبهذه الطريقة سأسرق حياته منه... لست حقيرا لأفعل فعلا مشينا كهذا... بالطبع سأنقذه وأجد طريقة لأنجو بها ففي النهاية أنا إنسان... وهذا ما تعنيه الإنسانية بمساعدة بعضنا البعض...
صمت الجو قليلا بعد الجواب الذي ألقيته له، ما بقيت إلا نظرات تحلق بيننا... تارة عندي وتارة عند ذاك العجوز الذي أسقط تلك النظرة من عينيه قائلا بصوت خافت:
_حسنا...
مضى لداخل غرفته وأغلق الباب وراءه بنعومة واضحة بلا صوت نهائيا، لم أعلم ما سيصنع لكنني لست نادما فقد بُحت بكل ما بداخل عقلي وقلبي فلا يمكنني الهرب من كوني أنا... فقط لمحاولة النجاة من هؤلاء...

ليحصل ما يحصل فهذا أنا وهذه مبادئي التي لن تتغير مهما وقع... انفجر ذلك الضاحك بالضحك قائلا:
_يا صاح... لقد أثرت بذاك العجوز حقا يا لها من مفاجأة غير متوقعة واستمر بالضحك غير المبرر له بلا توقف...

قطعت تلك الفتاة ضحكاته بتعجب قائلة... أكنت تقصد ما قلته أيها النبيل حقا... أكملت بغضب بالغ الوضوح... لالا تظن أنني سأصدق هراءكم من جديد، تلك الأكاذيب التي لطالما خدعتمونا بها... فقط لأنكم مميزون عنا أو أعلى شأنا منا... لا لا تتوقع أن نكون عبيدا لك فأنت بين أيدينا الآن ونحن من له اليد العليا عليك إن أردنا إعدامك بمثل ما تفعلون بنا لن يوقفنا أحد وإن أردنا تعذيبك لن يسمع أنينك أحد... قبل ساعات حين فتحت عينيك وشاهدت زرقتها شعرت بدفء مجهول أسرني للحظات وأنساني وعودي لنفسي لبرهة من الزمن، لا لم تكن مثل زرقة عيني ذلك الحقير... لكن في النهاية كلكم مثل بعض متشابهون كلكم تستحقون الموت أكثر مما نستحقه نحن، لن أفرق بين أحد منكم... قطعا سأقتلك حالا وهنا بالطبع سأستمتع بهذا مثلما تستمتعون أنتم حين تعدموننا أيها الحثالة...

لم أفهم ما الذي قلب مزاجها رأسا على عقب مزاجها في تلك اللحظات، عيناها فعلا تحمل ضغينة القتل تجاهي... تقدّمت نحوي ورفعت يديها التي بها سكين صوبي لتطعنني ناحية قلبي، راوغتها بصعوبة بالغة حتى وقعت جثتي على الأرض فقد انزلقت قدمي من تحركي المفاجئ وغير المحسوب... قامت بمهاجمتي مرة أخرى في قلبي مجدّدا وأنا واقع، فأمسكت يديها محاولا رفعها للأعلى بكل ما أوتيت من قوة لكن ضغطت سكينها بكلتا يديها وهذا زاد صعوبة مقاومتها... هنا طلبت المساعدة من ذلك الشخص الذي لم يتوقف على الضحك.

قال مستهزئا وبضحكاته المعهودة ماسكا معدته بكلتا يديه: لماذا أساعدك... يا صاح... ستموت اليوم أو غدا في كلتا الحالتين أنت هالك لا محالة وستأتيك المنية يوما ما، خير لك أن تقتل قبل رؤيتك لهذا العالم الشرّير صدقني اغتنم الفرصة، إذا كان كلامك عن عدم رؤيتك له حقيقة فهكذا الموت ستكون رحيمة بالنسبة لك...

قلت صارخا به:

_ما الذي تتفوه به...؟ كيف يمكنك أن ترى شخصا يموت أمام عينيك ولا تحرك ساكنا؟ أي البشر أنت...؟

قال وقد زاد في قهقهة ضحكاته:

_بشر ما الذي تقصده بها يا صاح، نحن مجرد أرقام يكفيك عبثا... لتمت إن أردت السلام الحقيقي...

علمت أن حديثي معه لن يفي بالغرض ولن يساعدني حتى لو تناثرت دمائي أمام عينيه ألا يملك قلبا هذا الرجل... تبا إنها قوية بالفعل وقواي بدأت تخور عني رغم حجمها الصغير لكنها تدفع تلك السكين جيدا، تكاد تصل لصدري لتخترقه على هذا الحال سأموت فعلا...

قلت لها بصعوبة فقد كان تركيزي الأكبر على مقاومتها:

_لا أعلم ما سبب هذا الدافع الذي لديك، لكن قتلي لن يحل من الأمر الكثير بل سيتفاقم وجعك لا أكثر، حسنا قد لا تصدقين كلامي وتظنينه مجرد كذب أو هراء... أنا آسف على ما حلّ بك في ماضيك يا نجمة... يمكنك تدارك ذلك فأنت لا تستحقين أن تعاني بسبب ذلك، أنا فعلا آسف من أجلك...

القوة ذلك الضغط الصادر منها بشكل مفرط للغاية تراخى لبرهة من الثواني مع رسم لوحة من الحزن على وجهها الجميل مصاحبة بتجمع قطرة الدمع المتلألئة بين شفير عينيها تحكي قصة تفطر الروح وتئن القلوب وتشق الصلب شقا...

بغير سابق إنذار أتت قوة على اليمين دفعتها دفعة واحدة قذفتها بعيدا حتى طارت لبضعة أمتار، كان صاحب هذا الفعل بالطبع ليس ذلك الأحمق الذي لا يتوقف إطلاقا عن الضحك بل كان إبراهيم ذلك الفتى الكئيب... ما دوافع فعلته هذه لا أدري فقد كان يشاهد من بعيد لا أكثر، أنقذني من القتل لقد أنقذ حياتي جديا... ما بهم هؤلاء القوم متراكمون ضد بعضهم البعض لا منطق يتمشّون به يمكن فهمه، ألا يفرقون بين الخطإ والصواب أو بين ما هو خير وشر...
أتى صدى ذلك العجوز من الخلف مناديا علينا... يكفيكم تهريجا، صرخة الشيطان الأولى تبقت لها بضع دقائق على مسامعنا لتضعوا الكبسولات التي لديكم وسط أقنعتكم حتى تستطيعوا التنفس وأنت أيها الإنسان فلترتدي هذا...

رمى لي بقناع على شكل فأر كالذي لديهم وقال لي ارتديه حالا ولتذهب لتلك الغرفة المجاورة، لغرفة الفتاة ادخل بها ستجد زيا كالذي نرتديه قم بوضعه عليك... هيا أسرع لم يتبق الكثير من الوقت، لا تريد الهلاك أليس كذلك؟ أنصت له فورا تحركت للداخل برعونة لأجد غرفة خالية الوفاض لا شيء بها غير زي مرمي على الأرض مع كتيب صغير كان بالجيب الأيسر لذلك اللّباس، لبسته فوق ملابسي وبينما أنا أرتديه تحسّست جيبي لأخرج ذلك المفتاح وقصاصة الورق اللّذان أعطتهما لي أمّي قبل رحيلي... صحيح يجب علي أن أجد حلا لهذه المعضلة التي وقعت بها وأعود لها في أقرب توقيت ممكن... أنا بحاجتها أكثر من أي وقت مضى...

خرجت مرتديا ذلك الزي وقناع الفأر لأجد كل المجموعة على أهبة الاستعداد متخذين وضعية الركض بشكل مثير للريبة والتساؤلات، إلا

ذلك المهرج كان هو فقط الذي ينتظر قدومي ورمى لي أداة اسطوانية الشكل تبدو مثل الكبسولة التي توضع في جهاز التنفس الخاص بالرّبو...
قال مدلفا على نظرة عنوانها الخبث:
_أنت مدين لي باثنتين وتذكّر لا يوجد جميل في هذا العالم ويجب أن ترد دينك لي حالما أقول لك وإلا ستدفع الثمن غاليا...
عاد راسما تلك الابتسامة على محياه مرة ثانية... يمكنك فعلها من أجلي يا صاح، فأنت مثير للاهتمام...

أخرسه ذلك العجوز... يكفيك كلاما يا أيها الضاحك وأنت أيها النبيل فلتفتح فم الموجود بالقناع، وضع تلك الكبسولة بداخله فلم يتبق الكثير من الوقت بحوزتنا... سأطلعك على مجموعة من القواعد عليك التحلي بها ريثما نتوجه للخارج أولا تلك الكبسولة ستوفر لك الأكسجين لمدة ثلاث وعشرون ساعة فقط كحد أقصى، فهذا ينحصر على العمل الذي تقوم به، حاول ألا تجهد نفسك كثيرا وتحكم في طريقة تنفسك... ثانيا أنت ستكون في الفيلق المتواجد فيه أنا وإبراهيم لهذا فلتتبع إبراهيم ولا تهتم لي إن تأخرت عنكم، يكفيك أن تهتم لحياتك لا أكثر... ثالثا إياك لفت الانتباه ولا تكترث لما يحصل من حولنا وتجنّب التابعين لحكومة القارة ستعرفهم فور رؤيتهم، ثق بهذا... رابعا حاول النجاة مهما كلفك الأمر لأنني أريد الاستماع لقصتك إذا عدنا أحياء ولم نمت اليوم...

لم يكفني الوقت حتى لأشعر بالخوف والرهبة مما تجلى عبر كلماته المختلطة مع الارتجاف، أنمل كلّ جسدي في جزء من الثانية بعد انتهاء تحذيراته، لا ليست كما ظننت أظن أنها نصائح قدّمها فعلا من أجلي... لم يكفني الوقت لاستيعاب وهضم خطورة الموقف الذي أنا به حتى سمعت صوت صفير يخترق الآذان ويمزّقها من الداخل من قوة دويه التي لا تحتمل، فقد شعرت أن جسدي يرجّ رجا، تناسيت كل ما

حدّثني به... وضعت يدي على أذنيّ ضاغطا عليهما بكلّ ما أوتيت من قوة لأخفّف عنهما قليلا... ثم فتح ذلك الباب الأمامي الذي في المقدمة من الأسفل إلى الأعلى تدريجيا ليصيح مرة ثالثة ذلك العجوز:
اركض وحرّك قدميك أيها النبيل... اركض... أركض...

***

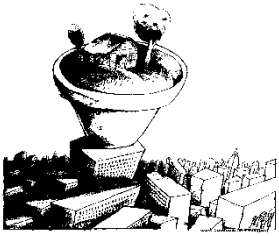

(8)

أول يوم في الخارج

فتح الباب بالكامل تزامنا مع انتهاء تلك الصافرة المدوية وخرجوا أولئك الأربعة كل من الضاحك ونجمة وإبراهيم مع ذلك العجوز، بقيت بمفردي للوهلة الأولى بدأ الباب في الانغلاق من جديد وبسرعة أكبر من التي فتح بها أدركت أن علي التوغل للخارج فعلا هذا ما حصل لحسن حظي، خرجت قبل أن أحاصر بالداخل... لكن لحظة خروجي كانت الصدمة البالغة تتملكني من هول المنظر...

السماء مغطاة بالكامل بغيوم رعدية رمادية اللون... العتمة الجزئية شبه المتواجدة في كلّ مكان... هناك منازل على الجانبين كلها ملتصقة ببعضها البعض بنفس التصميم غير أن كلّ واحد منها يحمل رقما معينا كبير الحجم أعلى كل باب لعلّه للتفرقة بينهم، يفصل بينهم طريق ينشق عند مفترق طرق كل ثلاثين مترا تقريبا، إنها مثل المستعمرات الفرنسية تماما...

توقفت لأنني لم أعلم ماهية المكان... إذن هذا ما يلقّبونه بالجحيم الحقيقي عالم يقوده اللّامنطق... سمعت أصوات خطى من ورائي قادمة صوبي التفتّ لأرى مجموعة لا تحصى من الناس القادمين كنيازك ناحيتي كانوا أناسا يرتدون أقنعة على أشكال حيوانات مختلفة منها على شكل ضفادع ومنها على شكل معز ومنها على شكل خنفساء ومنها على شكل هرة... أتعلمون كل أشكال المخلوقات الحية التي كنت أشاهدها في عالمي أصبحت على هيئة بشر بمختلف الأحجام فكان سهلا التفرقة بين الصغير والكبير الأنثى والذكر يجرون ثم يتدافعون فيما بينهم ليسقط أحدهم آخر فيدفن تحت خطى دهس أقدامهم التي لا تتوقف إطلاقا كأنه آلات جزّ العشب...

كان علي تجنبهم حتى لا أصبح أحد مخلفاتهم التي تتآكلها أقدامهم القاتلة والتي تمضي ولا تبالي بأي حياة تمتطيها...
قلت في نفسي مرعوبا... تبا يجب علي اللّحاق بصاحب قناع الفأر كما أشير علي مسبقا...
أنا مرغم على الحفاظ على حياتي لا أريد الموت... قطعا لا أريده... مضيت بلا هوادة، كل ما خطر على بالي هو الزيادة من سيرورة قدماي للحاق بمن هم في المقدمة... جريت وجريت بسرعة حتى صنعت مسافة ليست بقليلة عن من كانوا خلفي، تذكّرت شيئا مهما، صحيح يجب أن لا أتنفس بطريقة عشوائية وإلا سيترتب عن هذا أمر فظيع كما قيل لي قبلا...

بعد دقائق معدودة من الركض المتواصل بوتيرة شبه ثابتة تمكنت من رؤية إبراهيم ميزته مع باقي المجموعة... رويدا رويدا وصلت لهم لأجدهم هم كذلك على وشك أن يزجّ بهم في وسط زحام أكبر من الّذي تركته ورائي... تساءلت بحيرة أليس من المفترض علينا عدم التوقف مع مواصلة التقدم وما إلى ذلك هل انتهى طريقنا بحائط كبير ليجعلنا كسمك مجوفين في علبة تونة... بضع لحظات وجدت نفسي محاصرا من كل جهة فقد واكبتنا تلك الحشود التي في الخلف وما زاد الطين بلّة أن ذلك الحصار أصبح لا يطاق من شدة الضغط الممارس علينا ممن في الوراء، يبدو أن أعداد أولئك الناس تضاعفت تدريجيا ...

كما أن المفاجآت تتوالى بلا توقف، ذلك الجدار العملاق الذي كان هو نهاية الطريق تبين أنه باب عملاق للغاية مخفي من الصخر المطلي باللّون الرمادي... صعد ببطء وتدريجيا ليخلف زلزلة حركت البشر قبل الجماد... فقد سقط بعض صغار الحجم من تلك الرجة الساخطة... بعد

لحظات قلت في نفسي لقد فتح بما فيه الكفاية وهي كافية حتى نعبر منها ونتخطى هذا الحشد قبل أن نصبح لحما مفروما...
قررت أن أدفع جسمي للأمام مستغلا ذلك المد الهائل من ضغط الذين في المؤخرة... وفي محاولتي لاختراق الحصار اصطدمت بنفس الشخص الذي حذّرني نعم كان ذلك العجوز أدار رأسه ليراني فقام برد فعل مخالف لما توقعته وهو دفعي للخلف مناهضا لي... ما به لم أدر ألم يقل أنه علينا الجري للأمام، كفنني اشتداد الزحام والتراصّ الحاصل أكبر من ذي قبل... بعد برهة تعالت أصوات صراخ مختلطة مع البكاء أمسكني ضيق تنفس متزامنا معه ارتعاد حاد في أطراف بدني ويمكن التمييز بينها حتى بوجود الأصوات الرعدية التي لم تتوقف، إنها لأطفال صغار ونساء ورجال كبار في السن... كانوا في المقدّمة وهم أول من تجاوزوا تلك البوابة حسب اعتقادي وما أصابهم ليصيحوا بهذا الشكل البشع، الله فقط أعلم بهم...

ترادفت ردود الفعل لدى كل شخص، فمنهم من قرر مواصلة التقدم رغم معرفته لما يترقبه خلف تلك البوابة الهائلة، ومنهم من قرر الرجوع للخلف بعد سماعه تلك الصيحات التي لم تنخفض مطلقا بل كانت في تزايد فقد تعاقبه باستمرار بلا ركود...
ثلاث دقائق كانت كفيلة لأصل لمقدمة تلك البوابة لأصاب بالهلع من المنظر الذي كان ينتظرني لأتمعنه جيدا ويا ليتني ما شاهدتهم، وكأن جسمي وخزته ألف إبرة في آن واحد، ما رأيت هي جثث ملقية في كل مكان مغطاة ببرك من الدماء الحمراء التي زادت الجو ارتباكا مع سواد الطقس الغائم... جثث ينقضّ عليها مجموعة من المرتزقة يرتدون أقنعة على شكل كلاب ذات عينين حمراوين جثثهم كانت لا تقارن بالأشخاص الآخرين، بحوزتهم كلاب حقيقية كبيرة الحجم لأول مرة أشاهد فيها نوعا مشابها لها كثيفة الشعر سوادها غامق تحث قلب الناظر على الخفقان

خوفا ورعبا... موضوع على فكّيها قناع شبه شفاف ملتصق به كبسولة مثل التي نرتديها في أعلى أقنعتها بهذا يرى شكلها المشؤوم بوضوح تام... كذلك فلا يمكنها العض لكن أمكنها إثارة الهلع مع أصحابها الذين يتشابهون معها في عدوانيتهم اتجاه أولئك الكم من الضعفاء من أمثالنا كذلك فهي تنقضّ على من تراه قريبا منها لتقطعه بمخالبها العملاقة...
بينما أنا أركض هربا منها أتبع خطى إبراهيم الذي أمامي فقد كان مراوغا مهرا لهجمات أولئك الأشخاص فتارة يذهب يمينا فأتبعه ليتفادى الاقتراب منهم قدر الإمكان وتارة يتجه شمالا فأتبعه كذلك فكما تأكدت أنه اعتاد على تخطيهم بسهولة من خبرته السابقة على مواجهتهم لقد تكيف جيدا مع هذه الحالة المقززة...

كانت كل خطوة أخطوها أضع قدمي على جثة شخص ميت من قبل أولئك الحثالة... قدماي أصبحتا مغطاتان بدماء أناس لم أعرفهم في حياتي... قدماي دهستا على بطن شخص يتألم ويصرخ ينازع ليوقف نزيف قدمه اليمنى المطعونة... قدمي اليمنى أصبحت تشبه أولئك الأشخاص قسوة لتتخطى على رأس طفل صغير ميت غارق في دمائه ومحطم نصف قناعه إثر هجمة مميتة من تلك المخلوقات الفظيعة مخلفا نظرة عنوانها لماذا قتلتموني ما ذنبي...؟ الصراخ... البكاء... عويل على فقدان الأخ الأب أو يمكن حتى الأم... نحيب يعم الأرجاء كافة... سلب حياة الناس بلا إظهار ذرّة من الرحمة... كلّها مشاعر تبعثرت بداخل قلبي كأوراق بوكر لتولد شعورا لا مسمى له... نجونا بأعجوبة، خرجنا تقريبا من تلك المذبحة وتركنا الأشخاص خلفنا ملاحقين كأن شيئا لم يكن... كأن الذين قتلوا ليسوا منهم مطلقا!

هاي كيف أمكنك الركض بهذه العجلة يا إبراهيم ألا ترى هذه المذبحة التي تخطّيتها وأنت يا نجمة كيف أمكنك الاستمرار بالدوس على

جثث الضحايا والمرور فوقهم بيسر كأنهم فقط حبيبات رمل بالنسبة لك... أنت يا أيها الضاحك لماذا تهرول فقط ألا تريد الخروج سريعا من هذا المنظر... انتظر لوهلة لماذا تلتفت يمينا ويسارا تراقب الموتى ثم تترك ضحكة بصوت مرتفع أتجد لذة في إحصاء عدد القتلى أو أنت تتلذذ برؤية دمائهم تجري كالوديان بين قدميك القذرتين...؟ قلت بغضب مطهي ببعض الأسى على حالهم ففي النهاية أنا إنسان...
_يكفيك ضحكا عليهم يا أيها الوحش اللّامبالي...

صوتي كان ضعيفا مقارنة بأصوات الذين تركوا خلفنا أصوات عنوانها المعاناة... أصوات كلماتها القهر... أصوات كأن لا حياة تذكر لهم... كأنهم لا يستحقّون العيش بحرية...
كل تلك الأصوات اختفت فجأة بعد سماعي لأحد الكلاب وهو يقول بقبح:
_يا أخي الصغير (يقصد كلبه) اليوم ستأكل للشبع... أعلم لحم الأشخاص الكبار في السن هو المفضل لديك أليس كذلك؟!
ما خطر في مخيلتي... إبراهيم... نجمة.. الضاحك الحقير كلهم في المقدمة وقد خرجوا من كومة الجثث المتراكمة... لكن ذلك الرجل لم أره يتخطني مطلقا... لا تقل لي أنه قتل بواسطة هؤلاء الملاعين؟

صحيح ذلك الشعور الذي لم أعرف ماهيته لأنني لم أتعايش معه من قبل أو بالأحرى لا رفقة لي معه... ليس شعورا طبيعيا فبعد كل ما شهدت من قتل بأم عيني كل ذلك حرك إحساسا دفينا بداخلي لكنه وصل ذروته حين توقفت عن الركض لأراقب عن كثب ذلك الرجل العجوز ملقى على الأرض بواسطة كلب معه أخوه الأصغر كما لقبه قبل قليل... وواضع سكينا على رقبته وهو يصدر قهقهة السخرية كأن قتله مجرد تسلية وذلك الكلب أمامه ينبح كأنه فهم عليه ما قال... نعم ما

تملكني في تلك اللحظة حركني لا شعوريا صوب ذلك الكلب وأخيه الأصغر متناسيا أن علي التقدم للأمام مهما كلفني الأمر متناسيا أنه حذّرني بأن لا ألتفت لغير حياتي... أنت لا تعلم أيها العجوز أن ما حركني هو الذي يبقي إنسانيتي قائمة بداخل روحي المحبة للحياة مهما كانت قاسية ما حركني هو... هو الغضب العارم الذي انتشى في كلّ بوصة من جسمي... في هذه اللحظة تأكدت من أن الغضب فعلا يقضي على الخوف بداخل الإنسان مهما كان طاغيا بجوفه...

أخرجت السكين الذي وهبها لي إبراهيم حين كنا في ذلك المأوى، أمسكت بها بكلتا يدي ثم عصرتها لحد الانكسار ووضعتها أمام بطني لكي أخفيها وتحركاتي كانت متناسقة وسلسة فقد كانت تحركات غرائزية... رفعت عيني لأرى حشدا كبيرا قادم بجهتنا إنهم من فرّوا من الموت المحقق... رغم ذلك اقتربت له برمشة عين فلم تكن مسافة كبيرة تجمعنا ثم وجهت له طعنة قاتلة... لكن ما حدث أن الغرائز الحيوانية لذلك الكلب كانت تفوق غرائزي فتفطّن لهجمتي بدل أخيه الأكبر الذي لم يعلم أنه سيقتل وهو يتلذذ في الاستهزاء بذلك الرجل... فقفز ناحية سكّيني ليهجم علي، لكنه تلقى طعنة مميتة بدل ذلك الكلب البشري...
قمت بدفعه بجسمي لأخرج السكين وهو معلق في الهواء، كل الأمر حصل في ثانية أو ثانيتين على الأكثر... وقع مباشرة على أخيه الأكبر ليبعده ذلك عن الرجل العجوز ليرتمي سكينه بعيدا هو الآخر... أمسكت ذلك العجوز باستعجال ووضعته وراء ظهري وقمت بالفرار فورا من ذلك المكان...
سامعا ذلك الكلب البشري قائلا بحرقة:
_ أخي ما بك... أخي هل تسمعني؟!!
ثم صاح بصوت عال وهو يحتضنه:
_أخيييي...

قام بعدها دون إبطاء ليطاردنا بعدما ألقى ذلك الكلب من حضنه على الأرض... لكن من حسن حظّنا أنه حين وقوفه وجد نفسه وسط زحام من الراكضين المتوجهين للأمام وتعرقلت حركته كليا ما تحرك به هو صيحاته العاتية والمسموعة على أسمعتنا قال بنية الانتقام حسب نبرة صوته:

_سأجدك أيتها الفئران اللعينة... سأنهيكم عن بكرة أبيكم... يا أصحاب الفئة مئة وثلاث وعشرين... سأنهيكم للأبد...

***

أخيرا لقد تمكنا من النجاة بأعجوبة بين يديه فمن يدري ما كان سيصنع بنا إن أمسكنا... سحقا لهم كم هم فعلا مخيفون أولئك الكلاب البشرية...

توقفت عن الجري فقد أصابني نوع من الإرهاق وضعت ذلك الرجل من على ظهري أرضا ليتكئ على حائط منزل نصف قائم... لأعيد تنفسي لطريقته المنتظمة ونكمل التوجه لتلك الوجهة المجهولة التي يتوجّه لها الجميع، بينما أنا ألتفظ أنفاسي من داخل القناع بعسر فلم أعتد على التنفس وفق كمية محدّدة من الأكسجين بل اعتدت أن أتنفس بطريقة طبيعية في عالمي...

أعدت اتزاني نوعا ما واسترخى جسمي نسبيا من الكم الهائل من الجهد الذي بذلته لحدّ الساعة... لم يتكلم ذلك الرجل مطلقا فقلقت عن حاله بعض الشيء... قلت له وأنا أتلفظ أنفاسي بطريقة شبه منتظمة:

_هل أنت بخير يا رجل... إن كنت تسمعني فقم برد فعل ما؟

استمر الحال على ما هو عليه لمهلة معينة من الوقت، ثم أغار علي لأصبح أرضا وهو فوقي ممسكا رقبتي بيديه الاثنتين...قائلا بقلق مفصحا عنه بطريقة صراخه نحوي:

_ألم أقل لك أن لا تأبه إلا لحياتك فقط...
قلت له:
_لم أستطع أن أراك تقتل أمام عيني ولا أحرك ساكنا... لم أرد أن أعيش حياتي نادما...
قال بغضب:
_يكفيك جنونا... يجب أن تعي أنك مجرد أحمق أعلن حربا على أولئك الكلاب... سينتهي أمرنا جميعا عن بكرة أبينا عما قريب بفضل تدخّلك العشوائي لإنقاذي... لقد عرف رقم فئتك الموضوعة على قناعك الآن...
أردف كلامه قائلا بلهفة:
_صحية الشيطان الثانية ليست ببعيدة... ينبغي علينا الوصول لمكان العمل... عجل وإلا سنقع بمصيبة أضخم من التي رأيتها... ومن جديد لن أكرر كلامي عليك محاولة النجاة وحدك مهما كلفك الثمن...

واصلنا التحرك مسرعين بكل ما نملك... طريقنا كان عبارة عن مدينة تسكنها أشباح... مدينة تقريبا كل مبانيها مهدم جدرانها على آخرها إلا أجزاء ما زالت قائمة تكاد تقع بهبة ريح ضعيفة... هذه المدينة أقر على أنها كانت لأشخاص في الماضي... أشخاص عاشوا بها بكل سعادة ربما لكن أين هم...؟ طبعا الجواب أعرفه سلفا... قد ماتوا مخلّفين آثارهم التي تناثرها الزمن في كل خبايا تلك الجدران المتهالكة... فعلا ما الذي يحدث هنا؟

أكملنا طريقنا وبعد عشر دقائق من الهرولة وصلنا لباب ضخم جدا شبيه بمثل ذلك الباب الذي قيدنا سابقا، كان يفصلنا عنه حوالي ثلاثون مترا... لنسمع صوت تلك الصافرة الممزقة للآذان تلك الصافرة التي تجبرك على وضع يديك على أذنيك غصبا عند سماعك لها... بعدها بدأ ذلك الباب بالانغلاق...

صاح بي ذلك الرجل:
_انطلق بأقصى ما تملك يا فتى... لا يجب علينا أن نكون خلف ذلك الباب الرمادي عندئذ سترى الجحيم الحقيقي... هلمّ معي...
فعلنا ما تطلّبه الوضع ومررنا بالرمق الأخير عبره... لحسن الحظ أنه لم يكن يفصلنا عنه الكثير معزّزين فرصة عبورنا سالمين مؤقتا على الأقل...

***

نظري كان صوب الباب الثاني بعد دخولنا به لنجد مجموعة من الراكضين لم يدركونا فقد غلق الباب على بعضهم بشكل مريع والبعض الآخر بقوا خارجا للآسف وما سيحدث لهم حدث أجهله... فرنت ضوضاء ارتطام الباب بالأرض معلنا على مسمع من الجميع انتهاء تلك الصافرة القاتلة أو كما تلقب بصرخة الشيطان معها في آن واحد... أتعلمون هذه أسوء خمس ساعات في حياتي منذ أن فتحت عيني أبدا... بئسا على كل دقيقة أرغمت على عيشها هنا... والمصاعب فيها لا تزال مجهولة... فبغض النظر عن مستقبلي المظلم في هذا العالم الكريه لربما قد تكون هي الساعات الأفضل لي وهذا نظرا لما أجهل حدوثه وما تخبئه الأقدار لي...

مساحة شاسعة جمعنا بها كنا حوالي ألف شخص ممن وصلوا فمنا الجرحى ومنا السالمين تماما... كنا ننقسم لمجموعة صفوف بحيث كل صف لديهم عدد معين من الأشخاص فظاهر للعيان أن صفا أطول من صف... تساءلت كيف لهؤلاء الأشخاص غير المنظمين والمهملين وغير المستقرين نفسيا، كيف نزل التنظيم عليهم فجأة فإنه ليس بوحي يوحى... أو ربما هم هكذا مهيئين أنفسهم، صحيح تغمّدتني الدهشة بهذا الفعل غير المتوقع منهم بحق... لكن السؤال المطروح ما الذي دفعهم لفعل هكذا فعل مشابه ؟

أثناء انشغالي برؤية انضباطهم غزا صوت في الأفق... رفعت رأسي لأجد مجموعة من الأشخاص على منصة عالية الارتفاع لكن أمكني معرفتهم... أليس أولئك هم الأشخاص الذين يداهمون كوابيسي في كل ليلة نمت فيها... أليس أولئك هم من لاحقوا تلك المرأة... نعم أعرفهم مسبقا... إنهم يضعون أقنعة على شكل غربان سود ذات الأعين الحمراء ويرتدون تلك العباءة السوداء... بالتأكيد ليست مصادفة كيف أمكنهم التجسد أمام عيني هنا في هذا العالم الموحش... صدقا؟!

رجعت أسطوانة حياتي للخلف في تلك اللحظة بالذات أهذا يعني أن ذلك الكابوس المتكرر... لم يأت على مخيلتي بمحض الصدفة كما اعتقدت أو هو نسج من حياة الفقر مع المعاناة التي عشتها قبلا بل هو يرمز لشيء معين... شيء سيدلّني من أكون... إذا قد يكون قدومي له معنى ليس كما ظننت مسبقا...

تلك الغربان كانت مجموعة لا تقل عن مئة منهم، كلهم مصطفون أمام بعضهم البعض في المنصة بشكل مرتب، كان هذا الترتيب حسب الأرقام المدونة في أقنعتهم تماما في منطقة الجبين من الرقم عشرة آلاف واثنان لغاية عشرة آلاف ومئة وخمسة عشر كما رأيت بصعوبة...
بدأ الغراب صاحب الرقم عشرة آلاف واثنان بالحديث بين كلّ رفاقه المتواجدين معه قائلا بصوت أشبه بالتحية:
_فليحي الجد... وليباركنا الجد ببركته...
فكرّر وراءه كل المتواجدين من حولي بصوت واحد:
_فليحي الجد... وليباركنا الجد ببركته...
ثم قال آمرا:
_أسمعوني القسم!

رددوا جميعا بصوت واحد واضعين أيديهم على أكتافهم كنوع من التحية:

_نقسم بولائنا للجد وخدمته طيلة حياتنا...

_نقسم بألا نقدم على الانتحار ما حيينا...

_نقسم بألا نفكر بالهرب من مستعمرنا ما حيينا...

_نقسم ألا نتزوج إلا بمن يملكون نفس لون عيوننا...

فليحي الجد العظيم...

التزموا الصمت من جديد طوعا كلهم ينظرون نحو الغربان، خاضعين وخانعين كأنهم مثل العبيد أو ربما أسوء بل هم يشبهون الآلات التي لا حياة بها والتي لا تتحرك إلا بفعل ملموس من سيدها حين يقوم بإشغالها ليقوم بعمل ما بواسطتها...

أتم كلامه قائلا:

_قدموا كل ما لديكم من أجل إنجاز عملكم اليوم... أيتها الأرقام...

_ أرقام أيعني أنه غيّر مصطلح البشر لأرقام؟ إذا فهذا ما تعنيه تلك الأرقام المتسلسلة على جبين كل شخص من الواقفين هنا تماما مثل بطاقة التعريف في عالمنا... تبا لهم يا له من فعل مشين... تساءلت والأسى مكتس سؤالي كيف يقبلون بهذه الحياة على أنفسهم!

أنهى كلامه بجملة تحمل في معانيها خطرا محدقا بالجميع قائلا:

_اجتهدوا في عملكم مثل كل يوم لكم هنا أيتها الأرقام وكما العادة فصاحب أقل مردود وكمية من الذهب سيعدم بغير حبال... تعلمون ما أقصد... هلمّوا وسنلتقي بكم عند اقتراب صرخة الشيطان الثالثة...

تحركوا مثل الجنود واحدا خلف الآخر بانتظام داخل أحد المناجم تحت الأرض الذي كان يسعنا جميعا رغم عددنا الكبير الواصل لألف شخص تقريبا والظاهر أنهم أخذوا عدة سنوات لحفره ليصلوا لهذا الكبر... استغرقت بعض الوقت للّحاق للقعر بعد تقدم كلا الصفين أمامي

لأدهش بما رأيت، كتلة ضخمة للغاية من الذهب الصلب البراق... لا أبالغ إن قلت كأنها بمثل كتلة نيزك بجوف الكهف... ما يضيء لنا الكهف هو مجموعة من حشرات مضيئة موضوعة في أسطوانة زجاجية وما لاحظته وجود كبسولة كالّتي بداخل أقنعتنا في بطن أسطوانة وهذا لتمد تلك الحشرات بالأكسجين، كان خلف كل أسطوانة يقف غراب أي خمسون غرابا عدّا ربما ليقوموا بحراستنا أثناء عملنا الشاق...

توجّهنا كلّنا نحو تلك الكتلة من الذهب، كانت تسعنا جميعا في حين المسافة بين كل شخصين لا تقلّ عن أربعة أمتار لتوفر بغير قصد جو عمل مناسب لنا... لكن ما أثار حيرتي أنهم لا يستخدمون أي من المعدات الخاصة لتحطيم الذهب بل فقط يستخدمون تلك السكاكين لتهشيمه وهذا بدا شبه مستحيل فالذهب أصلب بمراحل من المعدن المصنوع منها تلك السكاكين... لكنهم مجموعة حمقى لا يعرفون ذلك فقط يستمرون بالمحاولة رغم صعوبة المهمة الموكلة لنا جميعا...
مرّت أربع ساعات من الجوع والعطش المفرطين... أنا ما زلت أحاول جاهدا تهشيم ذلك الذهب مثل الباقي بسكيني وبالفعل تناثرت بين يدي ثلاثة غرامات أو أربعة منها بعسر بالغ الوضوح لأضعها في بدلة الجيب اليمنى تحسبا لأي طارئ...

كان على يميني رجل يبدو كبير السن من هيئة جسمه عبر بزته البنية اللون يرتدي قناعا على شكل خنفساء، يعمل ويتوقف لينال قسطا من الراحة ثم يكمل عمله من جديد... وعلى يساري طفل صغير لا يتجاوز الخامسة عشر من العمر على حسب حجم جسمه أيضا بطريقة عمله العشوائية كان يرتدي قناعا على شكل ضفدع لكنه لم يتوقف أبدا وواصل العمل رغم تعبه الواضح عبر رعشة في قبضة يده وهو يحمل سكينه بعسر...

إبراهيم أراه ليس ببعيد عني ملا يفصلنا سوى عشرين مترا على الأكثر كذلك نجمة لاحظتها عند دخولي هي في جانب أقصى اليسار، أما ذلك الضاحك فقد كان مع عشرة أشخاص مستلقين على حائط الكهف الذي خلفنا آخذين قسطا من الراحة، تساءلت ألم يسمعوا ما قاله؟... أيريدون وضع حد لحياتهم؟ أما ذلك الرجل العجوز لم أره حين دخولنا هذا الكهف أين هو أنا لا أعلم البتة...؟

فجأة سقط الرجل على يميني قائلا بصوت يرثى له:

_أنا عطش... أريد ماء...

صبوت نحوه تاركا من يدي سكيني قائلا له:

_ما بك يا... هل أنت بخير هل يمكنني مساعدتك بشيء... كلنا جوعى وعطشى فل..

لم أنهي كلامي حتى دفعني مشيرا بسكينه نحوي قائلا:

_ابتعد عني لا أريد شيئا منك... أعلم غايتك تريد سرقة كمية الذهب الضئيلة التي تعبت لأجلها لحد الآن لتضمن نجاتك وأعدم أنا... بئسا لك فليعاقبك الجد بعقابه...

أخفض سكينه وما كان لي إلا الابتعاد عنه وتركه ملقى على الأرض لأعود أدراجي... تاركا إياه يكرر أنا عطش... أنا عطش... بالتأكيد سمعه أحد الغربان الواقفين أمام الأسطوانة الزجاجية لكنهم لم يحركوا ساكنا فكأنهم مجرد تماثيل... شعور الوجود بهم غير محسوس نهائيا..

قامِ بمشقّة وتوجّه ناحية المخرج المؤدي لخارج الكهف وهو يكرّر أريد ماء... أريد ماء...

***

بعدها بدقائق من خروجه دخل رجل آخر لكن التفرقة بينهما أنه لا يلبس قناعا على وجهه فقط يجري واضعا يديه حول رقبته بدا أنه يختنق مهرولا في كل الأرجاء يمنة ويسرة... لم يأبه له أي أحد وواصلوا عملهم كأنهم لا يرون أحدا يحتضر بأبشع طريقة يمكن على المرء تخيلها...

وصل ناحيتي ليبسط جسمه بقربي بشكل مستقيم مسفرا على ملامح تدل على أنه تعذّب بشكل جنوني، كانت شفتاه جافتين وعيناه تكادان تخرجان من رأسه، أمّا لون وجهه فيدلّ على البياض أي لا دماء تسري فيه... قلت مصدوما بعد معرفتي بهويته... يا ليتك قبلت مساعدتي، لم تكن لي نية لأخذ ذهبك يا لها من ميتة لا تستحقّها يا هذا... سمعت خطى خلفي تقترب على مهل مني، لألتفت بعد شرود احتلّني وأنا أراقب ذلك المُختنق... لأرى ذلك الغراب بزيّه المريش بالأسود الذي كان يتكلّم مسبقا، لا ليس هو لأن هذا رقمه ألف وأربعة عشر... هذا أقل منزلة من ذاك فكلّما تنازل الرقم تدريجيا زدت في رتبة قيادتك للباقي هذا ما استنتجته ولا أعلم قد أكون مخطئا ويعني أمرا آخر...

صرخ قائلا مسمعا الحضور:

_هذه نهاية كل من يريد التملّص من عمله قبل صرخة الشيطان الثالثة... لتختاروا أيها الأرقام إما أن تتحمّلوا أو يصيبكم ما أصابه... فلتواصلوا العمل بلا توقف أيّها الحمقى الأدنى منزلة في هذه القارة...

اكتساني الغضب العارم مجددا لتفوهه بتلك الكلمات الجارحة، لكنني أمسكت نفسي بشكل من الأشكال قررت عدم التهور فأنا لا أعلم الحقيقة المخفية لهذا العالم إلا ما رأيت لحد اللحظة وأي تحرك غير محسوب مني سيكلّفني حياتي وهذا المؤكد طبعا...

صرخ في وجهي قائلا:

_لا تنظر لي هكذا يا أيها الغبي... أتريد أن يصيبك ما أصاب هذا المعتوه، تابع عملك وإلا نزعت عنك قناع الفأر هذا يا ذا الفئة مئة وثلاثة وعشرون لتموت خنقا...

قلت في نفسي حسنا لا تجادله دعه يذهب يكفيك إثارة للانتباه لتكبح نفسك لا داعي للمزيد... يمكنك غضّ بصرك، لا تلتفت له وعد لعملك...

ظن أنني قد خضعت له حين مواصلتي لعملي بعدما أمرني بتلك الطريقة المستفزة... وليؤكد سطوته ويثبت جبروته علينا جميعا...

صاح قائلا:

_أيها الصغار (يقصد بها الغربان الواقفين أمام الأسطوانات الزجاجية) لا تحركوا جثة هذا المتملّص دعوه في مكانه ليكون درسا لهم... هذا مصير من يحاول الفرار من عمله أو مستعمراته... سوف آمر بإعدام فئته (عائلته)كلّها تاليا...

أربعة ساعات مرت بالفعل... يا إلهي متى سنتوقف عن العمل رحل مع أتباعه... كلامه أوقد غضبي أكثر مما كان عليه لكن ما أطفأ تلك النار ليتصاعد دخان الاشمئزاز. هل رأيت ذلك الفتى ذا قناع الضفدع زاحفا على بطنه وتوجّه لجثة ذلك الرجل المرماة أمامي وأدخل يديه في جيبه وأخرج ما كان يملك من الذهب ليخبئه في جيوبه، ثم عاد لعمله كأنه لا يرى جثة بقربه... تبا إنه مجرد فتى كيف ما آلت إليه الأمور ليصبح صدره خاويا هكذا...

***

الجوع والعطش كادا يفتكان بي لكن لحسن حظي أنني متكيف قليلا على هذه الظروف نظرا لما عايشته في الماضي مع أمي فكنا نأكل اليوم وغدا لا نجد ما نسد به جوعنا فنصبر... لكن كيف لهذا الصغير المتواجد على يساري التحمل لعشر ساعات من العمل المتواصل... أنا يداي لم تقويا على حمل هذه السكين أكثر كيف أمكنه المواصلة لهذا

الحد... كل شخص لديه أسبابه الخاصة التي تجعله يتخطى حدوده ليحصل على ما يريد وهذا الفعل ذو حدين كما نعلم جميعا...
مرّت ثلاثة عشر ساعة من محاولة طعن تلك القطعة العملاقة من الذهب مرارا وتكرارا لكي نحصل على بضع حبيبات منها لا أعلم كم أملك ربما عشرة غرامات أو أكثر بقليل حتى الآن تساءلت أظن هذه الكمية ستكفيني لأنجو اليوم نظرا لأولئك الأشخاص الذين أنتجوا أقل مني... حسنا عليّ أن أتمشى مع وقع التغيرات الناجمة لهذا العالم ريثما أعثر على وسيلة لمغادرتي منه فأنا في أول عشرين ساعة لي هنا... صحيح أنني صعقت في الوهلة الأولى وأمطر الخوف على قلبي بغزارة ليصيبني الجمود، بعدها تدريجيا اختفى الخوف لتصبح تلك المناظر البشعة أمرا أمكنني تقبله، يا ترى ما هذا البرود الذي أصابني فجأة... أشعر بإحساس سيء يتجوّل بداخلي لكنه لم يظهر نفسه كاملا لي بعد...

لقد أنهكت كليا لن أستطيع المزيد سأرتاح قليلا، اتّكأت قليلا على كتلة الذهب تلك لآخذ قسطا من الراحة لأقابل مجدّدا جثة ذلك الرجل الميت بجانبي، واصلت التطلع لعينيه الواسعتين... بهما حزن دفين، إحساسي يطلعني أن كل حياته كانت عبارة عن مأساة حقيقية...
قلت بأسى:
_لو كنت أعلم أين تتواجد مياه لأسقيتك منها... ما كنت لتفارق الحياة على يدي الوحوش عديمي الإنسانية... أتمنى أن تحصل على السعاة في حياتك الأخرى...
تقدّمت منه وأغلقت عينيه وهذا كان المعروف الأخير مني لك يا أيها الرجل... لكن لماذا لا يوجد على جبينه رقم مرسخ مثل قناعه، إنه يشبه تماما الرجل الذي لا أعرف أسمه لحد لحظة... قطع تفكيري إثر سماعي ذلك الطفل يضحك بتستّر خلف قناعه ويهمس بصوت مسموع بدوري سمعت بعض كلماته منها...

قال بصوت فرح:
_سننجو اليوم بفضل العم مراد يا أمي...
أرجعت شريط ذكرياتي منذ لحظة دخولي لحد الدقيقة التي نركب فوقها وتسير بنا في طريق الزمن اللامنتهي... انتظر لحظة لا تقولي إنه حدث... مستحيل أيوجد هنا بشر فعلا يقومون بما قام هذا الرجل هنا في عالمكم الملطخ بدماء بعضكم البعض... قمت من مكاني ممسكا ذلك الفتى من كتفيه ولأنني وصلت له في جزء من الثانية لم يردعني وأوقع سكينه أرضا من الهلع الذي أصابه مني فقد اعتقد أنني هاجمته لكن العكس أردت فقط طرح سؤال عليه وأمسكته لكي لا يشير سكينه نحوي...
قلت له متفاعلا:
_أنت تعرف هذا الشخص الذي قتل صحيح... هيا أطلعني على ما تعرف أريد أن أتأكد من أمر ما سيغير نظرتي لعالمكم...
قمت برجه للأمام والخلف قائلا له تكلم رجاء يا فتى لا أريد شيئا منك غير إخباري الحقيقة.
قال بصوت يدل على الخوف:
_إذا أخبرتك... لن تسرق حياتنا أو تقوم بقتلي هنا؟
قلت له:
بالطبع يا فتى لا تخف مني... أنا لا أشبهكم في شيء فأنا إنسان... لكن ماذا تعني بسرقة حياتكم...
قال بصوت غير مسموع:
_سأخبرك بكل شيء أيها الفأر كثير الكلام، لكن اتركني حتى لا تثير ريبة الغربان فهم ينظرون لنا، عد لعملك واقترب ناحيتي وحينها سأكلّمك بصوت غير مسموع لهذا من الأفضل أن تسمع جيدا لأنني سأتكلم مرة واحدة...

أخذت وضعية العمل ثانية مقتربا منه وقلت صحيح لقد خاف مني لكنه فطن للغاية بإدراكه لهم... جديا هذا ما يسمى بغريزة البقاء... أنا ملزم أكثر على ضبط انفعالاتي غير المدروسة الحدوث...

بدأ بالكلام بصوت خافت لكنني تمكّنت من سماعه كأن حواسي كلّها تعطّلت إلا حاسة السمع زادت توهجا وقوة...

قال بهمس:

_العم مراد يقطن معنا في نفس النزل وهو حامينا الوحيد أنا وأمي... أمي مستلقية على ذلك الجدار خلفنا مع تلك المجموعة الصغيرة ليس لأنها لا تريد العمل لا بل هي مريضة للغاية ووصولها اليوم حية يعتبر إنجازا بحد ذاته وهذا بفضل العم مراد بفضل قيادته لنا لهذا المكان اليوم... علم بأن أمي لن تقدر على العمل بوصولها فقرّر أن يضحي بحياته من أجلنا، البارحة لم يشرب قطرة ماء بل قدّم تلك القارورة التي أعطيت له لنا بالقول أنه ظمآن ولا يريد أن يشرب...

وأردف قائلا أنه سيرغم نفسه على الخروج بطريقة معينة هو يختارها لينهي بها حياته البائسة... أتذكر آخر كلماته لي قائلا وهو يبتسم تلك مرته الأخيرة:

_قبل ذهابي نحو السماء يا بني... سأحمل جسدي إليك أعرف تلك الغربان جيدا غرورهم سيمنعهم من تحريك جثّتي حينها ستجد الذهب الذي استخرجته في جيبي الأيمن للبزة التي أرتديها تلك هي حصة والدتك... قبل صرخة الشيطان الثالثة ضعها في جيبها وأنت ستوفّر لنفسك بعض الغرامات وستنجوان معا أنا متأكد من ذلك...

وبشأني فأنا سأعدم بعد شهر على الأكثر فكما تعلم يا بني كدت أبلغ سقف الخامسة والخمسين من العمر وهذا العمر الذي تعدم به جميع الأرقام من أمثالك على حد سواء وأفضّل أن يكون لموتي فائدة على أن أجعلهم يتلذّذون بموتي... أكمل قائلا نحن السكان الأوائل للقارة الأم... الخطر الأكبر لهم على عكسكم أنتم جيل عصر الاختناق...

قلت بداخل نفسي فرحا:
_علمت هذا... إذن ليس كل البشرية بلا إنسانية بل هناك طائفة ذات أعداد قليلة بينكم حافظت على كونها بشرا... هذه كانت أول بشرى ترفرف نحو مسامعي لتدغدغ قلبي رسمت ابتسامة صغيرة على محياي خلف قناعي...
قمت بزيادة المسافة بيننا ثانية فقد تأكدت مما أردته منه وأثلجت صدري لا داعي لأورّطه معي أكثر فهذا الفتى ذو قلب قوي لن ألومه فلو كنت مكانه لفعلت نفس الشيء لأنقذ أمي من الإعدام... نعم أمي يا ترى كيف هي حالك الآن... كم أتمنى أن تكوني بخير.. انتظريني سأعود لكما في القريب العاجل بإذن الله...

خمسة عشر ساعة من العمل المضجر والمرهق للأبدان حتى دخل الغراب صاحب الرقم ألف وأربعة عشر للمرة الثانية وهو يصرخ... ما به هذا الأحمق لماذا يحب الصراخ بهذا الشكل أو أنه يحب أن يزيد من غطرسته بعلو صوته على من لا صوت لهم...
قال آمرا:
_ أيتها الأرقام اللعينة لتخرجوا ومعكم غلاتنا لليوم، وكما تعلمون جميعا سنعدم الشخص الذي يحمل أقل كمية وزن من الذهب... لي مزاج جيد لشنق أحدكم بطريقتنا بعد قليل...
أعاد كلامه قائلا:
_أيتها الغربان الصغيرة لتخرجوا أنتم أولا وأعيدوا تنظيمهم أمام مخرج الكهف ثم ذهب خارجا، وحصل ما أراد فقد خرجوا قبلنا...
وقف أربعة من أصل عشرة الذين كانوا مسترخين على جدار الكهف طيلة الخمسة عشر ساعة الماضية متقاربين وأخذوا وضعية الهجوم ومن بينهم ذلك الضاحك...

وضعت ما لديّ من غرامات الذهب في جيب بزّتي منتظرا ما سيفعله إبراهيم الذي كان على مرمى عيني فلا دراية لي بالخطوة القادمة التي عليّ فعلها، ظللت أراقبه حتى أتبع خطاه وأخرج سالما من هذا الكهف العميق والموحش... شعرت بأن تلك الكبسولة التي أستنشق منها الأكسجين أقبلت على النفاد فقد شعرت بصعوبة التنفس نوعا ما صحيح فقد تنفست بشكل مفرط اليوم لعدم علمي الكيفية الصحيحة...

بدأ بعض الأشخاص في الجري ليخرجوا بسهولة بالغة مع مراقبة أولئك الأربعة لهم لكنهم لم يحركوا ساكنا، إذن هم محدّدين هدفهم سلفا على ما ظهر إذن لن يهجموا إلا على أربعة أشخاص من تسع مئة وتسعين شخصا، بئسا لهم يريدون مقايضة حياتهم بحياة أشخاص بذلوا مجهودا ليضمنوا حياتهم للغد على الأقل... بالفعل هذا النوع من الأشخاص هم أشرّ البشر...
تدريجيا انقضى أكثر من ثلثي العدد وما بقي إلا عدد ضئيل تقريبا مئة وخمسون شخصا، لكن المعضلة الحقيقية أن أولئك الأربعة لم يهجموا مطلقا على أيّ شخص ممن خرجوا، إذن أهدافهم محصورة بين المتبقّين داخل الكهف...

بقي خمسون شخصا بعد خروج مئة الآخرين، إذا فنحن الدفعة الأخيرة، نعم أولئك الستة الذين لم ينهضوا مع هؤلاء الأربعة في بادئ الأمر أخرج منهم خمسة أشخاص بمساعدة من أشخاص آخرين ولم يبق غير الأربعة الواقفين وشخص آخر مستلق على الحائط فقط..
أخيرا تقدّمنا مع خمسين شخصا كمجموعة واحدة، والأخيرة كلنا حاملين أسلحتنا بدأنا نخرج تواليا عشرة... أشخاص مروا... عشرون شخصا مروا... ثلاثون مروا... بقي عشرون شخصا فقط، المتأخرين عن البقية في الخارج من العدد الإجمالي...

إبراهيم يخرج سالما فقد كان في صدارة المجموعة الحمد لله... حسنا سأسعى لأخرج سالما أنا أيضا...

بينما كنت أعجل من وتيرة خطواتي بشكل تدريجي لأرى ذلك الضاحك صاحب قناع الذئب ينقضّ بخفة لا نظير لها أولا قبل الثلاثة الآخرين على ذلك الفتى صاحب قناع الضفدع ليسقطه أرضا واضعا سكّينه على رقبته، تجمّدت في موضعي مراقبا ما دار بينهما بلا حراك، ليتحدّث له...

قائلا بلهفة القتل:

_يا صاح... أنت الذي يملك الغنيمة أكبر من كل المجموعة... أليس صحيحا...؟

قرّب رأسه ناحيته قائلا بصوت خافت مليء بالمكر:

_لقد لاحظت ما تخفيه في جيوبك، أنا دائما أحب الغنائم الكبرى ولا أرضى بغيرها وفي النهاية أكرهكم يا فئة الضفادع...

رفع رأسه عنه محافظا على وضعيته وذلك الفتى يحاول الفرار مقاوما بما أوتي من قوة لكن كان جده هباء منثورا...أدار بصره للشخص الجالس في الخلف قائلا له:

_أخبرني يا صاح... أذلك المتبقي صاحب قناع الضفدع مثلك... أمك أو أبوك؟

ثم تعالت ضحكاته لحد السقف قائلا بجنون:

_أتعلم لا يهمني أيهما يكون... لكنك للأسف لن تعيش حتى تراه يعدم أمامك... سأحرّرك من معاناتك...

أكمل ضاحكا:

_ألست رحيما مثل الجد... أخبرني...

ذلك الفتى حاول من جديد إزاحته بشتى الطرق لكنه لم يستطع لضخم جثة الأخير، علم أنه هالك لا محالة واستسلم لزخم القوة التي تعتليه

وحرّك رأسه ناحية الشخص الموضوع على الجدار... كل ما قاله كلمة واحدة:

_أمي...

برمشة عين طعنه في قلبه ذلك الضاحك مرارا وتكرارا ليفارق الحياة صامتا... ليغيّر مكان طعناته هنا وهناك في جسده، تناثرت دماؤه في كل أرجاء الكهف مع الصيحات الضاحكة المستفزة قائلا... أخبرني أني رحيم... أخبرني أني رحيم يا صاح... أخبرني...

أهذا يعني أن تضحية الرجل الأول بحياته لهما ذهبت هباءً منثورا من أجل لا شيء، كذلك الفتى ما أراد إلا النجاة بصحبة أمه ليوم إضافي فقط من يدي أولئك القتلة... بالطبع كلكم قتلة ولا فرق بينكم... صحيح أنتم تعيشون على أنقاض الأضعف منكم... هكذا تعيشون كأنكم في الغابة القوي يلتهم الأضعف منه... كأنّكم تجسّدون الغرائز الحيوانية المتواجدة في تلك الأقنعة من خلال الدّعس على إنسانيتكم... تبًا لكم جميعا يا أيها الوحوش...

كنت المتفرج الوحيد على ذلك المنظر البشع والباقي واصلوا سيرهم نحو الخارج كأنه ليس من شأنهم مساعدة الفتى... بالتأكيد تلك الصفات متواجدة في البشر وليس في أمثالهم...

بغفلة مني وقعت أرضا إثر ضربة أتتني من الوراء على عنقي لأقع مقبلا التراب، لكن بقيت عيني متعلقة على منظر الطعن المتكرّر لذلك الفتى لم آبه لنفسي، بل لمتها كيف لم أقم بإنقاذه كنت بمقربة له... لو علمت أنه مستهدف فديته بروحي... أنا كذلك مستهدف من أحد الأربعة... قلت بداخلي ريثما هو ساحب يده الممسكة بسكين لأعلى منزلها لجسمي... يا ترى هل سأموت مثل هذا الصغير... لم أحقق وعدا واحدا بعد من كل تلك الوعود التي قطعتها...

ارتخى الجسم الذي امتطاني ووقع بجانبي مفارقا الحياة إثر طعنة في ظهره أردته قتيلا في الحال... لأسمع صوتا يبدو مألوفا في ذهني...
مؤنب بصوت عال:
_تملّك نفسك... كدت أن تقتل يا أيها الأحمق...

حملني رغما عني للخارج مع البقية الذين كانوا ينتظرون بصفوف منظمة... تفطنت لأقول أنا أعرف صاحب الصوت إنه ذلك الرجل.. لقد أنقذني... كنت غائب الوعي وحاضر الجسد عقلي يطفو في السماء... كانت صدمة ذلك المنظر قوية بشدة علي حتى خذرتني كليا... ما الشعور الذي يناسب هذا الموقف الموضوع فيه حاليا، غضب لا ليس هو... حزن لا ليس هو...، حقيقة لا أعلم بما يمكنني التعبير، أصبحت مثل البئر الجوفاء الخالية من أي مشاعر...
ألقى ذلك الغراب صاحب الرقم ألف وأربعة عشر أوامره بتفقد الكهف وإحضار ما تبقى منهم الأحياء أو الأموات معا... تقدّم حوالي عشرون غرابا من فتحة الكهف... بعد دقيقتين.
تعالت صيحات الضاحك عاليا ليسمعها كل من كان على مقربة حاملا في يده اليمنى كمية ذهب تملأ كفيه على آخرها...
قائلا بغرور:
_اليوم كذلك حصلت على الغنيمة الأكبر... كم أنا شخص رائع يا صاح...
ليأتوا مباشرة خلفه ثمانية جثث أخرجوهم أولئك الغربان ومنهم جثة ذلك الفتى ذي قناع الضفدع والرجل صاحب قناع الخنفساء وكذلك أولئك الثلاثة القتلة كانوا عبارة عن جثث هامدة... بعدها مباشرة نطق أحد الغربان الصغار تبقى شخص على قيد الحياة... ليأتي به لمجموعتنا ويرمى بيننا غير قادر على الوقوف... عرفت هويته من شكل قناعه إنّها أم ذلك الفتى، صحيح أخبرني بمرضها لهذا لا تقوى على الحراك ولا حتى على تحريك رأسها...

حرّكت رأسها بصعوبة بالغة ونظرت ناحية الجثث المتراكمة فوق بعضها لترى جثة ابنها فوق جثة الشّخص الملقّب مراد كأنهما يحتضنان بعضهما البعض وملطّخين بالدّماء، مناظر فعلا تقشعرّ لها الأبدان... لم أعلم ما تخبئه من ملامح خلف قناعها فعلا لا أتمنّى أن يكون أي شخص مكانها... إنّها تتألّم وهذا مفروغ منه.

تمّ الأخذ من كلّ شخص الكمية التي بحوزته ووضعها في ميزان فريد من نوعه، لكن مصنوع بطريقة بدائية نوعا ما، مثل الذي في عالمنا... طريقة القياس أخذت قرابة العشرين دقيقة لغاية الوصول لتلك المرأة الملقاة على الأرض وتنظر اتجاه الجثث... بطبيعة الحال كانت هي الأخيرة من بيننا نحن تكلّم معه أحد تلك الغربان الصغيرة.

قائلا بعجرفة:

_أيّها الرقم... أخرج ما لديك من الذّهب... هيّا.

انتظر بضع ثواني لكن دون رد يذكر من المرأة، فقام برفسها وفي كلّ رفسة يأمرها أن تخرج ما لديها، لم تستجب... جثى على ركبتيه فاحصا له كل منطقة في جسدها...لم يعثر على غرام واحد من الذهب بحوزتها... قام قائلا أيّها الأكبر على الغراب صاحب الرقم ألف وأربعة عشر لا داعي للمقارنة بين هؤلاء الأرقام... لقد وجدنا ضالّتنا في هذا الرّقم ذي قناع الضفدع، هو من سيعدم اليوم أمام الملإ...

تمّ سحبها لأنها غير قادرة على الحراك كأنّها مجرد جسد لا يجيد غير التنفس من وراء ذلك القناع وأخذوها نحو منصة عالية جدا ارتفاعها لا يقل عن عشرة أمتار، كانت بالقرب من تلك المنصة التي وقفوا عليها في بداية اليوم...

علقت هناك وربط غرابان صعدا معها يديها بحبال خلف ظهرها ثم أخرج أحدهما سكينا حادة والآخر أمسك بقناعها محاولا نزعه عنها...

رأيت كل ذلك بلا إظهار ردة فعل واحدة وكلما صرخت روحي بداخلي قائلة أنقذها، جسدي أبى الانصياع لها وحتى لو أردت فعل شيء أو حتى مجرد التفكير يضغط ذلك الرجل على كتفي بيديه قائلا: لا تفعل...
أخيرا نزع ذلك الغراب قناعها ليفصح للعيان على وجهها... وجهها الذي كان باكيا بحرقة ويظهر عليه أنها صرخت صرخة لم يسمعها أي أحد، تلك الأنواع من الصرخات التي لا يسمع صداها غير الله..
كان نظرها حيث مكان ابنها والرجل مراد قائلة بصوت مبحوح مجهشة بالبكاء:
_ سآتي إليكما...

أما الآخر فقد مزق قطعة اللحم المدون بها الرقم الموجودة في جبينها بواسطة سكينه حادة وقدمها للآخر... مخلفا أثرا في رأسها يدل على أنها تحررت من كونها رقما... هي في الأساس كانت إنسانا ولم تكن غير هذا... لكنها تحررت من عبوديتها لكم أيها الحمقى... لكن ليس بهذه الطريقة الشنعاء كان يجب أن تموت على الأقل تبا لكم...
وضعت يديها على رقبتها دلالة على أنها تختنق بشدة، وتركوها بتلك الطريقة لتلقى منيتها... أما أولئك الاثنان فقد استمرا بالضحك على وضعية التوائها وهي تختنق حتى الموت... ثم ماتت ليقوم أحدهما بوضع قدميه عليها ويدفعها لتسقط جثتها من ذلك العلو لتقع فوق جثث البقية... وقعت فوق جثة ابنها والرجل مراد تماما ليجتمع لم شملهم، هم عبارة عن بقايا الظلم المتواجد في هذا العالم... كل ما مررت عليه اليوم من قبح المشاهد المتواصلة لا يقارن بذلك المنظر الذي جمعهم الثلاثة معا...

تملكني وجع هائل بداخل قلبي وتسارعت أنفاسي بشدة وشعرت بسخونة تتصاعد من أسفل قدمي... وضعت يدي ناحية صدري للضيق

الذي شعرت به... صحيح ما انفرد بقلبي هو شعور الندم... فبعد كل ما عايشته لحد الآن لم أقدم مساعدة كافية لشخص واحد وأنا كنت عبء على نفسي فلولا ذلك الرجل لقتلت.. عندما تمتلك الرغبة في مساعدة أناس مثل هؤلاء ولكن لا تمتلك القدرة الكافية وتبقى فقط متفرجا على موتهم بأبشع الطرق... ستصيبك الحسرة...

لقد وصلت ذروتي وتشوشت أفكاري وتعطلت مشاعري عن العمل لم أعد أعي ما حصل لي بعدها غير أني هويت أرضا... وأسمع ذلك الرجل قائلا لقد نفدت كبسولته على الظاهر من الأكسجين... اصمد يا فتى قليلا لن أدعك تموت... أدركت حينها وأنا أغلق عيني ببطء أنني سأغيب عن الوعي...أو ربما سأموت فعلا...

***

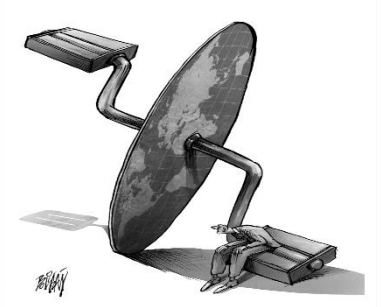

(9)
النشيد

صوت ظريف شق طريقه لأذني لأستيقظ جزئيا بفضله... يا فتى استيقظ... يكفيك نوما هيا انهض يجب أن تتناول بعض الطعام وتشرب قليلا من الماء ليبقى جسمك حيا وقادرا على مواصلة العيش للغد... فتحت عيني رويدا رويدا لأجد إبراهيم مقربا رأسه لرأسي على عينيه نظرة ترقب... فتحت عيني بالكامل لكنه لم يرفع رأسه وظل محملقا بي لبعض الوقت ثم رفع رأسه وأومأ بيده بعفوية مصدرا بضع أصوات خرجت من حلقه مثل الطفل الصغير ليخبر ذاك الرجل على استيقاظي بالكامل قائلا له:

_سمعتك يا بني...

حمل قنينة صغيرة من الماء بيد أما اليد الأخرى بها قطعة خبز قديمة تبدو غير صالحة للأكل... اقترب لي ووضع قطعة الخبز برفق على الأرض ثم قام بحمل رأسي للأعلى قليلا بيده ووضعها على فخذيه وأشربني بعضا من الماء قائلا:

_لا تقلق يا فتى ستكون بخير...

قلت له بصوت ضعيف:

_ما الذي حدث لي ألم أكن قبل لحظات في ساحة الإعدام الخاصة بهم؟!

قال:

_حسنا سأطلعك على كل التفاصيل التي يجب عليك معرفتها... لقد أغمي عليك في تلك الساحة... أحمد الله أنه لم يكن سبب سقوطك نفاذ الكبسولة الخاصة بك من الأكسجين... حينها كانوا سيأخذونك أتباع الحكومة مع باقي الجثث الملقاة ولم نكن لنتعب أنا وإبراهيم بحملك لهنا...

ثم أكمل قائلا:

_أتعلم لم أرى إنسانا حقيقيا مثلك يحمل مواصفاتك منذ أزيد عن سبع وعشرين سنة... لقد رددت جميلك فقط لهذا لا تشكرني...
قلت ضاحكا باستخفاف:
_إنسان... أتؤمن بهذه الكلمة حقا... ظننت أنك مثلهم من الذين ينعتون بعضهم بالأرقام... هززت جسمي قليلا لأعتدل في مجلسي وأكملت بعد تذكري لأمر مهم قلت متوسلا:
_ سمعت ذلك الفتى الضفدع يتلفظ بكلمة أثارت انتباهي وهي السكان الأوائل للقارة الأم... أخبرني هل أنت منهم ؟

أترجاك إن كنت منهم أخبرني ما تعلمه عن هذا العالم القبيح أنا متأكد أنكم ملمين ببعض الحقائق المهمة... أرجوك ساعدني يا رجل..
قال بصوت واضح:
_ أولا يمكنك مناداتي بعارف...ثانيا سأخبرك بكل ما أعرف وأنت ستخبرني عن من تكون، هل اتفقنا ؟
قلت متلهفا:
_ سأفعل...
قال مستذكرا الماضي:
_ حسنا... سأخبرك بالقصة من البداية... قبل سبع وعشرين سنة في أحد الليالي الهادئة كان هذا العالم ينعم بسكينة وطمأنينة خاصة في قارتنا الأم التي كانت هي مركز القارات الأربع من حيث موقعها الجغرافي وأكثرهم ثراء مما تحتويه على جميع الثروات... ذهب... ألماس...كل المعادن المتاحة... الثروات الباطنية بأنواعها... أخصب الأراضي... أعذب مياه جوفية المتوفرة بوفرة... أفضل موارد طبيعية متواجدة في القارات الأربع كانت لدينا... أذكى العقول... كنا شعبا نعيش الثراء الفاحش بعينه لأننا الأقوى لكن هذا جعلنا الشعب الأكثر كراهية من قبل الجميع، لكن ذلك لم يستمر طويلا وجاءت تلك الليلة المشؤومة التي هزت العالم أجمع

وأحدثت أسوأ كارثة في حق البشرية والتي نعاني بسببها لحد هذه الدقيقة... فجأة سمعنا دويا سحق أسماعنا جميعنا وانعدم الأكسجين تدريجيا وسقطت المباني إلا قليلا منها بقي ثابتا في مكانه وأصبح الجو كما رأيته مغطى بغيوم رعدية ذات حلة رمادية اللون ومات عدد هائل من أهل القارة خاصة في الجهة الجنوبية منها وانحصر الأكسجين في مناطق محددة فقط التي بها الماء وتجمع بها الناجون على ضفاف البحيرات من حطام تلك الكارثة ليلبثوا أحياء لكن مؤقتا فقط..

أتذكر كذلك أننا بقينا قرابة عشرين يوما في تلك المناطق نصارع للبقاء أحياء فمنا من لقى حتفه ومنا من فضّل قتل نفسه ومنا من اضطرّ لتجربة طعم اللحم البشري ليبقى على قيد الحياة، كانت أياما عصيبة لا تنسى... ما زاد الأمر سوءاً أن الأكسجين بدأ بالزوال مع مرور الوقت من تلك المناطق ليصبح العبء أكبر على أجهزتنا التنفسية... ظننا أننا هالكون بطبيعة الحال لا طعام يصلح للأكل إلا النهش من جثث الموتى أمامك التي أكلناها غصبا عن أنفسنا لأن وجع الجوع قاتل... استسلمنا كلنا وتقبلنا واقع موتنا بهدوء... حتى أتى إلينا جيش مكون من أشخاص يرتدون عباءات سوداء اللون وأقنعة على شكل غربان سوداء، في بادئ الأمر ساعدونا ووعدونا أن يخلّصونا مما نحن فيه وقدموا لكل عائلة مجموعة من الأقنعة على شكل حيوان فيها كبسولات تساعدنا على التنفس لمدة معينة من الزمن ليتدبّروا أمرنا فيما بعد، كانت تلك أكبر مؤامرة كاذبة في تاريخ البشرية...

بمرور السنوات أصبحنا مثل العبيد تدريجيا وخضعنا لهم ولقواعدهم الظالمة لأننا لم نستطع العيش بلا تلك الكبسولات التي يقدمونها إلينا، كانت هي مخدرات هذا العالم التي أدمنها أهل القارة... أصبح قتل بعضهم البعض للحصول عليها حدثا عاديا لا قانون يعاقب

عليه ما لم تنهك قوانينهم المعلنة... ثم اشترطوا علينا أن نعمل لصالحهم وهكذا نحصل على ديار قاموا ببنائها بحيث لا تهدم بغياب الأكسجين مثل باقي المباني... مع توفيرهم لنا الغداء والماء كذلك... لقد أقدموا على بناء مستعمرات يبلغ عددها ألف مستعمرة تقريبا في هذه القارة بحيث كل مستعمرة مسؤولة عن استخراج ثروة معينة أو تقوم بعمل محدد أما قانون الإعدام فإنه يتمشى على جميع المستعمرات بلا استثناء، صاحب أقل مردود يعدم... هذه هي الطريقة التي انتهجوها لمعاقبة سكان القارة خطأ واحد منك مهما كان صغيرا ستعدم...

قبلنا بلا اعتراض على كل مطالبهم مهما كانت، جل تفكيرنا كشعب يتم اضطهاده كان في الحصول على تلك الكبسولة اللعينة... وبعدها تم قولبتنا لفئات، وهو رمز يدل على رقم العائلة فبعد تلك الكارثة نجت قرابة ثلاثين ألف عائلة بالتقريب وهذا الرقم يوضع على الجهة اليمنى من الجبين لعزل كل عائلة على حدا والتعريف بها... انظر مثلا لجبين إبراهيم... لا أعلم سبب فعلهم ذلك، بالتأكيد هناك غاية خفية وراء هذا الأمر لكنها مبهمة لحد الساعة... الآن حرك ناظريك لذلك الرقم على الجزء الأيسر من جبينه المصاحب للرقم الأول والذي يفصل بينهما خط صغير، ذلك الرقم يعني رتبته في العائلة ككل منذ حصول الكارثة حتى اليوم... يشمل ترتيب سبع وعشرين سنة كاملة...

قلت:

_ إذا ابراهيم صاحب الفئة رقم مئة وثلاث وعشرين ذي الترتيب سبعة وستين في عائلته... يا لها من طريقة غريبة لفرز الأشخاص هي قريبة قليلا من الاسم وكنية العائلة، الاختلاف الوحيد نزعوا الحروف المتداول بها للتعريف بالشخص واستبدلوها بالأرقام كشيفرة تدل على صاحبها...

قد تستغرب لماذا الأشخاص من أمثالي ليس لديهم رقم خاص بهم.. ذلك حتى يتم التعرف علينا مباشرة فهناك قواعد يختص بها السكان الأوائل

للقارة وهي يتم إعدامنا جميعا عند بلوغنا الخامسة والخمسين فهم يمتلكون معلومات بالتفصيل على كل شخص منا... كذلك يحرم علينا تعليم أبنائنا القراءة والكتابة إلا إذا أراد التعلم بنفسه وهذا نادر الحدوث... صحيح كل أبناء هذا الجيل لا يجيدون شيئا يذكر ولا يريدون أن تنار عقولهم بالعلم والمعرفة اللازمة ليدركوا أن عليهم...

أكمل قائلا بأسى:

_على كل حال هم علموا هكذا منذ يومهم الأول قبل إعادتهم إلينا مجددا رافضين الانصياع لنا إلا القليل...

كذلك هم يجبرون الفتيان ذوو ثمانية عشر عاما على الزواج بشخص عشوائي حتى لا يتوقف نسلهم وبهذا هم يضمنون المزيد من العبيد لخدمتهم وحين يدركون أن امرأة في فترة الحمل يضعونها في منطقة محددة وتحصل على الكبسولات مجانا بلا عمل... حتى تضع حملها، مباشرة يؤخذ المولود ويسلم لوالديه بعد فترة خمس سنوات من الرعاية الخاصة وإعادة التأهيل على يد حكومة القارة... بحيث إن وجدوا والديه أحياء يقدمونه لهم حتى يتكفلوا برعايته ويعلمونه المزيد عن كيفية البقاء حيا... قبل تسليمه يأتي بعشر قضبان من الحديد نهايتها تنتهي على شكل أرقام مصنوع بحرفية عالية من الصفر لغاية الرقم تسعة وبعدها توضع في قدر به نار ذي حرارة مرتفعة جدا حتى تكاد تنصهر لتسحب جميعها ويتم تدوين الرقم الخاص بالطفل على مرأى من أعين والديه وهكذا تصبح تلك العلامة دائمة ولا يمكن أن تزول مطلقا كما حصل مع إبراهيم ابني...

أما الفئة من الأطفال التي لا تعثر على أبويها حين بلوغها الخمس سنوات بسبب أنهما قد قتلا فعلا... يتم تأهيلها لمدة عشر سنوات إضافية ثم يضعون رقما على جبينهم هم كذلك بنفس الطريقة البشعة، ثم يلبسونهم أقنعة على شكل كلاب ويرفق كلّ شخص منهم بكلب

يلقبه بأخي الأصغر وهذه الفئة بالذات لا تعرف معنى الرحمة على عكسك أنت... وقد رأيتهم على ماهيتهم الحقيقية مسبقا بالفعل...
أتذكر ذلك النشيد الذي صاح به جميع... تلك هي المحرمات الأربع وهي كالآتي:
_نحن شعب يعمل فقط لا مكان للتكاسل أو التخاذل ولا تهم حالتك مهمَا كانت... نحن أصبحنا مجرد أدوات لإخراج ممتلكات أراضينا بأيدينا لتقديمها لأولئك المتطفلين على قارتنا والذين نصبوا أنفسهم حكومة لهذه القارة المتداعية...
_الانتحار محرم تحريما قاطعا أيضا فأنت في نظرهم لا تموت إلا برغبتهم أو عندما يريدون ذلك فالانتحار قرار وهم يريدون أن يقرروا عنك... أنت لا تقرر كيف ستكون حياتك أو مصيرك أنت تنفذ ما طلب منك دون اعتراض... كذلك أنت أداة تساعدهم على تحقيق مبتغاهم كأن بحوزتهم تاريخ انتهاء الصلاحية الخاص بك... فإن قتلت لا بأس يقولون أن الجد قرر موتك... لكن إن أقدمت على الانتحار ستموت كل عائلتك المتبقين على قيد الحياة وبمعنى آخر ستكون سببا في انقراض نسلك...
_فكرة محاولة الهرب أيضا غير مقبولة ومحرمة فهذا يعتبر قرارا تتخذه بنفسك، هذا بنفسه سيؤدي لإبادة نسلك إن أمسكوك أو علموا بفرارك عنهم وفي كلتا الحالتين أنت ميت حتى لو تمكنت من الفرار سينفد الأكسجين الخاص بك وتموت بعد ساعات معدودة...
_أما بذكر موضوع الزواج فهو يكون فقط بين جنسين يمتلكان نفس لون العيون ومن المحرمات الكبرى الزواج بين زوجين يختلفان في لون العيون لأنهم حسب معتقداتهم يظنون أنهم يلوثون دماءهم وهذا نذير شؤم حسب كلام الجد...
هذه المعلومات يعلمها الجميع بلا استثناء وقد أصبحت في وعيهم الباطن محفورة فمن المستحيلات خدشهم لقانون واحد من تلك القوانين

المحرمة على كافة سكان القارة إن كانوا سكانها الأوائل أو من جيل الاختناق...

صحيح بقي أمر واحد سأطلعك عليه وهو يوم الجد العظيم لقد اقترب كثيرا وحين يحل علينا إن حافظنا على حياتنا ولم نمت ستعلم ما يكون يا فتى...

قلت مبهوتا:

_عقلي لم يستوعب هذا الكم الهائل من المعلومات الدقيقة دفعة واحدة لأنها فعلا غير منطقية من الذي سنَّ تلك القوانين هل هو الجد..؟

قال بصوت حازم مغيرا الحديث:

_لم أتكلم هكذا بكثرة منذ سنوات يكفيك عني...الآن دورك يا فتى لتخبرني من أنت أطلعني على قصتك كلها...

إنه يعلم سرا ما لكن فضّل تخبئته عني أنا متأكد... لا يهم سأخبره عن قصتي كاملة لن أخفي عنه ولو تفصيلا صغيرا.. أتمنى أن يصدقني ثم يقودني لحل لمشكلتي العويصة...

أطلعته على اسمي كاملا وسردت له قصتي كاملة من لحظة حصولي على عمل حتى حشري من قبل ذلك المعتوه لتلك المحمية وعن تلك الشجرة الضخمة ثم رميها لي في هذا العالم عند اقترابي منها أنا وآدم والملقب بعمر مع ذلك المقنع اللعين... كيف حتى فتحت عيني لأجد نفسي بينكم... صحيح خبأت عنه بعض التفاصيل عن المفتاح أيضا تلك القصاصة الورقية... لأنني شعرت أنه لا يمكنني البوح بهم بعد...

قال بتعجب:

_إذن قلت لي أنك كنت تعيش في عالم به الأكسجين في كل مكان... لو لم تكن فقط تحمل هذين العينين الزرقاوين ورأيت فيك سمات الإنسان الحقيقي بعد إنقاذك لي ثم تصرفاتك مع الغربان أو كما يلقبون بأتباع الحكومة القارة...

أكمل قائلا:

_كنت لأقول أنه أحد النبلاء الذين وصلوا عند مستعمرتنا بطريقة ما أو عن خطأ معين وحاول استعطاف عطفنا لكي لا نقتله لأنهم يجيدون التمسكن جيدا... كذلك هذا القناع الذي وجدته على وجهك أول مرة لا شكل له أثار فضولي... حسنا أظن إذن لا خيار لي غير تصديقك يا إياد...
ثم حملت قناعي ملاحظا رقمه الأيسر لأجد ستا وستين تملكني شيء من الفضول قائلا له:
_ أيها العم عارف إذا كان إبراهيم صاحب الرقم سبعة وستين من هو صاحب القناع الذي قدمته لي؟
قال بتهكم:
_حسنا يكفينا حديثا لليوم خذ قطعة الخبز الخاصة بك وتلك القنينة للماء واذهب لتلك الغرفة الفارغة هي لك وحاول أن تنام قليلا قبل صيحة الشيطان الأولى لتجد نفسك مستعدا للغد...

***

انتهى حديثنا على تلك الحالة مقررا مغادرة الغرفة والتوجه للغرفة المجاورة لحظة خروجي صادفت مع من نجمة وبقربها الضاحك واقفين خلف الباب يتنصتان على كلامنا خلسة... قال الضاحك ممازحا:
_يا صاح... لقد أعجبتني فكرة وجود أرض فيها أكسجين على الدوام، خذني إليها... أرجوك.
في طرفة عين تذكرت جميع الذكريات السيئة لدي بخصوصه من مراقبته وهو يقفز ضاحكا فوق جثث الموتى... كيف قتل ذلك الطفل بلا ذرة من الرحمة... إذ كان سببا رئيسيا في إعدام أمه المريضة أمام الملأ... قلت له مشتعلا بالغضب:
_تلك الضحكة على وجهك الأحمق تثير اشمئزازي...
مثل الغبي هجمت عليه بنية تفريغ غضبي عليه وتحطيم عظامه على فعلته الشنعاء والمبالغ فيها... لكن هيهات فقد كان متمرسا في الاشتباك

القريب، في لحظة انقلبت الدنيا على رأسي لأوجد محلقا في الفراغ حتى أدرك نفسي مثبتا في الأرض ورقبتي مثبتة حول قبضاته... ضغط بقوة على رقبتي حاولت دفعه عني لكنني لم أستطع فعلا هذا الشخص مثل الشاحنة لا يتزحزح من مكانه... قال باستخفاف:

_يبدوا أنه أصبح لدي سببا يردني عن قتلك الآن...

أكمل ضاحكا:

_أيها المعتوه... نحن لا نقتل بعضنا سداً نحن فقط نحاول النجاة للغد وهذا الأمر لا يمكننا تجنّبه لأننا مجبرون على القيام به وكل له أسبابه الخاصة ليقتل وطريقته الخاصة... أنا لن أكذب عليك يعجبني شعور غرس السكين في قلب الأرقام الضعيفة... خاصة إن كانوا من فئة الضفادع...

تعالت ضحكاته المنرفزة من جديد وهذا أمام مرأى ومسمعِ من نجمة التي ظلت تراقب بصمت كذلك العم عارف وإبراهيم لم يلقيا بالاً علينا، تأكدت أنهم لا يريدون التدخل فهذا الشخص يبدو أنه يصيبهم بالذعر لهذا يفعل ما يشاء دون أن يردعه أحد...

دام إمساكه لي لبضع لحظات على تلك حالة التي لا أحسد عليها محاولا تحريك يديه عن رقبتي حتى أطلق سراحي بنفسه قائلا:

_سأذهب لأنام... سأراقبك أيها النبيل تذكر ذلك...

أغلق باب غرفته بخفة بحيث صوت رطم الجدار بالأخير يكاد لا يسمع، وضعت يدي على رقبتي لأتحسّسها قائلا:

_تبا لك أيها الوحش كدت تقتلني...

سألتني نجمة قائلة بحزن قابع في وجهها:

_هل ما قلته صحيح عن أرض فيها الأكسجين بالمجان...؟

أجبتها بصعوبة لأن السعال أعاقني:

_كنت تسترقين السمع إذن... أكملت مع سعال بسيط صحيح تلك هي الأرض التي جئت منها أنا لا أكذب...

قالت بإيقان:
_أنت على حق ففي النهاية أنت نبيل... لقد ذكرتني ببعض الذكريات عند سماعي لحديثكم...
قلت لها محاولا سحب بعض الكلام منها:
_بماذا ذكرتك ؟
قالت بصوت يحن للماضي:
_ذكرتني أين كنت أعيش حين كنت مجرد طفلة صغيرة... السهول الخضراء والأكسجين بوفرة ومجانا مع الحيوانات الظريفة والنبلاء من أمثالك ذوي الأعين الزرقاء في كل مكان الأهم...
فجأة توقفت عند نطق كلمة معينة مبتلعة ريقها بعسر شديد مع تدافع بضع حبيبات لامعة مثل الكريستال من منبعيها... لتقول مطأطئة رأسها:
_ أ...م...ي... وأكملت قائلة... سأعيش كما وعدتك...
أردت سؤالها عن ما حصل لأمها لكنها رفعت رأسها عاليا وقامت بمسح دموعها على وجهها الملائكي وأردفت بصوت حاد:
_سأذهب لأنام احذر أن تقوم بإيقاظي وإلا سأقتلك لتعلم هذا... أردت فقط إخبارك أنني آسفة على ما قمت به لك صباحا، كان غباء مني وتهور... قد جرفتني مشاعر الكره والحقد نحو النبلاء لأسقطها عليك... أنت تبدو مثلهم ظاهريا لكن بداخلك مختلف عنهم فعيناك تحتوي على دفء خفي...

أغلقت هي كذلك باب غرفتها لأجد نفسي وحيدا أنظر فقط لغرفهم الساكنة... جال في عقلي الكثير والكثير من التساؤلات حول كل شخص منهم يا ترى ما نوع القصص التي يخبئها كل من عارف وابنه إبراهيم ونجمة وكذلك القاتل الضاحك...أتساءل كيف آلت بهم الأمور ليصبحوا بهذه الشخصيات المختلفة المعقدة؟

مضيت نحو غرفتي الفارغة منفردا بنفسي قليلا وأعيد ترتيب شتات أفكاري المبعثرة على آخرها... بينما أحاول النزول على الأرض لأرتاح من ثقل أسوء يوم مرّ على حياتي البائسة إذ سقط ذلك الكتيب الصغير الذي وجدته مع الزي حين ارتديته للمرة أولى... ارتخيت على الأرض لأفتحه لأنظر على محتواه...

قلبت الصفحات لأجد لغة غريبة وهي خليط بين كلمات اللغة العربية ولغة إضافية تشبه الجملة المدونة في القصاصة التي لدي... إذن هذه هي اللغة التي أخبرني عنها العم عارف والمحرم تعليمها لهذا الجيل... لا بأس سأحاول تفحصها لعلّي أجد ما ينفعني... قلبت الصفحات تواليا لم أفهم ما يرمز له كاتبه كلهّا بهذه اللغة المختلطة إلا بعض الكلمات المبهمة مثل ميليسا، الإعدام، العامود، الماضي، يضحك دائما ... يبدو أنه كان يسجل ما حدث له في أيام حياته... أو هذا ما استنتجته من فهمي الضئيل له ما أثار فضولي هو الصفحة الأخيرة من الكتيب حيث كتب خطابا كله باللغة العربية وذلك ما استطعت فهمه حيث قال:

_لا يهم من أنا... لا يهم ما أردت من هذه الحياة الجهنمية... لا يهم أي شيء بخصوصي بعد الآن فأنا شخص ميت حسب ظنهم، قد طمسوا هويتي بين جدران قمعهم لأصبح مجرد عبد ذليل ينصاع لأوامرهم المجنونة بلا تردد يذكر... لطالما أردت أن أكون حرا لكنهم لم يسمحوا لي وكسروا بداخلي ما معنى أن تكون إنسانا طليقا... تمّ استعبادنا من قبلهم وهذه هي الحقيقة المرة لأن حياتنا اليوم ارتبطت بهم للأسف الشديد وشئنا أم أبينا لا يمكننا فصلهم عنا لأن هواءنا بحوزتهم هم فقط... غدا سأبلغ الخامسة والخمسين عاما، هو الحد الأعلى المسموح لسكان القارة الأوائل عدم تخطيه لأننا نصبح في نظرهم مجرد عبء بعد ضعف أجسامنا الهزيلة... سأعدم غدا... لن نسامحك أيها الخانق لأخذك

هواءنا منا وجعل حياتنا جميعا أسفل نعال هؤلاء المتطفلين... سننتظرك جميعا في الحياة الأخرى لنقتص منك... أتمنى أن يغرقك الجد بعذابه الأليم..

قلت مخاطبا نفسي:

_تشتتت أفكاري أكثر من ذي قبل بسبب هذا الخطاب المباغت... من يكون هذا الخانق من أين ظهر هو الآخر...؟ فعلا علامات الاستفهام أصبحت لا تحصى بداخل عقلي...

وضعت الكتيب الصغير على حذا ووضعت يدي على شعري ماسحا إياه برفق متمنيا أن أرجع لعالمي بطريقة ما في أقرب وقت إن أمكنني ذلك... حسنا لأحظى بقسط من النوم مثل البقية وبعد سويعات قليلة سأرى ما يمكنني فعله لأنجو...

***

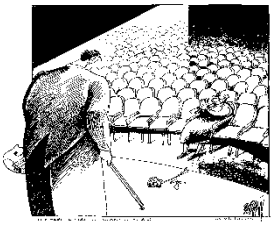

(10)
الحياة أو الموت

لم أنم كفاية يا قوم يكفيكم دقا على هذا الخشب الموصد...
أريد أن أنام لمدة أطول فقط قليلا بعد... حين الانتهاء من قول تلك الجملة خلع الباب بقوة من موضعه إثر ركلة قوية لينتج صدى ألبس نعاسي العاري ثيابه... استيقظت مذعورا ألتفت في كل نواحي الغرفة لأعلم صاحب هذه الفعلة إنه إبراهيم.. اقترب ناحيتي مشيرا لأذنيه بسبابته فورا فهمت ما مقصوده... إنها صرخة الشيطان لقد أوشك موعدها، تلك الصرخة الصاخبة يجب أن أحضر نفسي على الفور...
بضع دقائق كانت كافية لأجهز نفسي ذهنيا لما سيحدث تاليا من أحداث مجنونة... ينبغي أن أتخطى هذا اليوم حيا، لا أتقبل حقيقة موتي هنا أريد أن أموت في عالمي...
خرجت حاملا خنجري بيد وقناعي باليد الثانية لأجد كل المجموعة في انتظاري على أهبة الجاهزية ويترقبون فقط التحاقي بهم للمضي صوب المجهول... اقتربت ببطء باتجاه العم عارف محدقا في ذلك الضاحك بعين تفيض حقدا وكراهية خصيصا له قاطع نظراتي قائلا مع ضحكته المعهودة:
_يا صاح لا تنظر لي بهذه الطريقة سأبلل ملابسي الداخلية...
وسط هستيرية ضحكاته العالية التقطت أذناي كلمات تفوه بها العم عارف، سمعتها بوضوح قالها بخوف رغم محاولته تغميدها ببعض الحزم:
_إياد... سنكون مستهدفين لحظة بزوغنا للخارج أتمنى أنك مطلع على ذلك... أنا وأنت وإبراهيم لأننا نرتدي نفس الأقنعة ونفس الفئة..
قلت له مع ابتلاع لعابي:
_ذلك الذي يرتدي قناع الكلب صحيح... أتمنى ألا يصادفنا في طريقنا اليوم حقا...

قال ضاغطا على أسنانه:

_لا يمكننا قتله لأننا بهكذا فعل سنعلن الحرب على حكومة القارة ولا يمكننا الهرب منه كذلك لأن مجموعته دائما متواجدة خصيصا نظير مستعمرتنا أما الخيار المتاح فهو...

قاطعته قائلا بصوت مرتفع:

_لن أقبل بالموت بين يديه... لدي مسؤولياتي الخاصة التي تحثني للبقاء على قيد الحياة حتى أخرج من هذا العالم الفظيع، إن لزم الأمر سأقتله بكلتا يدي لأدافع عن نفسي ثق بهذا...

قال معاتبا بصراخ:

_أحمق... إياك ومجرد التفكير، إذا كانوا على دراية على ما يدور في رأسك الآن ستقع في معمعة أكبر منك... بعض من السكان الأوائل طرأت عليهم هذه الفكرة قبلك وكان مصيرهم أسوأ من الموت نفسه فقد أخذوا لأسوء مكان في القارة ليعذبوا ويكلّل بجثثهم شر تنكيل وهم موتى...

تدخلت نجمة في حديثنا قائلة:

_يكفي تجنبه قدر المستطاع فكما نعلم جميعا لا يمكنهم ملاحقتنا إلا لمسافة معينة...

قال عارف:

_هذا ما أردت إخباره به لكنه قاطعني ظنا منه أنني سأوافق على موتنا... إياد صحيح أننا أصبحنا عبيدا لكن لكل شخص منا لديه مسؤولياته الخاصة كذلك، لا تقلق من شأننا أيها الغبي...

قلت متأسفا:

_أستسمحك عذرا على انفعالي غير المبرر...

قالت نجمة بصوت عال:

_إنها آتية، ليرتدي كل شخص قناعه ويضع كبسولاته... استعدوا أيها الأرقام...

تأهبت كما كان الحال ليثقب ذلك الصوت أذناي مجددا لكن ليس مثل المرة الأولى قد أكون تعودت عليه بعض شيء فقد سمعته البارحة ثلاث مرات متتالية... فتح الباب الرئيسي انطلقت نجمة والضاحك قرّرت المضي خلفه حتى مدَّ عارف يديه مشيرا إلي بالتمهل كذلك إبراهيم قد فهم الأمر بلا كلمة من والده خاطبني قائلا:

_سنكون آخر مجموعة تتجاوز الباب الرئيسي المؤدي لخارج المستعمرة، أظن أن شهوته بسفك دماء الأرقام الباقية في مصلحتنا أريد تشتت عقله عنا لنخلق فرصة تسمح لنا بالمرور أحياء...

قلت له:

_ أتفق معك... سنتريث ريثما تحين فرصتنا بالمرور...

مضت سبع دقائق كاملة كانت كفيلة بمرور الجميع للمقدمة، انطلق إبراهيم ثم تبعه والده قائلا:

_سنتحرك... اتبعنا...

سرنا بنسق متسارع لنصل صوب الباب الرئيسي لنجد كتلة من جثث الأشخاص ملقاة بين جوانب الطريق منهم المقتول إثر طعنات سابح في دمائه ومنهم من يصارع ليبقى حيا بالدفاع عن نفسه لكن هذا بلا جدوى وعند كل جثة يقف كلب وأخوه الأصغر واضعا مخالبه ليثبت هيمنته ربما... يبدو أن معظم الناس قد واصلوا سيرهم لأنني لا أرى أي شخص في الأفق لأن الطريق المؤدية لمكان العمل خاوية لا كائن يتحرك بها...

بينما نحن الثلاثة نركض بصفة مستمرة والذي يتقدمنا إبراهيم حتى وثب عليه شخص فجأة من خلف كتلة الجثث ليقع أرضا... لقد هُوجم بواسطة شخصنا المنشود... صاحب قناع الكلب ذاك

يبدو أنه كان ينتظرنا طول هذه المدة... سحقا خطتنا باءت بالفشل، رفع سكينه الحادة وهو ينادي بغضب:
_سأقتلكم أنتم الثلاثة أيها الفئران... كيف تتجرؤون على قتل أخي الأصغر... سأنحركم جميعا لا مهرب لكم مني اليوم...

صعد فوقه ووضع إحدى يديه على رقبته محاولا تثبيته وخنقه في آن واحد أما يده اليمنى كان مشهراً بها خنجره يريد غرسها في جسده... كانت تفصلني عنهما مسافة ثمانية أمتار تقريبا علمت أنني لن أستطيع تداركه بينما كنت أحاول الزيادة من سرعتي لتتحرك عيني يسارا إثر استغاثة رنينها مألوف، رأيت مشهدا لم أتوقعه مطلقا... خاطبت نفسي هل أعرفها... تلك المرمية هناك... إنها تتلقى الركلة تلو الركلة من قبل ذلك الوحش... عقلي كان يستوعب كل ما يدور حوله بسرعة جنونية تلك صاحبة قناع الفراشة... إنها نجمة لا ريب في ذلك... مشهد الأمس الذي قمت به قد أعادته اليوم، لقد قتلت أحد تلك الحيوانات البشعة وما كان من أخيه الأكبر كما يعتقدون إلا الاقتصاص منها فورا...

توقفت عن الركض باستقامة لأعدل من طريقي السابق متجها لنجمة التي كانت تتألم من أثر ذلك العنف الممارس عليها وتناسيت إبراهيم الذي كان سيقتل لولا العم عارف الذي كان متقدما علي بأمتار... من حسن الحظ أنه وصل له بطريقة ما قام بدفعه وطرحه أرضا لينقذ ابنه من شفير الموت المحتم... عند بلوغي لنجمة قمت بدفعه بواسطة كتفي بدوري لأطرحه أرضا هو الآخر...
قال لي مزمجرا:
_أيها اللعين... سأقتلك...
نهض من مكانه كأنه لم يسقط أبدا... أزاح ثقل جسمه كله في تلك السكين الفولاذية التي لوح بها ناحيتي، أمسكتها بصعوبة بيدي الاثنتين

ولولا هذا لاقتلعت حياتي من جذورها... واصل دفعه بكل ما يستطيع باتجاه صدري، أنا بدوري واصلت الرجوع للخلف قلت:

_تبا... يا لك من وحش قوي...

ما زاد الطين بلة أنني تعثّرت بجثة شخص قتيل كان مطروحا خلفي لم أره لرداءة الطقس المعهود لهذا العالم مع انشغالي برفع سكينه بعيدا عني... وقعت ووقع فوقي ما أضاف ثقلا جديدا على سكينه... أوقفته بصعوبة بالغة عند صدري تماما... لو زاد مليمترا واحدا لطعنتني سكينه...

لا أحد يساعدني هنا... فأنا أجهل ما صنع ذاك بكل من إبراهيم ووالده قد يكون قتلهما وهذا ما لا أتمنى وقوعه لا أسمع صدى في ناحيتهم... نجمة لا تستطيع تحريك جسدها من التعنيف الذي تلقّته من طرف هذا الحقير الذي لا يسعني ردعه أكثر من ذلك... هل سأقتل يا ترى؟

قلت مجبرا نفسي على المقاومة:

_لا يجب أن تموت... لديك وعود عليك الوفاء بها... ليس هنا...

خاطبني ذلك المتوحش:

_ستموتان على...

فجأة ارتخى فاقدا الوعي بالكامل توزع وزنه على كل أطرافه ليقع فوقي جثة هامدة فارقت الحياة... لحسن حظي أنني أمسكت سكينه ورميتها بعيدا عني بينما يقع...بعدها دفعته بكل قوتي، أخيرا قمت بإزالته تماما من طريقي... سمعت صوتا يقول لي:

_يا صاح... لقد قاومت بضراوة الوحوش... أحسنت...

سألته:

_هل أنت من أنقذني ؟

قال ضاحكا:

_دعني أخمّن هويته... أنا بالطبع أيها النبيل

حركت جزئي العلوي من جسدي برمشة عين بلا معرفة هوية منقذي لأنني تذكرت إبراهيم والعم عارف اللذين كانا يتصارعان مع الشخص الآخر لأجل إنقاذ حياتهما من قبضته لأشاهد العم عارف يقوم بمساعدة ابنه للنهوض... أكملت تتبع أثر ذلك الشخص بواسطة عيني لأجد أنه قد نحر بالفعل غارقا في دمائه التي تتوزع في الأرجاء مثل النافورة...

قال ذلك الضاحك بخبث:

_أتعلمون... أنتم جميعا مدينون لي بحياتكم.

قلت له فزعا:

_أنت بهذا الفعل قد أعلنت الحرب على حكومة القارة...

قال ضاحكا:

_لا يهم لأنك ستخرجني من هذا العالم أيها النبيل...

أكمل ضاحكا وهو ينزع سكينه من ظهر ذلك الكلب المقنع... أيها النبيل يتوجب علينا الإسراع قبل انطلاق الصرخة الثانية وإلا سنقتل على يدي رواد الحكومة...

نهضت لأجد كل أولئك الكلاب يراقبوننا بتمعن دون الإدلاء بأي ردة فعل تذكر فقط يستمرون بالتحديق بنا كأنهم يسجلون بأعينهم ما يحدث بالتفصيل من أجل إطلاع حكومة القارة على هذا التحدي الذي دخلنا فيه كلنا مع بعض مع كوننا الطرف الخاسر في المعادلة مسبقا...

قال بلهفة:

_سأسبقكم يا صاح...

تناسيت كل أفعاله لوهلة قلت له:

_ماذا عن نجمة إنها مصابة لا يمكنها الركض مثلنا...

قال ضاحكا:

_يمكنك حملها على ظهرك لكن احذر أن تطعنك...

انطلق الضاحك مهرولا وتبعه كل من إبراهيم وأبيه، صحيح قد تفطنوا لخطورة الوضع الذي وُضعنا في داخله حتى يتابعوا سيرهم بلا التفات لنا حتى... اقتربت منها قصد حملها انحنيت على ركبتي لأضع وزنها عليه لأستطيع التقدّم سلفا... بالكاد قالت لي بضع كلمات لكنني التقطت ما تفوهت به قالت:

_لا تلمسني...

قلت لها:

_سأنقذك ويتحتم علي حملك رغما عن أنفي.. هيا إن الوقت يداهمنا لا وقت لدينا...

حملتها برفق وسعيت أن أصل قبل إذاعة الصرخة الثانية... ركضت وركضت بأقصى ما أملك لم أهتم بطريقة تنفسي العشوائية... أضافت خفقان الرعود رعبا ورمادية السحب الكئيبة ثقلا أثقل مما أتحمل كأن السحب تلعن هذا العالم بدوي أصواتها المختلفة وممسكة أمطارها... أكملت لقد وصلنا لهذه المدينة المنهارة كدنا نصل... تمسكي جيدا بي حتى لا نقع هل سمعتني يا نجمة... بعد دقائق من الركض لاح في الأفق ذلك الباب الكبير... واصلت المضي قدما... انطلقت تلك الصرخة قلت فزعا:

_سنعلق في الخارج...

حاولت تخطي حدود جسمي واصلت الركض بكل ما أملك لأنه كان خياري الوحيد لأجد مجموعة من الغربان الصغيرة خرجوا من العدم ممسكين سكاكينهم العفنة، صاح أحدهم لدينا أول كبسولتين لليوم...

سأصل... أرفض الموت هنا... كلمات كنت أعيدها في عقلي لأزيد من سرعتي تدريجيا... فعلا هذا التشجيع مكنني بأعجوبة لأتخطى الباب الرئيسي بشق الأنفس...

ارتطمت أرضا بعد دخولنا التعسفي داخل الساحة لأنهض وأتسلل لأحد الصفوف القريبة... لازمتني نجمة خلف ظهري مثل حقيبة الظهر حتى انتهوا من نطق النشيد الخاص بهم والسخرية منهم كونه مجرد أرقام... دخلنا لداخل الكهف المعهود حيث وضعتها في خلف الكهف مكان أم ذلك الفتى تذكّرت طريقة إعدامها البشعة البارحة قائلا لها:

_لن يصيبك ما أصاب تلك الأم بالأمس... أعدك...

طلبت منها عدم التحرك لتنال نصيبا من الراحة لتستعيد قواها أما فيما يخص كمية الذهب قلت لها أنني سأتقاسمها معها قريبا، الحقيقة ذكرتني في أمي غير القادرة على الحراك... قلت لها مثلما أخاطب أمي الحبيبة:

_لا تقلقي... سأبذل جهدي اليوم...

بدأت العمل بهمة كبيرة لأوفر أقصى ما أستطيع من الذهب المحطم حتى أتجنب ما خسف بكياني البارحة... لن أتحمل سقوط الأشخاص من حولي كأنهم أوراق أشجار يهوي بها فصل الخريف حتى لو لم تكن علاقتنا طيبة فيما بيننا سأساعدها... سأقدم جل ما أملك لتحقيق هذا الهدف... تذكّرت هل هناك مجموعة تسرق عمل الضعفاء مثل البارحة... أدرت رأسي لأجد نجمة وحدها هناك ثم حركت رأسي يمينا لأنظر لإبراهيم يعمل بصعوبة أما عارف حاله حال ابنه... الحمد لله ارتاح قلبي على الأقل يمكنهما التحرك ثم أدرت رأسي للجهة المعاكسة انتبهت على الضاحك إنه يعمل بجد لكنه صاخب كالعادة بضحكاته بكلماته المستفزة قائلا:

_أتحداكم جميعا أن تفوزوا علي... سأتخطاكم جميعا...

لقد أنقذ حياتنا جميعا وهذا على غير عادته أنا متأكد مما أقول لو أراد الخروج من هذا العالم معي لأنقذني أنا فقط لماذا أنقذ كذلك العم عارف وإبراهيم؟

ثم لماذا هو يعمل بكل تلك الطاقة والحماس فعلا أمره يثير الريبة، لكن هو في النهاية شخص غريب الأطوار أظن أنه يمتلك انفصاما في شخصيته المعقدة أو شيئا من هذا القبيل...

مضت أربعة عشر ساعة من العمل المرهق كأنها فقط ساعتان أو ثلاثة... لقد أنتجت كمية معتبرة من الذهب أكثر من عشر غرامات حسب اعتقادي أظنها ستكفينا لننجو كلانا أو لنأمل ذلك... حسنا لقد أنهيت عملي، حان الوقت لأذهب لنجمة لأضع لها نصيبها من كمية الذهب في جيب سترتها... فعلا أعطيتها ما تيسر ثم جلست بقربها لأقوم بحمايتها ممن ينتهكون حياة الذين لاحول لهم ولا قوة...
الصرخة الثالثة هي الإشارة المسموح لنا عندها التوقف عن العمل... توقف الجميع عن العمل عند خروجنا على درجات متفرقة مثل البارحة كنت في الدفعة الأخيرة لأنني أسند نجمة علي حتى أساعدها على الحراك... بينما نخرج بتمهل وحذر سألتني بصوت به شيء من الحياة:
_لماذا... لماذا أنت تساعدني على الرغم من محاولتي السابقة في قتلك؟
أجبتها ضاحكا:
_إن لم أساعدك أنا فلا أحد سيساعدك... لأن مجتمعكم أناني... ثم هذه أحد مبادئي تقديم يد العون للجميع...

التزمت الصمت لأننا صرنا قبيل الساحة وهي المكان التي يمنع علينا الكلام فيها إلا بإذن الغربان... حيث قال الغراب صاحب الرقم ألف واثنان... اليوم لن أقوم بإعدام صاحب أقل كمية إنتاجية منكم بل سنعدمه غدا حسب قوانين الحكومة لأننا اليوم قمنا بإمساك شخص يستحق الإعدام أكثر من أي شخص، بالمناسبة الشخص بينكم والذي لن يعدم اليوم سيؤخذ ليعدم في أقبح مكان يمكنكم تخيله لكن غدا...

انظروا أيها الأرقام... ثم تقدم صوب منصة الإعدام ويرتقي لها ليظهر لنا شخصا يرتدي قناع بومة مكبل اليدين والساقين... أكمل قائلا بعجرفة:
_أتعلمون من هذا... إنه أحد الثوار الذين يعارضون حكومة القارة، قطعا يتجرؤون على الوقوف في وجه الجد وقراراته... خسئتم جميعا...
أطعمه بعض من ركلاته ليأتي به أرضا أكمل:
_هؤلاء عبارة عن مجموعة إرهابية صغيرة تظن أنها يمكنها خلق الانقلاب على جدنا... أنتم تستحقون الإعدام لآخر شخص فيكم يا حثالة جنسكم من الشاميين... مخاطرتك بنفسك ووصولك لهذا القرب عند سور المستعمرة ليس عبثا هناك غاية جئت لأجل تحقيقها وأنا أشم رائحة الخيانة بخصوص هذه المستعمرة جئت لتبليغ أحد الأرقام رسالة محددة أليس كذلك... أكمل قائلا هو ممسكا رأسه أعطني الأسماء المتواجدة في رأسك حينها سأعدمك بالطريقة التقليدية وأريحك...
نطق ذلك الشخص بأقصى ما لديه:
_المقاومة تأتي بالحرية... تبا لك ولجدك أيها الحقير...
انفجر ذلك الغراب غضبا وقام بنزع قناعه بشكل عنيف عنوة على مرأى منا جميعا ثم أخذ منه بصره بعدما غرس سكينه مرتين في وجهه قائلا:
_كيف تتجرأ على نعت الجد بهذه الكلمات... ستقتل...

قام برفسه ليسقطه على خشبة المنصة آمرا الغربان الصغيرة التي معه على المنصة بطعنه حتى الموت... وهذا ما حصل حتى رأينا دماءه تتقاطر من أعلى المنصة تنهمر علينا كأنها قطرات مطر تبلل أقنعتنا بلونها الأحمر... فارق الحياة ومات بطريقة لا يستحقها أي شخص مهما كان صنيعه كبيرا ثم قام بتمزيق الرقم المتواجد في جبينه وأخذوا قناعه ثم قذفوا جثته لتسقط على الأرض حتى سمعنا صوت تحطم عظامه بوضوح...

قرابة الخمس دقائق أتت عربة يجرها حصان أسود اللون كثيف الشعر غير مرتب ذو عينين سوداوين يضع قناعا شفافا يحتوي على كبسولة كبيرة الحجم يركبه أحد الغربان الصغار مهمته الأساسية نقل كمية الذهب التي يتم استخراجها كل أسبوعين ليأخذها لمكان هو أدرى به... لا أعلم ما حاجتهم لاستخراج موارد هذه القارة ونهبها لصالحهم بالرغم من امتلاكهم لأهم مورد على الإطلاق وهو الأكسجين...

كلنا سنموت يوما ما بطريقة معينة لكن أن تموت وأنت متمسك بكونك إنسان حقيقي أفضل من كونك تموت ذليلا... الفرق بينهما هو كيف ستجد طعم الموت حلوا أو مرا في نهاية المطاف، أشفقت عليه هذا صحيح لكن موته ترك انطباعا إيجابيا بداخلي لأنني أدركت حينها أن الفطرة الإنسانية لم تنقرض بعد في هذا العالم المجفف... صحيح قد تكون خُلعت من أبناء هذا الجيل لكن على الأقل تلك المجموعة لم تمت روحهم المتعطشة للحرية...

***

(11)
ميليسا

بعد هذا اليوم الحافل بالأحداث عدنا لمستعمرتنا وللمكان الذي يمكن أن نطلق عليه اسم المنزل دخلنا من الباب المفتوح على مصراعيه... هذا المنزل الذي سحب منه الأكسجين سيتم ضخه مجددا بعد الصرخة الرابعة عندما يغلق المخرج وهذا تجنباً لعدم هدره...

دخل مباشرة وراءنا شخص غريب يرتدي قناعا على شكل سلحفاة مرتديا زيا أخضر مسودّا مثل الذي نرتديه قائلا:

_ لقد أرسلتني حكومة القارة للمقر ذي التشفيرة ألفين وعشرة التي مدونة فوق الباب لأن هناك غرفة شاغرة بها بعدما أعدم صاحبها قبل ثلاثة أسابيع من يومنا هذا...

إذا هذا بروتوكول يقومون به لملأ الأماكن الشاغرة عند إعدام السكان الأوائل... قلت الويل له لقد أتى ليأخذ مكاني إلى أين سأذهب بنفسي الآن يا ترى...قاطع تفكيري الضاحك قائلا بخبث:

_ يا صاح لقد كنا بانتظارك منذ زمن طويل...

اقترب منه ووضع يديه على كتفه تعال سأعرفك على المجموعة قائلا:

_هذا عارف وولده والأخر إياد والتي مستلقية أرضا هناك تكون زوجته نجمة وأنا لا يهم يمكنك مناداتي بما تشاء...

أكمل قائلا وهو يضحك:

_ هناك مشكلة صغيرة يا صاح، إياد وزوجته متخاصمان لهذا كل منهما سينام في غرفة منفصلة وللأسف لم تتبقّ غرفة شاغرة في الأرجاء ولأنني رحيم سأسمح لك بأن تنام معي هذه الليلة حتى يتصالحا وتستلم غرفتك...

قال ذلك الرجل:

_ حسنا لكن لليلة واحدة...

قال بخبث شديد:
_ ستكون كافية...

انصدمت مما سمعت واحمرت وجنتاي فقط مجرد التفكير يجعلني خجلا جدا نجمة زوجتي هذا لا يصدق لأنها تكره أمثالي يا له من غبي يتفوه بما لا يدري أنا أردت أن أرد عليه كلامه لأن نجمة سمعت كلامه بالفعل ولا أعلم ما ستترجمه في عقلها... أمسك العم عارف يدي وضغط عليها فهمت أنه يريدني أن أصمت ولا أتدخل..
أغلق الباب الخارجي بإحكام مانعا تسرب الأكسجين تماما وضخ الهواء من تلك الأنابيب الضخمة تدريجيا حتى أمكننا نزع تلك الأقنعة وجلسنا نتناول قطعة الخبز المعطاة لنا مع قنينة صغيرة من الماء من أفراد الحكومة... صحيح نحن جائعون وعطشى طول الوقت لكن هذا أفضل من لا شيء يكفينا لنستمر غدا...

دخل الضاحك مع صديقه الجديد لغرفته وأغلق الباب إبراهيم الذي كان منهكا خلد للنوم مباشرةً، حملت أنا والعم عارف نجمة وضعناها في غرفتها.. كانت كل أنحاء جسمها متورمة من الضرب الذي تعرضت له فوضع لها العم عارف مرهما أحضره من غرفته وأمرها باستخدامه ليجعل حالتها أفضل...
قلت لها:
_ إن احتجت أمرا ما يمكنك إصدار صوت وسيأتي لأجلك العم عارف... وأكملت بصوت خجل بعض الشيء... أو أنا...
أشار العم عارف لي بعينه كي ننصرف ونتركها بمفردها... نهضنا وعندما تخطينا باب غرفتها متوجهين إلى غرفتي سمعتها تقول بصوت باهت:
_ شكرا لك...

لم أعلم كيف أرد عليها.. بالفعل أخرجتني عن طوري.. لمست رأسي بيدي اليمنى وعلى وجهي ابتسامة بلهاء:

_ لا بأس، ثم أنت من أصررت على العيش لسبب ما يخصك وحدك لهذا كان من واجبي مساعدتك... أضفت قائلا بلا انتباه مني.. سأساعدك دائما...

خرجنا وأغلق العم عارف باب الغرفة لنسير ناحية غرفتي وحين دخولنا لها بدت علامة الرضا على وجهه وقال:

_ أتعلم يا إياد، كلما أراك في الخارج مرتديا ذلك القناع وتتصرف على ماهيتك كإنسان أشعر بسعادة بالغة... أظنك لاحظت بعض الأشياء منها الغاية من ارتدائنا الأقنعة فقد صنعوها بعد انقراض معظم الكائنات الحية... من أجل أن يخلقوا مفهوما جديدا للغابة لكن متبوعا بنمطيته قديمة وهي الغابة التي يسكنها البشر على شكل حيوانات، ويبقى قانون الغابة القوي يأكل الضعيف سائدا لكن بيننا نحن البشر هذه المرة...

ما قاله صحيح تماما فقد أدركته منذ ساعتي الأولى في الخارج... آسف على ما يحدث لكل البشر هنا، عندما زيفوا الحقائق عليهم سمموا عقولهم بالأكاذيب وألبسوهم تلك الأقنعة مع نقش الأرقام متسلسلة على جباههم جردوهم من حقهم في أن يكونوا بشرا حقيقين أصبحوا كالمسوخ القريبة لكونها حيوانات تحركها غرائزها فقط... وبهذا أفراد حكومة القارة الأم حققوا غايتهم على أكمل وجه...

قلت له:

_ أردت سؤالك ثلاثة أسئلة أيها العم عارف...

قال بانتباه:

_ إذا كان لي علم سأجيبك طبعا...

قلت له:

_ من يكون الخانق ؟

قال بغير تعجب:

_ إذن لقد ترك صاحب غرفتك السّابق بعض الترهات... حسنا باختصار شديد يقولون أنه السبب في كون هذا العالم عديم الأكسجين وهو أخطر مجرم في العالم كذلك والإشاعات تقول أنه اختفى قبل سبع وعشرين سنة وآخرون يقولون أنه قد قتل منذ زمن، لكن بالرغم من هذه الأقاويل حكومة القارة لم تيأس من الوصول إليه ويقولون أنه يملك شيئا بالغ الأهمية والخطورة يمكنه تغيير العالم أجمع على وجه الخصوص ...

أجبته مستهترا:

_ إذن هذا سر كرههم له... أظنها شخصية خيالية نسجها أحد أفراد الحكومة حتى يحملوها اللوم لما وصل له سكان القارة من عبودية..

أكملت أيها العم عارف:

_ لماذا إبراهيم لا يستطيع الكلام؟

تنهد ثم قال بحزن شديد:

_ لقد شاهد أمه عند تأدية واجبها تقتل أمامه من قبل أحد الكلاب وخلف له ذلك عدم القدرة على الكلام من هول ما رأى...ثم قال قاطعا لأي استفسار مني ما سؤالك الثالث؟ أجبته، عن الضاحك ما قصته؟

قال بجدية:

_ لقد لاحظت إذن... حسنا سأخبرك لكن سيبقى بيننا هذا الكلام

أجبته:

_ بالتأكيد

قال بأسى:

_ اليوم إن لم تخني ذاكرتي فهو الذكرى الرابعة عشر لخسارته زوجته وابنته الوحيدة...

قلت بذهول:

_ هل كان لذلك المعتوه عائلة؟

قال مشفقا عليه:

_ للأسف الشديد، نعم...

أكمل قائلا:
_ كل أهالي المستعمرة من عاش لليوم ولم يمت يعلمون جيداً قصته فقد كنا شهوداً عليها جميعا، حياته مأساة... عند بلوغه الثالثة من عمره في تلك الليلة التي اختل فيها نظام العالم ليصبح بلا أكسجين، قُتل والداه أمام عينيه على وقع تحطم أحد المنازل ليصبح جزء من الأنقاض المتراكمة فوق بعضها البعض، عمره الصغير للغاية وتلك الصدمة كانت كافية لتسبب له خللاً حاداً في التعبير عن مشاعره بحيث أنه كان يضحك أمام جثتي والديه بغرابة..
جميعنا نعرف كيفية التعبير عن مشاعرنا بالضحك والتفاؤل في الأوقات السعيدة والحزن والبكاء في الأوقات التعيسة والغضب في الأوقات الحرجة... كلنا يمكننا ذلك إلا هو لا يمكنه التعبير عن مشاعره إلاَّ بطريقة واحدة وهي الضحك...
لا تغتر بضحكته لأنها لا تدل على أنه مستمتع بوقته بل من المحتمل أن تجد في طياتها حزنهُ... غضبهُ... فرحهُ... لا يمكنك تمييز ما يشعر به مطلقا لهذا أنا لا ألومه على أفعاله...

بعد تلك الحادثة عثر عليه أحد الأشخاص الذي كان يجمع الأطفال أمثاله ليقوم برعايتهم مقابل العمل لصالحه بأعمال كانت ظُلماً على أطفال بمثل عمره لكن لا خيار آخر ملكهُ حينها من أجل توفير كبسولة الأكسجين... عند بلوغه سن الخامسة عشر هرب من ذلك الرجل لأنه علم بأنه يقوم بتقديم أطفال من أمثاله لحكومة القارة مقابل حصوله على كبسولات الهواء...
لم يعثر على مأوى يحميه حتى وجدته الغربان وعنفوه بشدة حتى كاد يلفظ أنفاسه الأخيرة على أيديهم القذرة ثم حملوه ووضعوه في تلك الغرفة التي هو متواجد فيها الآن ثم قاموا بتسجيله كأحد أتباع هذه المستعمرة...

مضت عدة أشهر بعد ذلك لتنتقل فتاة من أجمل فتيات القارة الأم أسمها ميليسا بأمر من الحكومة الأم لتقطن بجوار غرفته، كانت ترتدي قناع النحلة وعندما نزعته تمايل شعرها بني اللون وبزغت عيناها السوداوان وبشرتها كأنها القمر بدرا قصيرة قليلا ذات قوام جميل الشكل دائمة الابتسام ومتفائلة... ما كان له إلا أن أحبها من أول نظرة، الطفرة الحقيقية لم تستهزئ من ضحكاته كباقي السكان أو تتجنبه لأنه مثير للشفقة... قالت له في إحدى المحادثات:

_ ضحكتك جميلة مثل روحك النقية...

كان وقع تلك الكلمات أفضل ما حصل له في كل حياته حسب علمي... حاول التقرب منها بشتى الطرق لكنه كان خائفا أن تقابله بالرفض حتى جاءت هي بنفسها بعد إغلاقه المتكرر للباب بقوة طالبة منه إغلاقه بهدوء...استجاب لها بعدها توطدت علاقته بها بينهما خطوة بخطوة حتى زادت القرابة بينهما فقد تقبل أحدهما الآخر بكل محاسنه وخاصةً عيوبه.. دامت علاقتهما لفترة الأربعة شهور تقريبا حتى قررا الزواج، الأمر الذي أذهل كل سكان المستعمرة وكما هو معروف تم الزواج بينهما بالفعل، بعد سنتين علمت ميليسا بحملها فتركت الضاحك وحيدا حتى تضع حملها كما تنص القواعد وبعد مرور تسعة أشهر رزقا بفتاة صغيرة حيث قيل أنها أجمل من أمها حتى...

عادت إلى زوجها ليستمرّا بصمود أحياء معا حتى ترجع ابنتهما لحضنيهما لكي لا تصبحِ من كلاب الشارع الجامحين... مضت خمس سنوات بالفعل وقد تجنبا الموت كليهما والجلي بالذكر أن ميليسا قد ذاع صيتها كالمرأة الأكثر جمالاً في القارة...

ومن الصدفة أن يكون يوم إرجاع ابنتهما لكنفهما نفس اليوم الذي ينتظره كل سكان القارة وهو يوم الجزاء الكبير... في هذا اليوم لا تسمع

صرخات الشيطان بل تسمع صرخة انفجار قوي للغاية أقوى من الصيحات وإن اجتمعت معا هكذا نعلم إشارة حلوله مع إشارات إضافية تعلمنا عنها الحكومة...

وهو اليوم الذي تصبح فيه القارة متخمةً بالأكسجين على آخرها بحيث يمكن للناس الخروج دون ارتداء أقنعتهم أو وضع الكبسولة الخاصة بهم.. ببساطة يتصرفون مثل البشر العاديين و يقومون بالاحتفال طيلة اليوم ومنه من تتسنى له فرصة اختيار زوجة له والكثير من الأشياء الإضافية الممكن حدوثها. أنت تفهم ما أعنيه بما أنك زاولت الحياة في عالم به الأكسجين دائما ولا ينفذ..

تملكهما السرور الشديد لأنهما ظنَّا بأن ابنتهما فأل خير عليهما وعلى كل القارة، ارتديا أفضل ما يملكان من ملابس لهذه المناسبة وانتظرا بجانب المقر الذي يعيشان فيه، المقر ألفين وعشرة... انتصف اليوم وسكان القارة سعداء ويحتفلون بلا توقف لكن ابنتهما لم تجلب لهما بعد، نظر الضاحك في الأفق متأملا... ما حدث كان مصيبة بمعنى الكلمة رأى جيشا كبيرا من الغربان يفوق الثلاثمئة منهم كلهم مدججين بسكاكينهم ضحك قائلا:

_ أليس هذا اليوم هو يوم السلام الخاص بنا؟ لماذا هم هنا وما الغاية من مجيئهم !

توقف الناس عن الاحتفال واصطف معظم الناس على جانبي الطريق بلا أي حراك، في مقدمة ذلك الجيش شاهدنا رجلاً يضع قناع الغراب به عينين حمراوين وكان لباسه مريشا بشكل مبالغ فيه باللون الأسود يدل على سلطته التامة على البقية أما ما يلفت الانتباه أنه لم يملك أي رقم على قناعه... نظر لي العم عارف وقال أتدري من كان ذلك الشخص ؟

_ أجبته قائلا:

_ القائد الأعلى للحكومة!

أجابني:

_ لا القادة العليا للقارة أرقامهم من واحد للعشرة هذا الشخص أعلى منهم منزلة... إنه عمود القارة الأم...

سألته:

_ ما مهمته؟

قال بغضب:

_ مهمته أن يذيقنا ما نحن نعاني منه الآن... مهمته أن يذرف الدم في وجوهنا بدل الدموع... هو الحاكم المطلق للحكومة ولكل بوصة من القارة... ذلك اللعين...

أكمل لقد تقدمهم جميعاً مما سمح لنا برؤية فتاة صغيرة ذات الخمس سنين نائمة بين يديه... ممّا جعلنا نجزم أنها ابنة الضاحك وميليسا بكل تأكيد، وصل عندهم ليبدأ الضاحك بالضحك بقوة لرؤيته ابنته لأول مرة وهي بين أحضان العمود... تحرك شوقا ليمسكها ويشم ريحها ويداعب شعرها... توقف في مكانه حين تحدث قائلا مشيرا لميليسا:

_ هل أنت أمها ؟

أجابتهُ بتردد:

_ نعم أنا أمها...

قال باستهزاء:

_ إذا فهذا المعتوه زوجك؟

التزمت الصمت لكن تكلمت عينيها بدلا من لسانها لتبعث له بنظرة تهديد صريح له...

قال بتعجرف:

_ ما بال تلك النظرات... أنت لا تريدين أن أثقب عينيك الملائكية... أتدرين مكانتك يا أنتِ...

أكمل:
_ صحيح ما سمعته عنك إذن... أنت بالفعل أجمل مخلوق رأته عيني طيلة حياتي... من تغنوا بجمالك لم يخطئوا البتة...
واصل حديثه قائلا بغرور:
_ كنت أريد قتل ابنتك إن لم ينل جمالك إعجابي أتعلمين... يبدو أنها ستنجو حقا ولكن إن نفذت شرطي الخاص... تابع قائلا ستأتين معي لتصبحي زوجتي وستنقذين ابنتك وذلك الأحمق...
ازدادت ضحكات الضاحك أكثر من السابق عند سماعه ما تفوه به العمود كان يريد قول حديث ما لكنه لم يستطع من شدة ضحكه المستمر... نظرت إليه... ميليسا بشفقة لأنها تعلم أنه يبكي بشدة خلف ضحكاته ففي النهاية هي أكثر من يفهمه في هذا العالم...
أرادت الصراخ عليه رافضة طلبه لكن لم يكن لها خيار مطروح يمكن أن يجمعهم كعائلة واحدة ما كان عليها إلا الرضوخ لطلبه فهي تعلم خطورة ذلك الرجل كذلك لا تريد أن تشهد مقتل ابنتها التي انتظرتها لخمس سنوات كاملة أمامها فتعيش نادمة طوال حياتها، نظرت لزوجها قائلة ودموعها تسيل:
_ لطالما حميتني من الموت طيلة تلك السنوات، حان الوقت أرد لك جميلك يا زوجي العزيز... لتعتني بابنتنا ولتسميها علياء... سأحبكما دائما يا أغلى ما أملك... أنتما كل حياتي...
تحركت للأمام ببطء وأمسك زوجها يديها لتلتفت له باكية قائلة:
_ اتركني... سأذهب... سيقتلكما أتوسل إليك دعني أذهب...
زاد من ضحكاته ليسمعها كل شخص في تلك المستعمرة... أمر العمود بالهجوم عليه ليتقدم غرابان كانا خلفه مباشرة أبرحاه ضربا حتى وقع أرضا بلا حراك، كادَا يقتلانه حتى أوقفهما العمود بأمرٍ من عنده وأمر ميليسا بالإسراع بالتقدم وإلا سيجهز عليه... انصاعت لأوامره بلا تردد وهي تنظر لزوجها باكية تردد كلمة واحدة:

_ سأنقذك... سأنقذك...

وصلت للعمود أمسك يديها ليتغنى بجمالها قائلا:

_ جمالك خلاب يا زوجتي الجديدة...

أمر غُرابان آخران بأخذها خارج المستعمرة فأخذاها بعيدا أمام ناظري زوجها وهو يرفع يديه نحوها كأنه يريد إمساكها لكن هذا مستحيل لأنها ابتعدت حتى تحميهما وفي قرارة نفسها تتأسف على تلك الأيام التي كانت ستحظى بها لولا المصيبة التي ألمت بهم جميعا دفعة واحدة...

استمر الضاحك في إطلاق ضحكاته التي اشتدت أكثر من السابق...

قال له العمود بازدراء:

_ أنت فعلا مزعج... لأنك عكرتَ صفوي لهذا سأضع لك شرطاً إن نفذته سأقدم لك ابنتك التي بين يدي وإن رفضت سأقتلها أمام ناظريك... حسنا ترجاني لأبقيها على قيد الحياة تذلل حياة ابنتك...

حاول القيام لكنه لم يقو على ذلك فازداد ضحكاً رافعًا يديه باتجاه ابنته النائمة...

قال العمود بنبرة غاضبة:

_ إن لم تتوقف عن الضحك وتترجاني سأقتلها حالا...

أدار جسده صوبهُ وقام بإحناء رأسه ليسجد له على الأرض وضحكاته المتفجرة مستمرة... لم يعلم العمود بأنه يترجاهُ لكن بطريقته الخاصة فهو لم يتمكن من الكلام من هول ما حدث معه واكتفى بالضحك بقوة كما لم يضحك من قبل...

في لحظات من الانحناء والضحك غير المنقطع ظنا منه أن ابنته لن تقتل... سمع صوت ارتطام جسم بقربه، سكنت ضحكاته ومعه سكن الجو لوهلة وعم هدوء قاتل، الهدوء الذي يسبق العاصفة... رفع رأسه بروية ثم نظر نظرة تشبه نظرة القتيل المستسلم لقابض الأرواح وهو ينتزع روحه... شاهد متمعنا كيف أزهرت سكين العمود الذهبية في قلب ابنته فاقدة الوعي سلفا وكيف كانت تطفو في دمائها...اقترب منها

واحتضنها مع ضاحكا تلك الضحكة التي غرست في عقولنا لليوم.. تلك الضحكة التي كان سماعها موجعا لنا... تلك البنت الصغيرة التي انتظرها خمس سنوات ليحتضنها... حين احتضنها كانت مفارقة للحياة، أراد تأسيس عائلة صغيرة لكن جبروت العالم القبيح رفض أمنيته... ثم اقترب خمسة أشخاص عاديين كانوا من العامة وقاموا بركله مجتمعين بقوة وهو يعانق ابنته القتيلة ضاحكا بلا توقف حتى بلغت قهقهاته عنان السماء وقال أحدهم طالبا رضا العمود:

_ يا صاحب السمو نحن عائلة قناع الضفدع سنلقنهُ درساً من أجلك..

نظر لهم مشمئزا قائلا:

_ أنا أكره الضفادع...

استدار هو وجيشه وهموا بالرحيل من تلك المستعمرة، تاركين تلك المجموعة تقوم برفسه حتى أغمي عليه وهو يحتضن ابنته الميتة...ثم قام أحد السكان الأوائل الذي وجدت كتيبهُ في غرفتك حين كان على قيد الحياة بإدخاله للداخل لأنه كان يقطن معه منذ زمن ويعرفه حق المعرفة.. قدم يد المساعدة له فعالجه ورعاه... دفن ابنته لتكون الدفينة الأولى في هذا العصر... أطلعه على مكان قبرها عندما استقرت شخصيته على ما هي عليه اليوم...

أجبته منبهرا:

_ تعني بقولك أنه كان شخصا مختلفا في الماضي غير الذي نعرفه اليوم ؟

أجابني متأسفا:

_ نعم كان شخصا معتدلا رفقة زوجته... إنه لم يتزوج بشخص غصبا عنه مثل باقي أهل المستعمرة بل قيل أن علاقته مع ميليسا كانت أول علاقة تبنى على الحب الحقيقي في عصرنا الحالي... لكن تلك الحادثة غيرته ليصبح وحشا...

أول مرة أحسست بالشفقة تجاهه فعلا على الرغم من كونه قتل العديد من الضعفاء أمامي... بالطبع أي شخص سيصيبه الجنون لو كان مكانه

وتجرع ما تجرعه، علمت لماذا الجميع لا يردون عليه ليس خوفا منه بل شفقة على حاله وهو يعلم ذلك حسب اعتقادي لهذا يتصرف بهمجية...

***

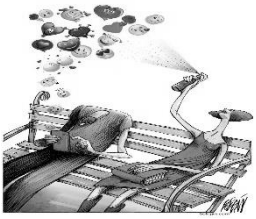

(12)
أنا أحبّك

خلد الجميع للنوم لكنني لم أستطع إغماض عيني لأن قصة الضاحك جعلتني أرجع خطوة للوراء وأعيد تنظيم طريقة حكمي على أهل هذا العالم، صحيح الأفعال الظاهرية مهمة تعطي تشخيصا مبدئيا، لكن الخطأ الأكبر هو جعل ذلك التشخيص يحدد طريقة تعاملنا معه بشكل دائم...

بقي أقل من ساعتين لتنطلق صرخة الشيطان الأولى ولم أنم بعد فقد أصابني الأرق، لأخرج وحدي وأجلس أمام باب غرفتي... متأملا في ذلك المخرج الموصد بإحكام الذي لا يسمح حتى للأكسجين بالخروج منه، كلنا عالقون داخله... متسائلا كيف أمكنهم احتمال العيش في هذا السجن الكريه ووفق قواعدهم الظالمة طول هذه المدة... أكان حقا ثمن حريتهم الدائمة يساوي كبسولة هواء مؤقتة المفعول؟

ساعة مضت كأنها دقيقتين لأشعر بكل من إبراهيم ووالده يخرجان على أهبة الاستعداد وبعدها بلحظات تبعتهم نجمة مرتدية قطعة قماش على جبينها والتي كانت في حال تسر الخاطر فقد استعادت قدرتها على التحرك، ليست كما السابق لكن على الأقل هذه دلالة تريح البال قليلا...

سألها العم عارف:

_ يبدو أنك استعدت بعضا من طاقتك، هذا مطمئن يا بنيتي...

قالت:

_ هذا كله بسبب مرهمك السحري لقد حسن من حالتي كثيرا...

نظرت إلي فجأة بابتسامة صغيرة فأدرت رأسي للجهة الأخرى لأخفي خجلي منها...انتهت تلك اللحظة العفوية حين خرج كل من الضاحك وصاحب قناع السلحفاة، تفاجأنا جميعا إلا العم عارف حين وجدنا عليه أثار انتفاخ مزرقة في وجهه وبالكاد استطاع الوقوف على قدميه لأن

وعيه كاد يتركه جثة هامدة... لكن الضاحك أمسكه وأجبره على التحرك متزامنا مع تحركاته قائلا له:

_ يا صاح... تمالك نفسك هل لي أن أذكرك نحن لعبنا قليلا البارحة لأننا لم نتوصل لاتفاق يرضي كلينا... أتبع هل تريد اللعب مجددا؟

حرك رأسه نافيا وأخرج صوتا لم يفهمه أحد منا... لقد أوسعه الضاحك ضربا حتى أنساه كيفية الحديث... قال له العم العارف بحزم:

_ ما ستقدم عليه سيكون جريمة وعقابها إعدامك...

أجابه بضحكته المعهودة:

_ لا ضرر في اكتساب بعض الوقت قبل التفتيش الشهري الذي مازال عليه ثلاثة أسابيع من اليوم...

قال عارف:

_ إذن ستغير قناعك بقناعه لكي تجعله كبش فداء لك...

قال الضاحك:

_ أحسنت القول يا صاح... كذلك أنا لست غبيا لأقتل اثنان من الكلاب هكذا فقد، كنت على دراية مسبقا بأنهم سيرسلون شخصا جديدا ليحل في تلك الغرفة فكما تعلم هم يرسلون شخصا جديدا كل ثلاثة أسابيع تقريبا من إعدام أمثالك أيها العجوز...

قال العم عارف:

_ لقد حصنت نفسك جيدا وقمت بدراسة الوضع، أعلم أنك لن تقوم بتضييع فرصة قتل أحد أتباع الحكومة فكلنا نعرف حقدك عليهم جميعا...

أتبع قائلا:

_ عليك أن تفكر بطريقة للنجاة من أيديهم قبل يوم التفتيش الذي يقومون بمقارنة رقم القناع مع الرقم المنقوش على الجبين...

قال بضحكة تعلوها نظرة خبيثة للعم عارف:
_ أنا أفكر في شأن هذا الوضع جيدا أيها العجوز...

***

لم يبق الكثير على صرخة الشيطان جهزنا جميعا أنفسنا بارتداء أقنعتنا ووضع كبسولات الأكسجين داخل الأقنعة مع حمل السكاكين الخاصة بنا... بعد دقائق أعلن عن تلك الصرخة لنتوجه نحو المخرج الرئيسي كان الضاحك خلفنا يجر ذلك الشخص رغما عنه لعدم استطاعته المشي بسبب الضرب الذي تلقاه...
مررنا من الباب الرئيسي سالمين متفادين الكلاب لأنهم جميعا حين رأوا ذلك الشخص الذي ألبسه الضاحك قناع الذئب هجموا عليه ليجعلوه قتيلا ممزقا لأشلاء. مما سمح لنا بالفرار بسهولة، لكن أبطء شخص بيننا العم عارف لقد تلقى ضربة خلعت كتفه الأيسر من مكانه بواسطة أحد الكلاب الذين حاولوا اقتناصه عند رؤيته لكن من حسن حظه أن ازدحام سكان المستعمرة الذي تولى فجأة فصل بينهما ليهرب بأعجوبة...
أكملنا طريقنا نحو مكان العمل بعد الصرخة الثانية وأداء نشيدهم الخاص توجهنا ناحية الكهف للعمل، أخفى العم عارف إصابته عنا لأننا عند تقدمنا عنه لم نشاهد ما وقع له، مقرراً العمل بيده اليمنى متحملاً ألما لا يطاق...
حين كنت مركزا على العمل كان أمامي شخصان مرتديان أقنعة على شكل يعسوب ذي الفئة ثلاثمئة وستين وأرقام تسعون وواحد وتسعون.. مباشرة علمت أنه أب وابنه خاطبه الأب خلسة قائلا:
_ بعد أربعة عشر شخصا يعدم من الآن سيأتي يوم الجزاء الأكبر حسب توقعاتي أريد منك المحافظة على حياتك، حينها يجب أن تتوجه للباب الرئيسي ستجد أشخاصاً يأخذوك إلى مقر الثوار...
رد عليه متنمرا:

_ حسنا، فهمت ما تريد مني القيام به، لا داعي لتكرار هذا الحديث في كل مكان يا أبي سيكتشفون أمرنا...
توسعت حدقتا عيني لأتذكر قائلا:
_ أليس هذا اليوم الذي أخبرني العم عارف البارحة... سيأتي بعد أسبوعين إذن...

تابعت عملي دون لفت الانتباه لأنني ادعيت عدم استماعي لم قالاَه، كما هو الحال انتهينا من العمل بعد خمسة عشر ساعة شاقة بعد سماعنا الصرخة الثالثة وبعد مقارنة كميات الذهب... لم يعدم أي شخص من مجموعتنا وأعدم شخص يرتدي قناعا على شكل قرد ونزع قناعه مع قطعة جبينه الجلدية آخذين الرقم المدون عليها ودافعيه بأرجلهم القذرة ليسقط على الأرض وهو يختنق ويفارق الحياة كسابقيه...
فهمت أحد أسباب فعلهم هذا الفعل الشنيع وهو لكسر عزيمتهم في الحياة وبالخصوص السكان الأوائل ليجعلوهم مثل جيل الاختناق المبرمج مسبقا لا رغبة تذكر لديهم في المقاومة...
أذن لنا بالرحيل بعد استبدال الكبسولة شبه الفارغة بكبسولة جديدة مع أخذ قارورة ماء وقطعة خبز لا تشبع حتى فئران الأرض...

رجعنا للمأوى الخاص بنا حيث أغلق علينا الباب المؤدي للخارج مجددا انحصرنا كالفئران في ذلك الجحر الصغير لكن كان هناك اختلاف صغير في تلك الليلة لأن أنابيب الأسطوانة الأربعة التي من المفروض أن ينبعث منها الأكسجين حتى نتمكن من خلع أقنعتنا بحرية أصبحت ثلاثة منها فقط تبعِث الأكسجين أما التي فوق غرفة العم عارف و ابنه أصبحت تطلق ماءً لمدة دقيقة تقريبا ثم يتوقف أربع دقائق وتتوالى هذه السيرة حتى الصيحة الأولى...

ذهب العم عارف ليزيح من الأرضية قطعه حجر على شكل مربع كانت مثبتة هناك ولم أعر لها اهتماما لتظهر حفرة تحت الأرض أظنها المجاري إن لم أكن مخطئا...اقترب الضاحك تحت من الأسطوانة، إنه من المقرف الاستحمام كل عشرة أيام مرة فقط... ضحك قائلا:

_ أحب قتل الضفادع لكن أكره رائحة الدماء...

ظل على تلك الحال لمدة ساعة تقريبا بينما نحن تناولنا قطعة الخبز وشربنا بعض الماء... جلسنا قبيل بعضنا لنتبادل أطراف الحديث، اختفى إبراهيم داخل غرفته ولم يخرج منها بقينا نحن الثلاثة العم عارف ونجمة أما الضاحك فكان يستحم بملابسه ويغني قائلا:

_ سأراك طيفاً في أحلامي... سأراك طيفاً في أحلامي...

لم نعره اهتماما. يخلع العم عارف الجزء العلوي من زيه لنجد بعض الكدمات على كتفه الأيسر، كيف لشخص بمثل عمره أن يتسم بوجه كهذا لا يدل على أنه ينازع الألم الرهيب تساءلت كيف استطاع تحمل هذه المعاناة دون الإفصاح عنها؟ ألا يشعر بألم...

أجابني ممسكا كتفه محاولا إعادته لمكانه:

_ لقد تأملنا في الماضي كثيرا أما ونحن على مشارف النهاية لم نعد نشعر بأي شيء، غير ألم الكبرياء الذي لا يزول حتى إذ مضى الدهر كله...

قلت له بذعر:

دعني أساعدك... أمسكت يده التي كانت شبه ميتة محاولا إرجاعها لمكانها لكنني لم أستطع ذلك.

جاءت نجمة من خلفي وقالت:

_ تنحى قليلا، سحبت يده حتى استقامت وقامت بدفعها مرة واحدة حتى سمعنا صوت طقطقة العظام مع بعضها البعض وهذا دل على أنها أخذت مكانها...

نظرت إلي وقالت:

_ تنقذ الناس من الموت ولا يمكنك إعادة خلع كتف بسيط لمكانه يا له من تناقض موجود فيك...

أجبتها باستحياء:

_ للأسف... أنا لا يمكنني احتمال رؤية الأشخاص المقربين مني يعانون، وأحد مخاوفي الكبرى التي عشتها في الماضي هو عدم تقديم المساعدة الكافية لمن أحب والاكتفاء جالسا متفرجا كما حصل لي مع أمي وأبي...

أجابتني بنوع من الفضول:

_ ما بهما؟

قلت لها مفضفضا:

_ أبي حين كنت طفلا صغيرا أصيب فجأة بشلل في كافة أنحاء جسمه ووضع في مستشفى للأمراض العقلية، أنت لا تفهمين ما أعني... على كل حال أما أمي فقد كانت تمشي باستخدام العصي لكنها فجأة هي الأخرى فقدت القدرة على المشي نهائيا وأصبحت مقعدة...

قالت لي:

_ أتمنى لهما الشفاء العاجل...

غاصت في زرقة عيني لوهلة من الوقت لتقول مغازلة لعيني:

_ أنا أمقت عينيك الزرقاوين لأنهما تذكراني بتلك الفئة الطبقية التي تقتات على الأضعف منها لكن لن أنكر، بداخلها نور دافئ يجعلني أنسى لونها، حين أنظر إليهما أتذكر أمي...

من شعور الخجل الذي اكتسح وجهي المحرر من الفضول عن ماضيها، نظرت للعم العارف الذي كان ينصت لنا بشغف وعلى وجهه علامة الاكتفاء بنا أومأ لي برأسه سامحا لي أن أسألها، قلت لها:

_ نجمة هل يمكنك اطلاعي على قصة أمك المخفية ولماذا كذلك دائما تضعين تلك قطعة القماش على جبينك ولا تزيلينها أبدا؟

وضعت يديها على قطعة القماش البيضاء الملفوفة على رأسها قائلة:

_ أضعها دائما لأنها آخر ذكرى لأمي لي قبل فراقي لها... أما عن أمي...

هنا قطعنا الضاحك قائلا بضحكته المعتادة:
_ أيتها الملاك، إنه دورك للاستحمام
قالت:
_ سأذهب لأستحمّ ثم سأنام مباشرة لا أريد سماع الضجة وإلا قتلت صاحبها!
ذهبت نجمة لتقف تحت الأسطوانة لننتظر تساقط قطرات الماء عليها، قال العم عارف:
_ هذه الفتاة بالفعل رائعة يا إياد صحيح أنها تخفي ماضيها لأمر تعرفه هي لوحدها لكنها تكيفت بسرعة في هذا العالم القاسي... خمس سنوات كانت كافية لتصبح أهلا من القارة الأم...
أجابته بدهشة:
_ أليست من جيل الاختناق وترعرعت على قواعد أبناء الحكومة كباقي أهل المستعمرات المجاورة؟
قال:
_ لا هي مثلك تماما، جاءت كما جئت أنت لا تعلم شيئا عن هذا العالم وقواعده ومع مرور الوقت أصبحت فردا منا...
قلت في نفسي وأنا أراقبها:
_ إذن هيا مثلي تماما، يجب أن أعلم ماضيها بأي ثمن لعلي أعرف بفضلها الطريقة التي تقودني للديار...
هنا خرج إبراهيم حاملا ورقة بيضاء اللون وقلما خشبيا مطليا ببعض الحبر متوجها لأبيه مشيراً له بإصبعه لأن ينظر للرسمة التي رسمها، كانت رسمة بدائية فيها ثلاثة أشخاص على شكل دائرة وبضعة خطوط علمت أنها تدل على أمه الراحلة وصورة لطفل آخر مجهول الهوية بالتأكيد ليس العم عارف وهو رسم نفسه الطفل الأصغر واقفا بينهما ممسكا بيديهما...
جاء صوت ضاحك من خلفنا يقول:

_ إبراهيم يا لك من موهوب لقد رسمت عائلتك بطريقة رائعة...
ابتسم إبراهيم للضاحك ووضع الضاحك يديه على رأسه ضاحكا معه يلاعب شعره... أمسكه والده وسحبه بجانبه قائلا بنبرة حادة:
_ لا تضع يديك عليه وإلا أرديتك قتيلا يا هذا...
رفع الضاحك كلتا يديه في الهواء قائلا:
_ حسنا... حسنا يا صاح... لن ألمسه أبدا لكن سيكون هناك مقابل لا تنس أنت مدين لي بحياتك وحياة ابنك وكما تعلم لا يوجد شيء في عالمنا بالمجان، أو تريدني أن أتكلم أمام هذا النبيل عن حقيقة..
قاطعه صارخا في وجهه:
_ يكفي لا تتكلم بالمزيد لنذهب لغرفتي ونتكلم هناك رجلا لرجل...
قال الضاحك بضحكته الخبيثة:
_ هذا يناسبني جدا...
انتفض العم عارف من مكانه ليتجه مسرعا لغرفته ولحقه إبراهيم حتى يريه تلك الرسمة التي رسمها ووضعها أمامه محاولا إظهارها له لكن العم عارف سحبها منه ثم رماها أرضا وهو يقول لابنه غضبا:
_ أبعد رسمتك الغبية عن وجهي...
هنا تبعه الضاحك قائلا لي:
_ لا تظنني نسيتك يا صاح... لأن دورك قادم بعده...
دخلا الغرفة ليغلقها الضاحك ببطء شديد كما يفعل دائما بلا إصدار ضجيج بتلك الطريقة الاستفزازية...أما إبراهيم فقد كان حزينا للغاية حركت ركبتي لأحبو نحوه محاولا تحسين حالته النفسية قائلا له:
_ دعني أرى ما رسمت أيها الرائع...
لم يزل حزنه فقلت محفزا له للتخفيف عنه:
_ سأفعل ما يخطر في بالك لتكمل رسمتك لأنها ناقصة حسب نظرك أليس كذلك...

أومأ برأسه إيجابا ليقترب مني ويأخذ تلك الورقة من يدي مشيرا أسفل أولئك الشخصيات الظريفة علمت أنه يريد كتابة بعض الكلمات تحتها لكنني أجهل لغة هذا العالم أعرف فقط بعض الكلمات المعترف بها باللغة العربية هنا...

سألت نجمة والتي كانت تنتظر تساقط الماء لتستحم:

_ من بعد إذنك هل تعرفين لغة هذه القارة...

قالت دون أن تلتفت إلي:

_ أنا مثلك أجيد بعض الكلمات فقط وأجهل الباقي...

أعدت نظري نحوه قائلا حسنا دلني ماذا تريد أن أكتب لك، أومأ سلبا برأسه ليشير بإصبعه على نفسه ثم على تلك الورقة وبعدها يرفع القلم عاليا، فهمت ما تريد إخباري به، تريدني تعليمك كتابة بعض الكلمات المعينة لتدونها بنفسك تحتها أهذا صحيح...

لف يده حولي وقام باحتضاني لبضع ثواني ثم رفع رأسه لوجهي وأومأ إيجابا على قبوله عرضي له، شعرت ببعض المودة تجاهه فهذا أول عناق أحظى به بعد العناق الأخير لأمي... قالت نجمة عندما رأتنا على تلك الحال:

_ أنت بالفعل شخص طيب...

حاولت الرد عليها بشكرها لكن إبراهيم منعني بحيث أصبح يوحي لي بحركات بكلتا يديه ليدلني على تلك الكلمات التي يريدني تعليمها له قلت له:

_ تمهل يا فتى ستثقب عيني إن استمريت بالتلويح بيديك على هذا النحو...

هنا كانت أول لحظة حميمية شعرت فيها بالسعادة الحقيقية في هذا العالم المظلم حين رأيت ضحكة كل من إبراهيم ونجمة تتعالى لألحقهم أنا كذلك متقهقرا بالضحك من القلب، تلك اللحظات تدل على أن البشر يمكنهم الضحك متى ما أرادوا ذلك.. ضحكة تدل على أن إحساس الفرح

وقبول الأخر يمكنك الحصول عليه حتى لو كنت في أسوأ بقعة في أسوأ عالم موجود... شعور السعادة هو مجرد قرار نحن نتخذه وليس أمرا تفرضه علينا ظروف الحياة لنمتثل له...

***

مضت ثلاثة أيام ولازلنا جميعا نقاوم لننفذ بجلدنا من مصائب هذا العالم الشحيح لنعود كل مرة إلى مكاننا لنجتمع في كل مرة معا، إبراهيم والذي يأتي لي في كل ليلة مع تلك الرسمة يعطيني إياها ويقوم بوضع سبابته على صدره ناحية اليسار ثم يسحب ذراعيه الاثنين بشكل دائري ويعيد الإشارة إلى رسمة والدته ويعيد الكرة ليشير لرسمة الشخص المجاور له لكن لم أفهم الكلمة التي يريدني تعليمها له قلت:
_ دعني أخمن الليلة وغدا سأعرفها ثم أعلمك كيفية كتابتها...
نجمة التي أصبحت تجلس بيننا في كل مجلس نخوضه وضعت يديها أسفل ذقنها لتنظر إلينا بطريقة كأنها تشاهد ماضيها بواسطتنا وداخل عينيها شعاع متقد مصحوب مع ابتسامة صغيرة لا تفارقها كلما نظرت إلينا بذلك الشكل...
كذلك العم عارف والضاحك كثرت اجتماعاتهم داخل تلك الغرفة لساعات طويلة والغريب في الأمر أننا حين حاولنا التصنت على كلامهم لم نستطع سماع شيء هناك أمر بالغ الأهمية يخصهما هما الاثنان معا لكننا لم نعرفه...

مضى أسبوع كامل عجزت فيه عن معرفة الكلمات التي يريد إبراهيم إيصالها لي، طلبت من نجمة مساعدتي على إيجاد تلك الكلمات فقبلت بالأمر ليصبح الأمر أشبه بتحدّ بيننا نحن الاثنان وهذا ما حفزنا لنبذل ما بوسعنا لمساعدة إبراهيم... تمنيت للحظات لو كان بمقدوره

الكلام ليخبرنا عن تلك الكلمات وينتهي الموضوع لكن لا بأس سنبذل جهدنا في كلتا الحالتين في تعليمه...
أما نجمة أخيرا قد فرضت شخصيتها الحقيقية وخلعت تلك الشخصية الحذرة جدا واللامبالاة ليحل مكانها شخص رقيق ومهتم بالسعادة الذين من حولها... لقد كانت تبذل مجهودا أكثر مني حتى يوضح إبراهيم لها ما هي تلك الكلمات... قلت في نفسي:
_ أظن أنني سأخسر أمامها لا محالة...
في كل مرة أراها تبتسم وهي تتحدث مع إبراهيم يخالجني شعور غريب شعور يدغدغ قلبي ويزيد من معدل ضرباته، يا إلهي كيف أمكن لهذا العالم الخبيث طمس هذه العفوية المطلقة بها، لكن الحمد لله أنها استرجعت بعضا من شتات نفسها لتترك العنان لإنسانيتها تتسرب داخل روحها مجددا...

مرت عشرة أيام عصيبة مع هذا حافظنا على أرواحنا داخل أجسادنا لقد بدأت أتكيف مع هذا العالم جيدا مع كل يوم يمضي أكسب به خبرة تمكنني من البقاء على قيد الحياة، المعضلة الأكبر هي تلك الكلمات التي لم أعد أهتم بها لأكون صريحا فجل اهتمامي كان على نجمة بالفعل أصبحت مدمنا على رؤيتها وهي تحاول فهم ما يقوله لها إبراهيم من إشارة بإصبعه لترد عليه بوجهها البشوش ذلك الوجه الذي أخفته عنا جميعا... لقد أدرك إبراهيم سر نظراتي لها لهذا لم يأت لي إلا في بعض الأحيان وهو يبتسم ويمسك أصبعي ويقوم بوضعه على مكان قلبي ثم يمسك كلتا يدي ويقوم بصنع دائرة كبيرة بواسطتها وعند انتهائه يقوم بسحب إصبعي ليسقطه اتجاه نجمة... فهمت أنه قام بتلك الحركة التي صنعها على شخصيات رسوماته ليعيدها على نجمة لكن هذا ما زادني إلا حيرة، ما دخل تلك الحركة في أنا ونجمة هل هناك قاسم مشترك يجمعنا جميعا يا ترى؟

قلت له ممازحا:
_ أتقول أنني قريب من معرفة تلك الكلمات؟
أومأ برأسه إيجابا مع ابتسامة تدل على السرور داخل عينيه، مع هذا أظنني لن أعرفها حتى أجل بعيد المدى... ذهب عند نجمة والتي كانت تراقبنا بدورها من بعيد بابتسامة تحمل العديد من المفاهيم ليعيد تلك الحركة لها كما قام بها لي وتبتسم له مجددا طالبة منه إعادتها... لكن ما يفسد جمال المنظر هو ما يحيكه كل من العم عارف والضاحك في الخفاء حين أتذكر كثرت تجمعاتهم !

اليوم الثالث عشر كدنا نموت على أيادي أحد تلك الكلاب لكننا نجونا بأعجوبة خاصة العم عارف والذي مازال يعاني من أثر تلك الإصابة البالغة لأنه لم يتلقّ العلاج المناسب... لم يعدم أي شخص منا اليوم لننجو ككل مرة... جلست بعيدا عن إبراهيم ونجمة أراقبهم كالعادة لأرى إبراهيم يعيد تلك الحركة للمرة الألف لنجمة تساءلت:
_ كيف لم تسأم بعد من تكرار تلك الحركة عليها مرارا لو كنت مكانها لشعرت بالفشل يا إبراهيم...
بعد النظر لها مطولا مستمتعا بجمال نظراتها الساحرة وضحكتها الفاتنة وإصرارها الجميل على مساعدة إبراهيم نطق صوت قلبي على الأغلب بدل لساني قائلا:
_ إياد يا شريك الجسد سأعترف لك بشيء بخصوصها لكن لا تلمني، أنا...
هنا اتسعت عيني قائلا:
_ بالطبع كيف لي أن لا ألاحظ من إشارة إبراهيم لي، لقد دلني طوال الوقت على تلك الكلمات لكن نقص ذكائي وبسبب تأمل نجمة بشكل متواصل لم أنتبه مطلقا...
قمت مسرعا من مكاني متوجها إليهما لأشاهد نجمة تقفز مثل الأطفال هي الأخرى من مكانها وتعانق إبراهيم بحرارة مفرطة مع ضحكة تدل

على السرور الشديد، مديرةً وجهها بضحكة صريحة تأكدت أنها عرفت مغزى تلك الكلمات...اقتربنا من بعضنا البعض لنقول معا بصوت واحد:

_ أنا أحبك...

عند سماعنا لبعضنا تلك الكلمات شعرت بالخجل الشديد مديرا وجهي لتتعجب مني قائلة:

_ لنقل أنه تعادل بيننا بينما نطقنا تلك الكلمات في نفس اللحظة...

قلت بداخل نفسي:

_ هل اعترفت بحبي لها للتو حقا أم فقط أخبرتها عن معنى تلك الكلمات! الحمد لله لقد نجوت بأعجوبة كدت أكشف أمري بنفسي... يا لي من غبي لقد تذكرت لا يمكن حدوث علاقة بين شخصين ليس لهما نفس لون الأعين بهذه الطريقة سنعدم كلنا...

قالت:

_ ما بك لماذا لا تنظر إلي...

هنا جاء إبراهيم ليقفز بيننا ويأخذ بيدي ويعطيني تلك الرسمة مشيرا إليها ثم فتح كفي يديه منتظرا مني تدوين تلك الكلمات بها لكي يعيد كتابتها على تلك الرسمة بنفسه، تنفست الصعداء قائلا:

_ لقد أنقذتني كدت أفضح أمامها، حسنا سأدونها لك لكن باللغة العربية وتعيد كتابتها بنفسك لاحقا...

في هذه الأثناء خرج كل من العم عارف والضاحك فجأة من الغرفة التي احتوتهم أسبوعين تقريبا، دخل إبراهيم لداخل الغرفة مسرعا بينما توجه عارف نحو إحدى الأنابيب الأسطوانية والضاحك كذلك، انتظرا بضع دقائق لتزف لنا خمسة ملابس من الأسطوانة التي فوق الضاحك أربعة للرجال باللون الأخضر والأخير فستان باللون أحمر يخص النساء... بعد ذلك سقط بعض الطعام من الأسطوانة التي فوق العم عارف كانت عبارة عن قطع جبن كبيرة الحجم ملفوفة مع خبز أكثر جودة من الذي

يقدم لنا حين الانتهاء من العمل تصاحبه مباشرة قنينات من الماء بحجم كبير...

تساءلت:

_ ليخبرني أحدكم ما هذا الذي يحدث هنا؟

قال العم عارف:

_ تلك الأسطوانات التي تراها ليست فقط لدفع الأكسجين لنا وشفطه بل تستخدمها الحكومة لعدة مهمات، هذه عطية من الجد لنا بمناسبة تمسكنا بأوامره المنيعة وكذلك لكوننا تجنبنا أن نكون أحد الضحايا الثلاث مئة وخمس وستين الذين يكملون السنة كاملة في مستعمرتنا التي تحتوي على الآلاف من الأرقام المتواجدين بيننا...

أكمل قائلا:

_خبأ كل أشياءك الخاصة من قناعك وكبسولاتك وغيرها في غرفتك وأغلق الباب جيدا لأن هذا الباب الرئيسي للخروج الخاص بنا سيبقى مفتوحا غدا ليوم كاملا، كذلك لن تتمكن من الخروج غدا، لأن سكان المستعمرة إن رأوا لون عينيك سيقتلونك شر قتلة أو ينتبه أفراد الحكومة لوجودك بيننا لهذا ستبقى هنا في الداخل، ارتد هذه الملابس المقدمة خصيصا لك ولا تبرح مكانك مطلقا، أسمعتني يا إياد... دوري سيكون منع الناس من الدخول داخلا بطريقة غير مباشرة سأكون مثل الحارس الشخصي الخاص بك...

قلت له مبهتا:

_ماذا سيحصل غدا؟

قال بابتسامة مصطنعة:

_ غدا هو يوم الجزاء الأكبر...

***

(13)
يوم الجزاء الأكبر

ارتدى كل منا الملابس الخاصة به، كانت ضيقة بعض الشيء أما عارف فكان عاديا كأنه يرتدي الزيّ الخاص بنا أما الضاحك عند ارتدائه لزيه بدأ يضرب على معدته وهو يضحك قائلا:

_ لقد أصبحت أكثر رشاقة من العام الماضي

لكن نجمة كأنها نجمة حقيقية التقطت في دجى الليل القاتم بالفعل متألقة وجميلة للغاية بفضل ذلك الفستان الذي زاد جمالها بريقا ورونقا قلت في داخلي وأنا أتأملها:

_ أنت في غاية الجمال اليوم...

أغلق كل منا غرفته ليحتفظ بأشيائه الخاصة في الداخل قال العم عارف:

_ أخيرا قد وصل رغم تأخره بعد أربعة عشر رقما تم إعدامه، أصبح التكهن به أصعب في السنوات السابقة...

نظر إلي إياد مثلما قلت لك لن تتحرك للخارج يمكنك المراقبة عبر الباب وكما أخبرتك سلفا حتى لا يدخل أحد للداخل سأجلس أمام الباب أحرسه لك...

قلت له:

_ اتفقنا، على الأقل لن أضع قناعا وسأتمكن من التنفس بحرية كما كنت أفعل في عالمي...

قالت نجمة:

_ لن أخرج كذلك، لأنهم سيطلبون يدي للزواج وكما نعلم جميعا لا يمكننا الرفض وهذا ما يجعلني أقتل شخصا آخر ليصبح المجموع ثلاثة أشخاص... لا أريد هذا...

قال لي الضاحك سابقا أنها قتلت زوجيها السابقين فهمت إذا لا يمكن لأي مرأة رفض عرض الزواج في هذا اليوم... وإن انتهى هذا اليوم سيكون لها

خيارين إما تقبله غصبا عنها وإن لم تتقبله تقوم بقتله وحكومة القارة ليس لها مانع... أظن لولا هذا لأعدموها... إن نجمة صعبة المراس قليلا أراهن أنها ستقتل كل شخص يتقدم إليها..

تساءل عارف، إبراهيم لم يخرج بعد من الغرفة ماذا يفعل في الداخل، نظرت إلي نجمة وعلى محياها ابتسامة صغيرة صحيح إنه يدون تلك الجملة البسيطة، لكنه استغرق الكثير من الوقت كما قال العم عارف، تذكرت يبدو أنه يتجهز جيدا ليحصل على عروس كما قال لي عارف أنهم يزوجون أصحاب الثمانية عشر عاما إجبارا... أيعني أنه بإنهاء اليوم سيأتي بعروسه لهذا المقر... ضحكت بغير سبب عند تخيلي لحدوث ذلك لألفت انتباه الضاحك لي قائلا:

_ يا صاح... أتريد سرقة مكاني هنا... أنا فقط المسموح له الضحك بلا سبب وقتما أشاء وليس أنت...

لينفجر ضاحكا بأقصى صوته كأنه يعلن الحرب علي لأبلع تلك الضحكة وأعود لرشدي، هنا خرج إبراهيم بذلك اللباس الأخضر حاملا رسمته في يديه، نظر بجدية لأبيه وأومأ إيجابا برأسه له ليبادله أبوه نفس حركته بطريقة لفتت انتباهي ماذا يعنيان بتلك الحركة... انقض على جسمي ليعانقني بحفاوة كبيرة ثم أخرج تلك الرسمة ليريني جملة

_ أنا أحبك تحت صورة عائلته...

قلت له: ومن هذين لم أرهما سابقا هل رسمتهما حديثا ومسك يدي ليسحبني نحو نجمة مشيرا إلى رسمة الرجل بأنه أنا وتلك التي بجواره هي نجمة ليكتب تحتها كذلك أنا أحبك...قلت في نفسي:

_ ليس هذا الوقت المناسب لهذا يا إبراهيم أتريد أن تفضحني أمامها..

قالت نجمة ممازحة له:

_ أنا كذلك أحببتك...

أتبعت بحزن:
_ لقد ذكرتني بأخي الأصغر...
قلت ناظرا في عينيها:
_ أخوك الأصغر؟
قالت مع دمعة من عينيها:
_ لقد مات منذ ست سنوات...

فُصل حديثنا عند تلك النقطة بالفعل سماعنا انفجارات متتالية.. صوتها أقوى من صوت تلك الصرخة بمراحل لأنها أرغمتنا على وضع أيدينا في آذاننا رغما عنا حتى لا يقتلنا الألم الذي يتبعها.. حتى الضاحك وعارف وإبراهيم ونجمة وضعوا أيديهم. من المستحيل التعود على هذا الصوت من حسن الحظ أنه يأتي مرة كل سنة...فتح الباب الرئيسي للمقر ليخرج الضاحك للخارج مسرعا وهو يقول:
_ يا صاح... سأذهب لأصطاد بعض الضفادع... أراكم لاحقا!
وبعدها مشى إبراهيم بتمهل نحو الباب الرئيسي ليتوقف ويستدير لنا رافعا كيفيه ومحركهما يمينا وشمالا مع ابتسامة مجهولة المعنى، تذكرت نفسي حين ودعت أمي كنت أقوم بنفس الحركة ومبتسما مثله... قلت مع برود حل في قلبي فجأة إنه يقول لنا:
_ الوداع...

خرج بعدها راكضا بأقصى ما يملك، تحركت تلك العاصفة الباردة في قلبي مجددا لأسمع صوتا غريبا يهمس في داخل عقلي قائلا لي:
_ لا تدعه يذهب...الحقه...
تحركت نحو الخارج وكدت أخرج ليوقفني العم عارف قائلا:
_ أظنني قلت لك أنك مجبر على المكوث في الداخل...
أكمل:

_ ألم تع أن جميع الناس في الخارج اليوم لا يرتدون أقنعة حتى الكلاب و الغربان لا يرتدون شيئا... لن تتمكن من معرفة سكان المستعمرة وأعدائك وأنت بالذات تملك عينين زرقاوين وليس هناك رقم على جبينك بهذه الطريقة سيكشف أمرك في أول خطوة تخطوها نحو الخارج... تريد العودة لأمك وأبيك صحيح لا تجازف...كلماته أبردت جسمي حالا وجعلتني أتوقف في مكاني لأعود أدراجي للخلف، قلت له لكن إبراهيم... قاطعني بنظرة ثاقبة قائلا:

_ سيؤدي ما عليه... لتهتم بشؤونك...

جلس العم عارف أمام الباب كما قال من قبل أما نجمة عادت لداخل غرفتها ولم تخرج وأنا أخذت مكانا يسمح لي بمراقبة الناس وهم لا يمكنهم مراقبتي...

أخيرا نور الشمس يتخلل لداخل الغرفة ليضيئها ويجعلها أكثر دفء من ذي قبل، انجلت اليوم تلك الغيوم الرمادية وجرت معها صوت عويلها المتواصل... شاهدت العديد والعديد من سكان المستعمرة صغارا وكبارا يرتدون ملابس متعددة الألوان ويحتفلون ويغنون ويرقصون كلهم مع بعض بلا توقف... صحيح هذا اليوم مثل العيد بالنسبة لهم يأتي مرة واحدة كل عام ثم تساءلت:

_ ربما أنت اليوم تفرح وتغني بجانب قاتلك غدا... يا له من عالم مبني على نظام فوضوي... نظام الذي أسسه يريد تمزيق مفاهيم المنطقية في عقولنا...

مضت أربع ساعات وأنا أراقبهم كيف يفرحون ويجرون وكيف يلعب الأطفال مع بعضهم البعض كان المنظر جميلا لدرجة أنني أصبحت واضعا يدي على فكي ومتكئا على نفسي وتناسيت مرور الوقت تماما.. كان سماع صيحاتهم الظريفة أجمل هدوء حظيت به، أوقع

طفلان بعضهما ثم نهض أحدهما وساعد الأخر على النهوض تبادر إلى فكري صورة آدم، أتمنى ألا يكون هو كذلك قد قذف في هذا العالم الذي أنا فيه وإن كان كذلك أتمنى أن يكون بخير رغم أنني شبه متأكد هو بجوار أمي الآن هذا ما أحس به سأعود إليكم بإذن الله حتى نمارس معا هوايتك المفضلة يا صديقي وهي اصطياد اليعسوب... يعسوب... فجأة طرأت على بالي فكرة بلمح البصر صلبتني في مكاني حين تذكرت كلام ذلك الرجل مع ابنه سابقا عن محاولته تهريبه للجيش الثوري، إذا كان كذلك سيقع، بالتأكيد حكومة القارة على اطلاع على هذا بعد إعدامهم لثوري لمعرفة الخائن ربما سحبوا منه بعض الكلام حين أمسكوه وإن كانوا كذلك سيتواجدون عند الباب الرئيسي للمستعمرة على شكل أشخاص عاديين من أجل إمساكهم لمعرفة الخونة المتواجدين في المستعمرة والإطاحة بهم... نهضت من مكاني لأجذب العم عارف من مكانه لداخل المقر معاتبا إياه:

_ أخبرني الحقيقة رجاء هل قمت بإرسال إبراهيم نحو...

التزم الصمت قليلا ثم قال بهدوء:

_ لقد علمت بالأمر إذا...

قلت له بغضب:

_ أنت تدري أنهم سيكونون أمام الباب الرئيسي للمستعمرة صحيح.. سيقتلونه... كيف أمكنك قبول هذا...

التزم الصمت من جديد، هنا خرجت نجمة من غرفتها قائلة:

_ ما هذا الصراخ؟

لم أجبها لأن الوقت ليس في صالح إبراهيم... دخلت لغرفتي مسرعا حيث ارتديت قناعي في ثانية واحدة وحملت سكيني لأنطلق نحو الباب الرئيسي للمستعمرة...لحظة خروجي قال لي العم عارف:

_ لقد فات الأوان يا بني...

ما معنى لقد فات الأوان... سأنقذه... لم آبه لكلامه الذي لا حياة فيه، غير أنني واصلت الركض نحو الباب الرئيسي للمستعمرة... سمعت ضحكات الناس من حولي يستهزؤون بي لأنني أرتدي قناعا في يوم فيه الأكسجين... أحدهم يقول... انظروا لقد جن جنونه... وآخر يقول هل أنت معتوه... وآخر يقول ضاحكا انزع قناعك نحن لا نرتدي أقنعة اليوم... لم ألق لهم اهتماما كل ما شغل بالي كلمتان ضللت أرددهما بلهفة:

_ إبراهيم لا تمت...

وصلت للباب الرئيسي حيث رأيت الناس مستمتعين ويغنون، دفعت أحدهم لأمر فأوقعته مررت بصعوبة بالغة وأنا أصرخ دعوني أمر... سيقتل... سيقتل... بعد تجاوزي بصعوبة ذلك الكم الهائل من الأشخاص المحتفلين أخيرا وصلت لأرى في الأفق تسعة جثث ملقاة أمام بعضها كلها مقتولة يبدو أنه نشب بينهم عراك حتى الموت قلت غاضبا:

_ كيف أمكنهم الاحتفال وأمامهم أشخاص قتلى...

كنت أول الواصلين حيث مكان الجثث... بدأت أتفحص الجثث واحدة تلو الأخرى لأتحقق من هوية كل منهم لأصل للجثة الثامنة قلت... ليس هو... بقيت جثة شخص واحد... سمعت صوت ورقة تحركت بفعل ريح خفيفة أشحت بعيني نحوها ببطء كانت ردة فعل قام بها جسمي رغما عني أنا لم أرد النظر لها فعلا لأجد ورقة أعرفها جيدا، نصفها غارق في الدماء قمت بتوجيه يدي لتلك الورقة أنا أعرفها لكوني حملتها مرات لا تحصى... رأيت رسمة العائلة التي رسمها إبراهيم كانت شخصيته وشخصية أمه والشخص الأخر مشبعين بالدماء وما بقي إلا صورتي أنا ونجمة تتلاعب بين الرياح كأن القدر يقول لي هم لطخوا بالدماء وماتوا وأنتم أحياء... الجثة التاسعة إنها ترتدي نفس ملابسي

قلبت تلك الجثة ودموعي تسيل والصدمة لقد كان إبراهيم فعلا... إبراهيم قد قتل.. قتل وهو يبتسم...

***

احتضنته باكيا لعدة دقائق قائلا له بحرقة:

_ لماذا كانت هذه نهايتك يا إبراهيم... لماذا؟

سحبتني قوة من الخلف فرقتني عن إبراهيم كان صاحبها نجمة والتي لحقتني مباشرة قائلة:

_ تعال لنبتعد... سحبتني رغما عني لأنني لم أرد ترك جثته...

أكملت:

_ أنظر، الغربان قادمين يجب ألا يروك و إلا سيكتشفون أمرك...

ابتعدنا قليلا بمسافة تسمح لنا بمراقبة ما يجري... ليأتي الغراب صاحب الرقم ألف واثنين مع آخر صغير، قائلا بعجرفة:

_ قتل خمسة من كلابنا وبالمقابل سنتمكن من معرفة الأربع فئات الخائنة في هذه المستعمرة... ثم قام بركل جثة إبراهيم... قائلا أرقام حقيرة خونة كم تمنيت لو تلذذت بإعدامكم شخصيا...

تملكني الغضب الشديد مما رأيت وحاولت الانتفاض من مكاني لأدق عنقه لكن نجمة كبحتني بصعوبة قائلة:

_ هدئ من روعك يا إياد...

قال الغراب ضاحكا:

_ لتأخذوا هذه الجثث وعندما تعلمون هوية فئاتهم أقتلوا جميع أفرادها، فمن يحاول الهرب من المستعمرة سيعدم هو وفئته كلها بلا استثناء..

رجعت للمقر مع نجمة مطأطأ الرأس ومحطم القلب على عدم مساعدتي لإبراهيم كررت طول طريق عودتي لو انتبهت مبكرا لربما

أنقذته من الموت... كانت نجمة تحاول مواساتي بينما تذرف دموعها هي الأخرى، لنجد العم عارف في مكانه لم يتحرك كأن من قتل ليس ابنه بل مجرد فأر حقيقي...دخلنا إلى المقر تبعنا العم عارف قلت له باكيا:

_ لماذا أرسلته لهلاكه...

قال مطمئنا:

_ ليس لهلاكه يا بني... لقد تحرر الآن من قيود هذا العالم المشؤوم، كان هناك خياران إما يؤخذ للجيش الثوري ويكافح لحريته بينهم أو يموت ليتحرر كذلك... في كلتا الحالتين سيكون سعيدا صدقني، ثم إنني لن أرضى أن يعيش ابني حياة مثل التي عشتها... أكمل: غير هذا لقد أدى مهمته بنجاح وعلى أكمل وجه، أنا فخور به جدا... كذلك لقد أحبك إبراهيم أكثر مني يا إياد... شكرا لك على جعل آخر أيامه سعيدة...

فهمت أنه عندما أرسله كان يريد خلاصه وليس قتله إنه الآن سعيد بموت ابنه لهذا لا يحق لي الحزن عليه فهو يعلم أحسن مني ماهية هذا العالم وما أراد إبراهيم القيام به في النهاية هو أبوه ويحبه أكثر من الجميع... انتهى هذا اليوم المنتظر بمأساة بمفارقة شخص رسم البسمة على وجوهنا لأيام معدودة بروحه الطاهرة مثل القطن التي لم تدنسها قذارة هذا العالم... أسعدنا على كونه لم ينطق بكلمة واحدة... لترقد بسلام يا إبراهيم... أنا أيضا أحبك...

***

بعدها جاء إلي العم عارف وأخبرني بتغير القناع لأنه بمعرفتهم هوية إبراهيم سيتعرفون على الفئة الخاصة بنا وقدم لي القناع الذي أتيت به للمرة الأولى لهذا العالم قائلا:

_ بأنه قد أجرى عليه بعض التعديلات فيما يخص فتحة الكبسولة ودون رقم مزورا في أعلاه سيفي بالغرض قبل يوم التفتيش الشهري.. أكمل عند

ارتداءك هذا القناع ستحمل شعلة الإنسانية الوحيدة في هذه الغابة تذكر هذا... ناضل يا بني... إياك والاستسلام..

وعندما سألته عن نفسه قال:

_ لا يمكنهم قتلي...

***

(14)
الضاحك

مضى أسبوع إضافي لتعود حياتنا الكئيبة أسوأ مما كانت عليه بفراق العزيز إبراهيم وإن كان هذا الإحساس يخنقني أنا ونجمة فقط لكن كان علينا تقبله والتعايش معه لأننا لا يمكن أن ننكره... عاد الجمع بين الضاحك والعم عارف معا ليتركونا أنا ونجمة ننظر لبعضنا البعض بلا كلام يقال فقط مجرد نظرات عابرة مفادها من يتكلم منا أولا...ليخرج الضاحك والعم عارف لينادني قائلا:

_ إياد، هل يمكنك أن تساعدني في وضع المرهم على كتفي لم يزل ألمه بعد...

أشرت موافقا دون قول كلمة بدوري ذهبت لمساعدته بلا تردد... ثم خرجت من غرفته لأخلد للنوم مضت بضعة أيام مليئة بالكفاح من أجل البقاء أحياء، كنت كل ليلة أضع المرهم على كتف العم عارف الذي لم تذهب زرقته مطلقا كذلك لقد كان يستأنس بي لأنه افتقد ابنه الذي كان معه...

اقترب يوم التفتيش حيث يأتي كل شهرين بشكل روتيني لمقارنة رقم القناع برقم الجبين مثلما شرح لي العم عارف ... كنت متوترا طيلة تلك الفترة وأنا أقول سيتم اكتشاف أمري إن أجريت هذا الفحص الروتيني فأنا لا أملك رقما في جبيني وسيكون مصيري هو الإعدام.. عندما كان يسمعني العم عارف أكلم نفسي بخصوص يوم التفتيش يقول مبتسما... لن تموت...

في الثلث الأخير من الليلة التي تسبق يوم التفتيش لم أستطع النوم أبدا بسبب تفكيري المتواصل عن كيفية إيجاد طريقة لأنجو بها، رغم ثقتي في العم عارف لكن ذلك لم يكن كافيا ليحتوي قلقي قررت الخروج

خارج غرفتي لأن جوها الكئيب لا يزيدني إلا اضطرابا وقلقا بينما أنا أذهب وآتي في تلك المساحة الضيقة بين غرفنا الأربع إذ بي أسمع صوتا من غرفة الضاحك وهو يضحك مثل الأبله وحده داخل غرفته وضعت أذني لأسمعه يقول مع ضحكاته الخفيفة:

_ علياء ابنتي أفتقدك كثيرا... ميليسا أفتقدك أنت كذلك... آه لو تعلمين يا ابنتي كم أردت ضمك لصدري وشم ريحك وملاعبة شعرك ومداعبة وجنتيك واللعب معك مثل كل أب وابنته لقد حرموني من هذه الأشياء البسيطة، لم يكن الذنب ذنبك ولا ذنبي... صاحب الذنب في هذا العالم غائب وقاطعوا الرؤوس متواجدون في كل بقاع القارة لماذا أنا على وجه الخصوص من كان عليه تحمل جرعة الوجع المضاعفة تلك... لقد تعبت جدا يا أبنتي أريد أن أرتاح بالنظر إليك...اشتقت لك كثيرا يا علياء...

أكمل ضاحكا وصوته يكسوه الأسى:

_ لقد أصبحت قاتلا يا ميليسا... قتلت العديد من الأشخاص البريئين فقط لأنفس عن غضبي كلما رأيت أولئك الغربان حتى لا أرتكب حماقة... أنا آسف... لقد تغيرت يا زوجتي الغالية... أتساءل هل أنت بخير اليوم... أتمنى هذا... أتمنى رؤيتك مرة أخيرة لأقدم خالص اعتذاري لك... لأنني لم أفي بوعدي لك وقتلت ابنتنا بسبب هذه الضحكة الملعونة التي لا تتركني وشأني...أكرهها سأفعل كل ما يلزم لأتخلص منها... أتعلمين يا ميليسا هناك شخصان أعرفهما كلما أنظر إليهما أستحضر ماضينا السعيد... الأول يدعى إياد ويشبه النسخة السابقة مني لكن تجرفه مشاعره بسهولة نحو الحماقات أما الأخرى فاسمها نجمة لا تشبهك أبدا لكنها طيبة القلب وحادة الطباع... أتعلمين يا عزيزتي أظننا سنرى علاقة تبنى على المودة مثل علاقتنا في القريب العاجل... إنهما يحبان بعضهما بشدة رغم ذلك يتعمدان ترك المسافة بينهما، كم أتمنى ألا يصيبهما ما أصابنا... زوجتي سنجتمع قريبا أعدك بهذا...

ذهلت من تلك الكلمات التي سمعتها وقلت هل أخطأت في الغرفة أم ماذا؟ أقال تلك الكلمات الضاحكة بعظمة لسانه... جلست قرب باب غرفتي منتظرا بزوغ الفجر ومراجعا كلماته وأتساءل يا ترى كم كان شخصا رائعا قبل حدوث تلك الحادثة معه، نسخته القديمة هي التي كانت تتحدث مسترجعة نفسها بين خبايا جدران غرفته المظلمة... إذن هناك فرصة أن يعود كما كان سابقا...

***

جاء اليوم المنشود خرجنا متلهفين عند سماعنا الصرخة الأولى من الباب الرئيسي لنصل إلى باب المستعمرة بشق الأنفس مررنا بتلك المدينة المحطمة خطرت لي فكرة لكن العم عارف كان ورائي فدفعني بيديه قائلا... ثق بي...استمررت في الركض حتى نخطو خطانا في الساحة التي نجتمع فيها كل يوم بعد النشيد كان من المفترض دخولنا جوف الكهف لكن قبل ذلك أمرتنا الغربان بأخذ نفس من الكبسولة ثم يسحبون القناع ليروا الرقم المكتوب على الجبين ويقومون بمقارنته مع رقم القناع إن كان صحيحا يقومون بإرجاع القناع لصاحبه أو لا يرجعونه حسب مزاجهم...

رتبنا في مجموعات حتى لا يأخذ هذا التفتيش إلا ساعتين على الأكثر كنت قلقا وأفكر كيف سأنجو من هذه المعضلة لقد تركت حياتي بين يدي العم عارف، بدأ أحد الغربان في الاقتراب نحوي لا يفصلني عنه سوى أربعة أشخاص انتهى بالفعل من اثنان بقي شخص واحد يفصله عني أنا محاط بين مجموعة كبيرة من الغربان وكلهم يراقبوننا، الهرب مستحيل سأمسك بكل تأكيد ومن جهة ثانية العم إبراهيم في المقدمة لا يبدي أي ردة فعل... سيعرفون هويتي يجب أن أقوم بحركة ما، سأهلك... تخطاه حتى وصل ذلك الغراب لي علمت أنها النهاية... قمت

بإغماض عيني وضع يده على القناع الخاص بي يبدو أنه قد شك بي هنا ستنتهي رحلتي في الحياة... تجمدت يدا الغراب عدة ثواني ثم ترك قناعي مهاجما شخصا آخر هو ومن معه... علمت هويته إنه الضاحك حيث قال:

_ أنظروا لي أيها الحثالة أنا أملك رقما مغايرا للذي في قناعي أروني ما ستفعلون...

قلت مذهولا:

_ ما الذي يفعله هذا الأحمق، هل فداني بنفسه حقا؟

بعد اشتباك نشب بينه و بين أفراد الحكومة قتل أربعة منهم حتى أدرك أنه محاصر رمى سكينه واستسلم رافعا يديه، أطاحوا به فقاموا بضربه حتى نزل أرضا حملوه بأمر من الغراب صاحب الرقم ألف واثنين الذي اتجه نحوه قائلا بغضب عارم:

_ سأعدمك لأجعل منك عبرة أيها الخائن

قال بضحكة جوفاء:

_ نهايتك قريبة يا صاح... لكني لن أكون شاهدا عليها... أكمل صارخا اعتن به يا عم لا تتركه وحيدا...

تم اصطحابه بعيدا حتى يرمى في مكان مجهول ويجهز للإعدام بعد الصرخة الثالثة... صرخ الغراب الأكبر قائلا:

_ يكفي اليوم أدخلوهم ليقوموا بما عليهم من أعمال...

فعلا تم الزج بنا داخل الكهف، باشر سكان المستعمرة الناجين منهم في العمل مباشرة بينما أنا كنت مصدوما كليا مما حصل. هذا غير منطقي أن ينقذني الضاحك مرة أخرى لكن هذه المرة ألقى بنفسه في فم الوحش مباشرة... ومن أجلي أنا... مستحيل لماذا فعل أمرا مشابها ثم تذكرت

حديثه البارحة عن رغبته في الاجتماع بعائلته من جديد...أراد حمايتي... يا له من شخص منفصل الطباع لا أفهمه ومن المستحيل أن أفهمه...

***

حان وقت الصرخة الثالثة خرجنا جميعا حاملين ما استخرجنا من الذهب لكن لا أحد سيعدم منا هم بالفعل لديهم أضحية سيتم إعدامها بعد قليل... أخذ الجميع مكانه مصطفين مترقبين فقط جلب الضاحك لأعلى المنصة، فعلا ما وقع هو جلبه من قبل الغربان كان مكبل اليدين والقدمين... كنا ننظر له باستغراب لأنه لحظة صعوده كان يضحك بشكل هستيري قائلا:

_ الوداع... الوداع أيها الضعفاء... أراكم في الجهة المقابلة !

وضع الغراب الأكبر يديه على قناعه حتى يقوم بنزعه قائلا باستغراب:

_ ما المضحك لهذه الدرجة في كونك ستعدم... على كل حال ستكون آخر ضحكة لك، مت أيها المعتوه...

بينما هو ينتزع قناعه برفق متلذذا بقتله ببطء شديد إذ فجأة دخل أحد الغربان الصغيرة قائلا وبدا على طريقة تنفسه أنه جاء مهرولا:

_ توقف أيها الأكبر لقد أمسك أحد جنودنا ثوريّا كان أمام أسوار المستعمرة وبموجب القانون المنصوص من العمود فإنه سيعدم في مكاننا المخصص الليلة بينما أنت ستعدم ذلك الثوري فورا ...

انفجر الضاحك ضحكا بحيث لم يتمكن من الكلام أبدا قال له الغراب الأكبر بنبرة حسد وهو يضغط على أسنانه:

_ حظك اللعين...

أمر جنوده بأخذه حتى يسرعوا في الوصول لذلك المكان... وتابع كلامه: قد تكون أفلت من الموت بين يدي أيها الأحمق لكن حين تصل لذلك المكان صدقني ستتمنى لو أنك أعدمت بين يدي، ليلتهمك الجحيم أيها

الخائن الوغد... أخذ الضاحك ليعدم لقد كسب بفضل حظه بضع ساعات إضافية في هذا العالم أما الغراب صاحب الرقم ألف واثنين فقد أعدم بدوره ذلك الثوري... سأكون صريحا لست مصدقا أنني نجوت بأعجوبة ولست متقبلا أن بقائي على قيد الحياة كان بسبب أكثر شخص كرهته وحقدت عليه...الضاحك... أنا فعلا نادم لأنني لم أفهمه بالشكل المطلوب ربما أراد شخصا يفهمه شخصا يحبه قليلا فقط...

***

(15)

دعوني أتكلم

عدنا للمقر وأغلق علينا بعد الصرخة الرابعة لقد تضاءل عددنا ليصبح ثلاثة أشخاص بعدما كنا خمسة، ما نخر عقلي كثرة التفكير.. ما الغاية من مساعدتي لماذا ألقى بنفسه للتهلكة لأجلي ألم يقل أنه لن يسمح لنفسه بالموت مهما كان سبب، لماذا تحرك عكس ساجيته... دائما ما كان يقول أنا لا أفعل أي شيء بالمجان... العديد من الأسئلة طرحت على طاولة عقلي لكن لا إجابة مقنعة لها، أظن أنني سأنفجر... لقد بلغ السيل الزبى أريد ... أريد الإفصاح عن كل ما بجعبتي... هنا والآن...

استوطنت نجمة غرفتها وكذلك العم عارف كل في غرفته منفردا بنفسه أفصحت عن تلك القصاصة الورقية والمفتاح للعلن قائلا:

_ يكفي... سأطلع الجميع عنهما... طلبت منهما الاجتماع قائلا:

_ لا مزيد من الأسرار سأخبركما بكل ما أعرف... قمت بسرد ذلك الكابوس الذي كنت أراه كل يوم في عالمي عليهم وأنه انقطع بمجرد دخولي لهذا العالم... ثم أريتهم ذلك المفتاح أمسكه العم عارف والدهشة واضحة في عينيه قائلا:

_ لقد رأيت شبيهه في الماضي... هذا مستحيل...

أمسك القصاصة الورقية ليقرأ العم عارف ما بها بدون دهشة هذه المرة صمت للحظات ثم قال:

_ هذا الاسم الحقيقي للخانق الذي لا يعرفه إلا السكان الأوائل للقارة الأم... مالك إيفان...

أكمل:

_ إذن أنت ابنه يا إياد...ابن الشيطان...

تراجعت نجمة بكلتا قدميها مع إبداء علامة الهلع وعدم التصديق على وجهها حتى التصق ظهرها في باب غرفتها، صوبت نظري نحوها وتحدثت عيني في مكاني قائلة هل أنت تخافينني حقا يا نجمة... رفعت يديها بموازاة وجهها كأنها تقول إليك عني لا تقترب أبدا... أعدت وجهي للعم عارف والذي كان يراقبني وعلى وجهه علامات الجمود...تفاجأت مما قاله:

_ الخانق أليس شخصية خيالية... غير ممكن أن أكون ابن شخص مثله أبي اسمه باهر...

قلت بعدما ساد الصمت بيننا:

_ كيف تأكدت من أنني ابن ذلك الشخص ؟

أجابه:

_ سمعت أنه هرب ابنه قبل تلك الليلة ثم اختفى نهائيا عن هذا العالم دون ترك أثر يدل عليه، إذا جمعنا بين قصتك وقصة ابنه أنا متأكد أنك ابنه وما جعلني أقطع الشك هو ذلك المفتاح الذي بحوزتك وتلك الكلمات التي تحمل اسمه... من أرجعك لنا سببه واضح يا بني...توقفت عن الإصغاء له حين سمعت نجمة تقول وقد وضعت يديها على فمها مع دموعها الساخنة:

_ لقد أحببت ابن الشيطان...

قطعت حديث العم عارف غير مبال قائلا لنجمة:

_ أنا لست ابن ذلك الشخص لأنني لم أره ولا مرة في حياتي إن كان هو السبب حقا فيما يحصل لهدا العالم سأقتله بيدي هاتين وأجعله يدفع ثمن معاناتكم... أنا لست ابن الشيطان يا نجمة أنا إياد الشخص الي أحبك بكل صدق متغاضيا عن ماضيك لأنني أحببت حاضرك وسأحب مستقبلك مهما يكون... أحببتك أنت وكفى... لهذا أرجوك لا تجعليني أدفع ثمن كونه والدي... أرجوك... قاطع حديثي صوت كان صداه يتردد

بشكل قوي جدا ومتقطع، تيقنت أنه انتشر في كل المستعمرات المجاورة واصلا إلينا... كان صاحبه أحد أفراد الحكومة قال التالي:

_ يا أرقام المستعمرات يطلعكم الجد أن هناك شخصا مجهول الجنس ويريده بشدة من يعثر عليه منكم سيحصل على حريته الكاملة وقد قال لكم أيضا ستتعرفون على هويته لحظة رؤيتكم له لأنه شخص فريد من نوعه...

تعالت الأصوات والهتافات في جميع أرجاء المستعمرة من صغيرها حتى كبيرها ورقة اليانصيب لحريتهم هي أنا ارتجفت خوفا قائلا:

_ سيمسكون بي قريبا...

***

كنت أريد الفرار لكن إلى أين أذهب أنا في ملعبهم لا مكان لي للاختباء.. أيديهم تطال جميع الأماكن، عملية إيجادي بالنسبة لهم مسألة وقت لا أكثر... بعد مرور يومين من تلك الحادثة عدنا من العمل لنستقر في المقر حتى ناداني العم عارف مثل عادته:

_ تعال ساعدني... ضع بعض المرهم على كتفي إنه يؤلمني...

قلت له مترددا:

_ حسنا...سآتي إليك حالا...

دخلنا غرفته وقمت بوضع المرهم على كتفه قال بصورة مفاجئة تكفيهم على الأقل ثلاثة أيام قبل تضييق دائرة بحثهم وإيجادك في هذه المستعمرة خصيصا أن قناعك لا يمثل أي حيوان بل يمثل البشر لهذا يجب أن نخلق مهربا لك...

قلت له خائفا:

_ لا يمكنني ذلك، أنا أجهل هذا العالم

قال بهدوء:

_ سأحررك من شراكهم حتى لو كان هذا آخر شيء أفعله في حياتي...أكمل أمهلني بعض الوقت لا غير... نظر لي بنظرة الأب لابنه كأنه يتذكر أبناءه وقال هناك شخصان أريد منك قتلهما الأول هو ذلك الغراب حامل الرقم ألف واثنين والثاني ستعلم هويته في قادم الأيام، سأوكلك مهمة أردت طيلة حياتي إنجازها لكنني لم أستطع وخسرت إبراهيم من أجل تنفيذها... اسمعني جيدا إن شعرت أنك ستمسك أو شعرت ولو قليلا أنه أصابك اليأس وستقدم على الاستسلام لهم ما عليك إلا طعنه لحظة صعوده للمنصة، إذا أردت مساعدة أهل المستعمرة قم بذلك حررهم من بطشه وبهذه الطريقة ستتحرر ثق بكلام هذا العجوز للمرة الأخيرة وستنجو أعدك بذلك لكن إياك ثم إياك تركهم يمسكوك قبل تنفيذ ما طلبت منك لأنهم بتلك الطريقة سيفعلون ما لا يخطر على بال بشر مساعيهم أكبر بكثير مما تعتقد يا بني وطريقة حياتك ستحدد مصير هذا العالم... كن حكيما وحذرا لا تثق بأي شخص وواصل فعل الصواب لأنك المنارة الوحيدة المتوهجة بالإنسانية في ظلمة العالم الدامسة إما تقود السفينة لشاطئ الأمان أو تغرقها... الخيار لك... أنت ذو شأن عظيم يا بني... ووالدك ليس شيطان هذا العالم كما يعتقد الجميع، ستفهم ما عليك فهمه في المستقبل... أتمنى لك حياة سعيدة...

أدلف قائلا اقترب مني سأعطيك تذكارا صغيرا كانت قلادة على شكل معين محطمة على نصفين بطريقة فريدة... هذا الشكل يحتوي على أربع رؤوس نفس عدد أفراد عائلتي ابني البكر وإبراهيم وأنا وزوجتي الفقيدة... أتعلم كانت لدي عائلة صغيرة وسلبت مني بعدما قتلوا زوجتي لأنهم ظنوها أحد الثوار المتواجدين داخل المستعمرة... قتلوها أمام أعين أبنائي بكل دم بارد ومزقوا جبينها وأخذوا قناعها ليتبين

فيما بعد أنهم أخطأوا في تقدير الخائن بعدما أمسكوا الخائن الحقيقي... أخيرا يا بني... غدا سأجتمع مع عائلتي...

قلت له:

_ ماذا تقصد بأنك ستجتمع مع عائلتك غدا...

قال لي مع ابتسامة تدل على الرضا:

_ غدا سأبلغ الخامسة والخمسين يا بني... سيتم إعدامي...

قلت له غير مصدق:

_ لماذا لم تهرب؟...

قال:

_ لم يسمحوا لي لأنني مراقب منهم بالفعل... إياك والقيام بأي حركة غبية عند قدومهم ارتد قناعك ولا تثر الشبهات من حولك..

قلت له بحزن شديد:

_ لكن...

أخرسني حين قال:

_ إياد... شكرا لك على كل شيء...

جذبني له واحتضنني مطولا وأجهش بالبكاء، أحسست بدموعه تنساب على كتفي... أكانت كلمة الوداع ثقيلة عليه لهذه الدرجة حتى يعبر عن رحيله بهذا الشكل المحزن... لففت يدي حوله لأبدأ أنا أيضا بالبكاء كانت حالتنا هكذا لدقيقة حيث أمرني بإحضار ورقة وقلم ليدون فيها أخر رسالة له في حياته وطلب مني الانصراف لأنه يريد أن يقضي ساعاته الأخيرة لوحده... لم أرد تركه وحيدا لكنه أصر على مغادرتي الغرفة وهذا ما حصل تركته وحيدا...

التهمت تلك الساعات بعضها البعض بحيث لم أشعر كيف مرت في لحظة... قبل حلول الصرخة الأولى بنصف ساعة تقريبا فتح الباب الرئيسي للمقر الخاص بنا... دخل منه ثلاثة غربان مدججين بالسكاكين،

أنا الذي كنت أمام غرفتي ارتميت للداخل بعد رؤية سطوهم فجأة لأضع قناعي على وجهي وأضع فيه تلك الكبسولة... صرخ أحدهم قائلا:

_ أيها الأرقام ضعوا أقنعتكم...

خرجت نجمة حاملة سكينها ثم أخفضته بعدما رأت أولئك الغربان وتبعتها أنا لكني لم أشهر بسلاحي نحوهم مثلها... تلبسني الحزن الشديد لدرجة أنني لم أبالي بهم إطلاقا كان نظري باتجاه باب غرفة العم عارف... خرج العم من غرفته مرتديا قناعة ورمى سكينه ناحيتي، نظر لنا أنا ونجمة قائلا بطمأنينة:

_ اعتنيا ببعضكم البعض جيدا... كونا مثلما لم نكن أنا وزوجتي والضاحك وميليسا... لا تستسلمي أبدا...

أشار بيده ملوحا بها نحونا كما فعل إبراهيم قبل خروجه ليلقى حتفه يا لها من طريقة توديع خاصة بهما... الوداع... أشار أحد الغربان بيديه إليه ليخرج قبل الصرخة الأولى، مشى العم عارف وكاد يخرج من الباب الرئيسي لم أستطع كبح نفسي وقلت بصوت مبحوح:

_ شكرا جزيلا لك... لقد كنت مرشدي في هذا العالم... لقد كنت خير رفيق لي... لقد كنت أبي...

توقف لوهلة ثم أتبع خطاه للخارج... خرج ومعه تقلص عددنا من ثلاثة أشخاص إلى اثنين ليكبر جرح الفراق تاركا حفرة وجع ملتصقة في روحي... لماذا عندما يتعود الفؤاد على فرد ما يسحب مباشرة خارج حياتك ويستحيل تواجده معك مرة أخرى!...

***

أخذت للخارج مع ثلاثة غربان لأعدم اليوم في مكان أعدموا فيه من أمثالي الكثير والكثير... لطالما علمت أن هذا اليوم قادم، كنت أتساءل عما كان يشعر فيه السكان الأوائل حين أخذهم للإعدام الآن

يمكنني أخيرا تذوق الطعم المتشارك بيننا وهم متوجهون نحو خط النهاية... الطعم الذي فقدناه قبل سبعة وعشرين سنة ألا وهو طعم الحرية... إياد أتمنى أن تنجز ما عليك... أتذكر يومك الأول معنا لقد علمت أنك ابن مالك إيفان من أول فرصة جمعتنا لأنني تفقدت ما يقلع في جيوبك لأجد تلك القصاصة جعلتك تخضع لعدة اختبارات لأعلم ماهيتك الحقيقية لأندهش أنك عكس ما كنت أتوقع أنت بالفعل رمز الإنسانية في هذا العالم.. أشكر الله أنه جمعني بك قبل مجيء هذا اليوم لأنك علمتني أنه من السهل أن تكون حرا كإنسان بغض النظر عن محيطك...

اليوم أنا سعيد لأنني أخيرا تغلبت على قواعد هذا العالم سأقوم برميها لعل شخصا يلتقطها وتكون مثل ضوء الشمس الذي لا يراه كل يوم لقد دونت فيها آخر كلماتي...

_ حين يحدّدون مصيرك المشؤوم قبل ولادتك... حيث تضطهد من بني جلدتك بكل قسوة وتعسفية وتطالك عنصريتهم لأنك فقط مختلف عنهم فيضعوك أسفل نعالهم... حين يكون همك الوحيد أن تعمل اليوم بكل جهد لكي تعيش الغد حيا...حين يكون قتلك مجرد نكتة بالنسبة إليهم لتمضية الوقت... حيث تعلم أن العيش مجبرا هو الخيار الأول والوحيد...الانتحار... لم أفكر به أبدا لأننا بمجرد رضوخنا لقواعد هذا العالم قبلنا بوضع الحبل على رقابنا فكان انتحارا طويل المدى... حين تخرج من منزلك المؤجر حاملا سلاحا رغما عنك لتدافع عن حياتك حتى لا يقتلك أحد الكلاب غدرا ليأخذوا منك أثمن ما تملك...

العديد والعديد من الأشياء التي لا يمكنني ذكرها لصغر هذه الورقة التي أدون فيها آخر رسالة لي في حياتي... اليوم أخيرا سأبتسم مرتين، المرة الأولى قد مضت منذ مدة ليست بالبعيدة والثانية اليوم لأنني سأعدم بغير حبال... نعم سينتهي هذا العذاب الذي دام قرابة ثلاثة عقود تقريبا...نعم حقيقة السعادة في عالمنا البائس تكون لحظة مغادرته وليست

لحظة القدوم إليه... ذنبي أنني أحد السكان الأوائل لهذه القارة وأيضا لست كالبقية فأنا أجيد القراءة والكتابة...

***

(16)
أعيدوها إلى

أخذ العم عارف حتى تطبق عليه القواعد التي نصها ذلك العامود بخصوص القارة التي نحن ندوس عليها كل يوم لقد تشبعت بدماء الأبرياء عن أخرها.. الأبرياء الذين غابت عقولهم ليصبحوا مثل الدمى تتحرك وفق حركات أصابع العدو... بقيت مع نجمة في ذلك المقر وحدنا لم تحرك عينيها عني لقد قلقت علي، كان الخوف يتغذى على تفكيري سيمسكون بي غدا بكل تأكيد، اليوم سأقوم بدراسة الوضع... غدا لن أذهب هناك، سأنحرف عن طريقي لأختبئ، قلت في نفسي حينها:

_ إن نفذت كبسولتي من الهواء سآخذ كبسولة شخص أخر... لكن هكذا أصبح ما يريدون تماما... ماذا علي أن أفعل يا ترى؟

هنا تحدثت معي نجمة قائلة بصوت مترنح:

_ قد تكون ابنه لكنك لست مثله... أنت دائما تساعد الآخرين والمحتاجين لك...

رفعت رأسي لأراها تنظر لي بمواساة تفطنت أنها لم تكرهني قلت:

_ لماذا؟

قالت:

_ لأنني مررت بما تشعر به الآن...

رفعت رأسها قائلة:

_ أتذكر لقد كانت لدينا حياة مليئة بالرغد حينها كنا سعداء جدا أنا وأمي وأخي الأصغر نعيش أمام أحد الموانئ الخاصة بقارتنا. حتى اليوم الذي أيقظتني أمي قائلة...استيقظي يجب علينا الهرب لا ينبغي عليهم العثور علينا وإلا ستحدث كارثة ولفت على جبيني قطعة القماش هذه وحذرتني من أن يشاهد أي شخص جبينك، ثم ذهبت لتحضر أخي

الأصغر من غرفته وحملته على ظهرها... أمرتني بالانفصال عنهما ليتخذا طريقا غير طريقي و حين ابتعدنا عن بعض قالت لي: ستجدين سفينة اركبيها واهربي مهما كلّفك الثمن... عديني أن تعيشي... علمت بعد مدة أنهما قد قتلا على يد النبلاء في محاولتهما للهرب أولئك الذين استضافونا لمدة طويلة داخل أرضهم القذرة لأنجو أنا بمفردي... لقد شعرت بما تشعر به الآن مجموعة من الأشخاص يلاحقونني وأنا أجهل السبب ربما لذنب لم أقم به مثلك تماما لكنني في النهاية تمكنت من العيش بعد تلك الحادثة لسنوات... وهذا ما ستفعله أنت كذلك ستخرج من هذا المأزق وستعيش...

قلت لها:

_ أنت ما تبقى لي في هذا العالم... لا أريد أن يصيبك أذى بسببي غدا سأمضي وحيدا...

من غير أن أضيف أي كلمة أو أسمح لها بالحديث ذهبت لغرفتي لأجلس هناك منتظرا الصرخة الأولى:

_ سأحرص على أن لا يصيب نجمة ما أصاب الجميع... أنا أحبها..

في اليوم التالي بعد الصرخة الأولى مباشرة خرجت مسرعا لأتخطى الباب الرئيسي واصلت التقدم لأجد تلك المدينة المهترئة التي تكون طريقنا نحو مكان العمل وقررت الدخول في أحد تلك المنازل والاختباء هناك... مضت مجموعة من أهل المستعمرة المتجهين للعمل بعد مرورهم سمعت الصرخة الثانية وهنا علمت أنني قد حوصرت لكن في الخارج...

اختبأت في غرفة في أحد المنازل المعتمة الشبه واقفة والمتينة بعض شيء، بعد قرابة العشر دقائق تقريبا سمعت أصوات خطوات تارة تبتعد وتارة تقترب ثم بدأت تقترب ناحيتي رويدا رويدا قلت مخاطبا نفسي إنهم أفراد الحكومة بلا أدنى شك، اتخذت وضعية الهجوم احترازا مني وضغطت على سكيني بكلتا يدي لأطعن به إذا وصل لي أحدهم وحاول

الإمساك بي وحين أصبح ذلك الشخص لا تفصله عني إلا أمتار معدودة، سمعت صوتا ينادي:

_ إياد هل أنت هنا... إياد...

نهضت بسرعة لأجد صاحب الصوت هو آخر شخص توقعت لحاقه بي، إنها نجمة... تبا كيف عرفت أنني سأكون هنا... حقا تفاجأت من ملاحقتها لي... رميت حجرا كان أمامي لتسمع صوت ارتطام الحجر وتأتي مباشرة تجاهي قلت لها بصوت شبه مسموع:

_ ماذا تفعلين هنا... لماذا لحقت بي...

قالت:

_ أحاول الهرب مثلك

قلت معاتبا:

_ أجننت؟

هنا تجتمع مجموعة من الغربان مع عربات كبيرة تجرها أحصنة وبدأوا بحمل جثث من ماتوا من سكان المستعمرة ليقول أحدهم بعجرفة:

_ لا تتركوا منهم أحدا، سيسعنا صنع المزيد من الكبسولات بواسطة أجسادهم !

تساءلت في نفسي هل ما سمعته صحيح؟... هل يصنعون كبسولات بواسطة جثث قتلى المستعمرة لهذا هم يحرضون على قتل بعضهم البعض ويوظفون أولئك الكلاب البشرية ليتمكنوا هم من صنع هذا المنتج بوفرة بواسطة أبدانهم الفارغة... لهذا يعيدون تأهيلهم في الصغر حتى لا ينتبه أي منهم لهذا الأمر الخطير هم فقط يقومون بالأمر السهل يحملون الجثث فقط بينما جل الأمر يقوم به أفراد المستعمرة بأيديهم.. إنهم يقدمون جثث بعضهم البعض على طبق لأفراد الحكومة... يتوجب علي إخبارهم بالحقيقة..

كنا نختبئ أنا ونجمة في زاوية من زوايا إحدى غرف ذلك المنزل المتداعي وكانت بجانبنا طاولة صغيرة الحجم فوقها مزهرية مغطاة بالغبار بسيطة الصنع نصف محطمة، كنا جالسين فوق بعض بوضعية تكسر العمود الفقري للإنسان من كمية الضغط المحملة عليه، لم تستطع نجمة كبح ضم ساقها أكثر... قام جسمها برد فعل طبيعي وهو تمدد رجلها من حظها العاثر أنها دفعت الطاولة لتتحرك تلك المزهرية بشكل لولبي وتقع أرضا ويصدر صوت تحطمها الذي وصل عند أفراد الحكومة كثيري العدد...

التفتت تلك المجموعة من الغربان حول المنزل كرد فعل طبيعي لأنهم يعلمون أنه لا حياة توجد في الخارج غير الأرقام والكلاب والأحصنة لحاجتهم الدائمة لها...دخلت مجموعة منهم للداخل حيث كنا واقتربوا تدريجيا، وقع خطواتهم كان طنانا في آذاننا مع كل خطوة يصدر صدى يخبرنا أننا أصبحنا بين أيديهم... قامت نجمة من مكانها ونظرت نحوي قائلة:

_ لن أدعهم يمسكوا بك... لأنهم لا يبحثون عنك بل يبحثون عني..

قلت لها بصوت خافت مشبع بالخوف:

_ إياك وفعل شيء متهور... إياك...

قالت بهدوء تام:

_ لو كنت مجرد شخص عادي وأتت لي الفرصة مثل تلك لأقدمت على جعل حياتك ثمنا لحياتي دون تفكير مني حتى... لكن إن تعلق الأمر بك لا يسعني فعل ذلك...

أمسكتها من يديها محاولا سحبها ناحيتي قائلا:

_ لا تفعلي أرجوك يمكننا النجاة معا...

قالت بأسى:

_ هذا غير ممكن... وإن قررنا قتالهم سنقتل لا محالة، أنا سأقوم بالخيار الأمثل لنا نحن الاثنان ثم كما قلت لك لن أسمح أن تكون حياتك ضريبة حريتي...

قامت بسحب ذراعها بقوة حتى أفلتها لتقوم من محلها وتقدمت للأمام قلت لها مترجيا:

_ لا تفعلي...

نظرت لي بضع ثوان ثم قالت:

_ كم تمنيت رؤية عينيك الدافئتين للمرة الأخيرة...

علمت أنها تكبي خلف قناعها... أكملت حديثها بكلمتين:

_ أنا أحبك...

كان هذا الموقف الأسوأ لي على الإطلاق منذ دخولي هذا العالم لم أعرف ما الذي علي فعله غير أنه أصابني شلل مفاجئ كل ما أمكنني تحريكه كان عيناي خلف قناعي، أردت إيقافها لكني حرفيا عجزت عن الحراك... صحيح إنها تغادر مثلما غادروا جميعا...خرجت لهم قائلة بصوت ثاقب:

_ أنا من تبحثون عنها، أنا صاحبة الفئة الرابعة...

انقضوا عليها مثل الوحوش الضارية أوقعوها أرضا وقاموا بضربها حتى سمعت أنينها يدخل باب الغرفة بشكل موحش لم أستطع الوقوف على قدمي مثل الرجال أصبحت جامدا في تلك اللحظة.. سمعتهم يقولون باستهزاء:

_ سنحصل على مكافأة ضخمة من الجد شخصيا لأننا أمسكنا رقما قيما مثله... أخيرا يمكننا الذهاب لقارة النعيم...

يبدوا أنها فقدت الوعي من الضرب الذي تلقته من همج الحكومة العفنة... جرها اثنان من الغربان وقاما برمي جثتها الحية مع جثث الموتى الملتقطة مسبقا... ثم ابتعدوا جميعا إلا غراب واحد رفض الذهاب معهم بقي يتجول في أرجاء المدينة... كرهت نفسي لأنني وافقت على قرار جسمي في البقاء ساكنا عادت الحركة لي بعد عشرين دقيقة وكيف

أفرغ شحنة غضبي وقهري هناك طريقة مطروحة قمت بقتل الغراب المتبقي لأخذ كبسولته انقضى اليوم سريعا... سمعت الصرخة الثالثة سأعود للمقر قبل الجميع... سأعود إليه وحيدا، عدت للمقر لأجد السكينة تعمه كأن لا حياة فيه قلت وأنا أنظر لغرفهم الخاوية:

_ لقد أخذوا جميعا... جثوت على ركبتي باكيا وقلت لقد شعرت وهم يأخذونها من بين يدي بنفس الشعور الذي أشعره كل مرة عندما أعجز عن مساعدة أبي...

***

(17)
إعلان الحرب

أخيرا لم أنم وأنا أنتظر الغد ليأتي بفارغ الصبر.. سأفعل ما أمرني به العم عارف سأقتل الغراب الأكبر... حسنا إن إمساكهم بي أمر مؤقت خصوصا وقد بقيت وحيدا لن أجعله بهذه السهولة عليهم لتكن الخطوة الأولى مني... شحنة كره شديدة تجاه هذه الحكومة أخيرا أدركت ما الشعور الذي كان يشعر به الضاحك حين سلبت زوجته منه أمام عينيه... قلت غاضبا سأنتقم لكم جميعا..

ارتديت القناع الخاص بي وتجهزت بعد الصرخة الأولى مضيت سريعا لأتجاوز الباب الرئيسي للمستعمرة كالوميض لأصل لمكان العمل كأول شخص لأن هدفي كان قتل الغراب صاحب الرقم ألف واثنين المسؤول عن المستعمرة الخاصة بنا... ولأنه يصعد بغير حراسة للمنصة بغرور منه وثقة بأن لا أحد يستطيع إيذائه من أهل المستعمرة...
سمعت أحد الغربان الصغيرة يقول:
_ أيها الغراب الأكبر لقد أمسكنا بثوري آخر مرة...
قال له بغرور:
_ احبسوه، سنعدمه نهاية اليوم مثل سابقيه...
التحق كل أهل المستعمرة الأحياء من بعدي ليصطفوا كعادتهم، بينما هو في طريقه نحو المنصة هاجمته بأربع طعنات قاتلة بغفلة من أفراد الحكومة على مستوى صدره كنت أتأكد من موته حتى فارق الحياة... ذهل كل من حظر ذلك الموقف من أهل المستعمرة وفي المقابل أبرحت ضربا حتى أغمي علي وتم أخذي ليزج بي في السجن مع الثوري كل منا على حدى...

***

عاد وعيي بعد بضع ساعات لأجد ذلك الثوري في الزنزانة التي بجانبي محدقا بي قائلا بغير مقدمات:

_ أنا لا أعرفك لكنني أمرت أن أقدم روحي بدل روحك لهذا أتمنى أن تكون أهلا لها...

كان أمامنا غرابان أمسكت لساني كي لا أعطيهم معلومات هم يريدونها وقلت له:

_ ماذا تقصد يا أنت؟

قال بلامبالاة:

_ غدا ستكون ليلتك حافلة، جهز نفسك لها...

بعد ساعات من أخذ ذلك الثوري وإعدامه في المنصة بقيت وحيدا في تلك الزنزانة منتظرا أنا الغد ومراجعا كلامه، طفت ابتسامة على وجهي قائلا:

_ سنرى...

لقد أتى اليوم المقرر فيه إعدامي في أسوأ مكان في القارة... وضعت في عربة يقودها الغراب المسؤول عن نقل الذهب وبصحبتي ثلاثة غربان فوق خيولهم ليشرفوا على عملية إعدامي... كم ساعة ونحن نمضي لا أعلم لأنني فقدت القدرة على الإحساس بالوقت من شدة الجوع والعطش وكذلك كبسولة الأكسجين تكاد تنفذ...

توقفنا فجأة ربطوا أحصنتهم في إحدى القضبان الحديدية ثم رموني أرضا قاموا بجري لعدة أمتار لأشاهد مدينة كبيرة جدا بحجم مستعمرتنا أو ربما أكثر لا تسكنها حتى الأشباح جميع منازلها منهارة تقريبا على جدرانها أقنعة معلقة مع قطع جلد الجبين البشري فوقها الحاملة لرقم الشخص، بحيث كل فئة ترتب مع بعضها بشكل متصاعد من الأسفل للأعلى... حركت رأسي يمينا ويسارا لأنتبه بعد دقائق قلت

أليس ذلك قناع الفأر الخاص بالعم عارف معلقا هناك إذن قد قتل حقا وفوقه قطعة جلد من رقمها علمت أن صاحبها ابنه إبراهيم... كانت كل أقنعة الأشخاص الذين يتم إعدامهم تجلب لتعلق في هذه المدينة الساكنة...

قال أحد الغربان بغرور:

_ أيها الرقم أنظر من حولك هؤلاء قد أعدموا قبلك وجيء بروحهم النتنة لتدنيس هذا المكان الخاص بكم أيها الشاميون... أكمل سنعلق قناعك الغريب من نوعه ورقمك في هذا المكان لا تظن أنه عند قتلك للغراب الأكبر قد تكون أنجزت الكثير غذا سينصب غيره وسيكون أكثر بطشا منه، يا لك من غبي...

أجبته مزمجرا:

_ أنا لست رقما... أنا إنسان...

قاموا بإمساكي ووضعوني أرضا أردت المقاومة لكن قواي منهكة وجسدي غير قادر على الحراك بتاتا قلت لقد وثقت في كلامك أيها العم عارف وقمت بما طلبته مني حرفيا ولست نادما، وضع الغراب صاحب الرقم ألف وأربعة عشر يديه على قناعي قائلا بسخرية:

_ اختنق حتى الموت... أيها الإنسان...

سحب قناعي من وجهي بالفعل لأختنق وأقع أرضا واضعا يدي على رقبتي، اسودت الغيوم الرمادية فوق رأسي فجأة... تسارعت دقات قلبي... تحرك جسمي بعشوائية أصبحت مثل السمكة التي تخرج من الماء... قلت في نفسي:

_ لا أستطيع التنفس... سأموت...

انطفأت كل حواسي تدريجيا وأغمضت عيني بتراخ وانقبضت رئتاي، لم أعد أشعر بشيء مطلقا كذلك حرك جسمي امتصاصها تلك الثواني ليصبح مثل المياه الراكدة قلت:

_ أهكذا يكون الموت...

لم أعرف ما يحصل من حولي لأنني فقدت الاتصال بالعالم الخارجي سمعت نبرة أحد الغربان بشكل شبه متقطع قال... أيها الأكبر إنه لا يملك رقما على جبينه ثم انقطع سمعي... تذكرت صورة إبراهيم مع أمه وأخيه وكذلك العم عارف جميعهم هناك وكانوا يلوحون بأيديهم تجاهي إنهم يودعونني ثم ذهبوا ممسكين أيادي بعضهم البعض ناحية النور المتوهج بعدهم مباشرة سمعت صوت الضاحك مع ابنته كان يلاعبها بلطف وتقبله هي على وجنتيه ردا له على الاعتناء بها بعدها أنزلها وذهبت لذلك النور أما هو فبقي ينظر إلي ويحرك فمه لم أسمعه في المرة الأولى ثم تدريجيا وصل صوته لمسامعي وهو يقول:

_ يا صاح... يا صاح... أنت مدين لي بحياتك مجددا لن أسمح لك أن تموت قبل قضاء ما عليك من ديون...

سعال... سعال... فتحت عيني بروية متحسسا القناع في وجهي بكلتا يدي... لأعلم فيما بعد أنني لم أمت عادت رؤيتي ببطء لأشاهد مجموعة من الأشخاص يرتدون أقنعة البومة واقفين فوق رأسي ومن بينهم كان هناك شخص أثار حيرتي قال لمجموعته ضاحكا:

_ إنه الشخص المطلوب يا جماعة...

هنا جاء شخص أخر نزل من على فرسه وبدؤوا بفحصي حتى أخرج تلك القلادة التي أعطاني إياها العم عارف وأخرج أخرى تشبهها فقربهما لبعضهما ليتطابقا وقال:

_ نعم إنه الشخص الذي أوصى به القائد عارف...تعالوا لقد قتلناهم جميعا...

شخص كان يلبس قناع البومة نادى ثلاثة أشخاص كانوا متأخرين عن المجموعة الخاصة بهم حيث قال آمرا:

_ قوموا بتبديل ملابسكم بملابس غربان الحكومة وتوجهوا نحو المستعمرة حتى لا يلاحظ العدو شيئا ثم اختلطوا مع سكان المستعمرات المجاورة وأوصلوا ما عليكم من الرسائل للسكان الأوائل..
أمسك بي وقال:

_ أنت من أوصى بك أبي إذن مرحبا بك في الجيش الثوري أدعى أيوب... ساعدني على النهوض بعد تخطي تلك الحالة المزرية التي كنت فيها وأشار إلى فرس جلبت خصيصا لي وقال سيقودك أحد الثوار معه كن مرتاحا لأننا سنتوجه مباشرة نحو المقر الخاص بنا ستكون رحلة طويلة وصعبة عليك لكن سنعتني بك ريثما نصل... صعدت مع أحدهم والذي كان الضاحك لم أعرفه لأنه غير قناعه لم أصدق أنه حي قال يا صاح... تمسك جيدا... تساءلت كيف نجا؟ توجهنا مباشرة دون إضاعة دقيقة واحدة... الآن سأتوجه لوجهة جديدة كليا والفضل يعود للعم عارف كوني حيا لأنه دلني لبر الأمان... سأفهم أكثر ما يجول في هذا العالم عند وصولي لمقر الثوار...

***

كنت في مؤخرة الحشد مع الضاحك بينما تخطانا الجميع بمن فيهم أيوب الابن الأكبر للعم عارف، اشتد صوت الرعد أكثر عن ذي قبل وازدادت السحب كثافة لتتجلى بلون السواد كأنها أرملة نسجت حريريها فوق رؤوسنا حيث كلما تقدمنا قدما ازداد الجو سوء بعد رحلة سبع ساعات على الأحصنة المقنعة ذات الكبسولات في الأراضي القاحلة التي تصدعت من عطشها بعدما ارتوى ترابها سابقا بدماء قاطنيها، اليوم تلك الأراضي لا يوجد بها صورة واحدة للحياة مجرد مساحات شاسعة لا معنى لها... بعد جهد جهيد وصلنا أخيرا للمقر المتواجد به الثوار بعد خروجنا من السقف الموحش الذي لازمنا طول الطريق...

تلألأ نور الشمس عبر تلك السحب الكئيبة نور خافت مر من ثقب في السماء ملامسًا وجهي لقد مر زمن منذ أن رأيته آخر مرة في يوم الجزاء الأكبر... إبراهيم والعم عارف...

توقفنا عند سلسلة جبلية ذات طابع صحراوي خشن لأشاهد أحد الثوار يختفي بين الصخور ترجل الضاحك من الحصان وتبع المجموعة الأمامية من الثوار والمتكونة من عشرين شخصا تقريبا واختفوا هم كذلك، ليأتي مباشرةً نحوي أيوب قائلا:

_ ارتجل من على الحصان يا ابن المنقذ...

أجبته مندهشا:

_ منقذ ! أليس خانق العالم مثلما يلقبونه؟

قال مطمئنا:

_ تلك القصة غير حقيقية، ستعلم كل ما عليك معرفته عندما تلتقي بالقادة...

أجبته:

_ حسنا...

مضى قدما لأمسك يديه طالبا منه التوقف للحظات قبل أن أنطق بحرف قاطعني قائلا:

_ لقد رأيت أرقامهم معلقة معا بجوار قناع أبي...لا أريدك أن تعزيني أو شيء من هذا القبيل بل أنا فخور بهما كل منهما أدى ما عليه قبل موته...

أدخلت يدي لأخرج رسمة إبراهيم التي خبأتها منذ التقاطي لها يوم موته ووضعتها في كفي يديه قائلا له:

_ أتعلم لطالما راودني الفضول من هذا الشخص الذي كان بجانب أمه، الآن أنا متيقن أنه كان يعنيك... كذلك لا شك عندي أنه أراد تسليمها لك بنفسه لكن لم تتسن له الفرصة للأسف... أخوك أحبك حتى النهاية يا أيوب...

ربت على كتفي قائلا:

_لندخل سأريك المكان...

تبدو من بعيد أنها سلسلة جبال عادية لكن عند الاقتراب منها تدريجيا وعند الجبل الموجود في الوسط تجد مجموعة من الصخور ما أن تجتازها يقابلك مدخل كبير نسبيا لا يمكنك رؤيته إلا إذا كنت فطنا ودقيق الملاحظة فلولا أيوب لما أدركت وجوده... مشينا بضعة أمتار.. وجدت نفسي في الداخل بينما نحن نتوغل للأسفل وعند نقطة معينة نزع أيوب قناعه بتهور صرخت في وجهه:

_ هل جننت... أتريد أن تموت؟

ضحك قائلا:

_انظر عن كثب؟

بزغ في الأفق مجموعة من أشخاص كثر يتحركون ويصدرون أصوات وصلتنا مثل الهمس تدل على أنهم يتكلمون فيما بينهم ثم يعودون للحركة كأننا وسط خلية نحل لا يتوقفون عن الحراك مطلقا، هناك أمر مختلف وغير اعتيادي تساءلت مندهشا:

_ لماذا لا يرتدون أقنعة؟

قال أيوب:

_ يمكنك نزعه، هنا أسفل الجبل يوجد الأكسجين الذي يسمح لنا بعدم ارتدائه إلا عند خروجنا

قلت له:

_ لكن أخبروني أنه لا يوجد أكسجين في هذا العالم؟

قال لي:

_ صحيح، هذا المكان كان مثل غيره سابقا وفجأة أصبح به أكسجين ليعلم بأمره أحد القادة فأخذناه ملجأ لنا...

نزعت قناعي للمرة الأولى بلا خوف من الموت مستنشقًا نفسا ملأ رئتي على آخرهما، تلذذت شعور الهواء وهو يغادر أجهزتي التنفسية ببطء قائلا:

_ لطالما تمنيت هذا الإحساس المريح الذي افتقدته منذ زمن بعيد... يا لها من نعمة كنا نجهل قيمتها يا رجل...

قال مستعجلا:

_ هيا لنذهب للقادة هم بانتظارك على أحر من الجمر...

بينما كنا نمشي سمعت هتافات تأتيني من كل الأشخاص المتواجدين داخل الجبل وكذلك كلمات مرحبا يا ابن البطل... لقد كنا في انتظارك... و تصفيقات لا تكاد تنضب... اندهشت مما يصنعون... طرحت سؤال على نفسي:

_ أي الأشخاص هو والدي وأي شخص هو أنا؟

وصلنا لغرفة مصنوعة بطريقة بدائية حيث وجدنا ثلاثة رجال العنصر المشترك بينهم كلهم يتخطون الستين سنة ولا يملكون رقما على جبينهم مثل البقية يجلسون على طاولة حجرية دائرية الشكل أولهم كان أسمر البشرة ذو شعر أسود عيناه سوداوان لديه شارب كثيف وعلى وجهه العديد من التجاعيد يدل على أنه لم يبتسم منذ زمن يلقب بإسماعيل والثاني شخص طويل الوجه وجهه لا يدل على كبر سنه أذناه كبيرتان قليلا عيناه سوداوان حادتان وعلامات وجهه لا تنبئك عما يفكر فيه واسمه أسعد... أما الثالث فشخص بشوش الوجه أبيض البشرة شعره الأسود طويل يصل لكتفيه عيناه دائريتان شديدتا العتمة مع لحية خفيفة على وجهه الدائري ويدعى فؤاد...

قال المدعو فؤاد بلطف مشيرا بيديه:

_ تفضل مكانك شاغر لتملأه من فضلك... وأمر أيوب بالخروج...

جلست في ذلك المجلس لأرى أسعد غير ملق بي اهتماما من الأساس وإسماعيل يراقبني بعمق حتى أدخلت نظراته الرعب في روحي، قلت في نفسي:

_ أكيد هو صاحب فكرة قناع البومة للجيش الثوري لأن نظراته ثاقبة مثلها...

حاول فؤاد تلطيف الجو قائلا:

_ أيها السادة... لقد انتظرنا هذا اليوم طويلا بفضل هذا البطل سنملك اليد العليا على حكومة القارة الظالمة وسنسترجع أرضنا...

قال إسماعيل بحزم:

_ أيها الولد هات ما لديك...

بلعتُ لعابي قائلا:

_حسنا، سأحكي لكم قصتي وكيف أتيت لهذا العالم... بينما كنت أسرد قصتي حظيت بانتباه منقطع النظير من أسعد وإسماعيل كان يشك بي على ما أعتقد من تحديق نظراته...

قال فؤاد مبتسما:

_ علمت هذا لقد أرسل مالك إيفان ابنه للعالم الآخر ونهك قواعد أسلافنا فقط من أجل أن لا تكون له نقطة ضعف هنا، إذن فقد قلت لي أنه هناك شخص أرسلك غصبا عنك لهذا العالم...

نظر ثلاثتهم لبعض وقال أسعد بشغف وعيناه تلمعان:

_من أجل المفتاح الرابع...

بدأ بصفع نفسه بلا توقف حتى أمسكه فؤاد قائلا:

_لا تتحمس يا رجل عليك التصرف بعقلانية أنت أحد القادة الكبار تذكر مكانتك... طلب العذر مني قائلا أنه عندما يتحمس يصفع وجهه...

أكمل قائلا:

_أمعك المفتاح يا فتى...؟

أجبته ناكرا:
_لا أنا لا أعلم عمّ تتحدّثون؟
انتفض إسماعيل من مكانه بلمح البصر ورماني على الأرض بحركة خاطفة كأنه شخص في الثلاثين من عمره وقام بثني ذراعي خلف ظهري وبدأ بالتفتيش في كل أنحاء جسدي بوصة بوصة لم يعثر على أثر لذلك المفتاح المزعوم بحوزتي... طلب منه فؤاد تركي وفعلا ساعدني على الوقوف.. أعود لأجلس مكاني قائلا:
_اعذرني مجددا، إنه من الأشخاص الذين لا يتحكمون في غضبهم وطوال الوقت جاد...
أكمل وهو ينظر لعيني بثقة:
_سنجده، أليس كذلك يا ابن البطل...
تنهد قليلا ثم قال بابتسامة:
_دعني أوضح لك بعض الأمور... أولا نحن لسنا ثلاثة قادة بل كنا أربعة ورا بعنا هو عارف والذي بقي داخل المستعمرة طوعًا منه يقدم لنا المعلومات التي تلزمنا عن كيفية تحرك حكومة القارة وكيف نتصدى لها كما تعلم لقد أعدم في فترة ليست ببعيدة... أتعلم لقد ضحينا بعدد ليس بقليل منا حتى نعرف مكان الإعدام المخصص لأولئك الأوغاد المسألة أصبحت مرهونة بالوقت ليتمكنوا من معرفة أننا على علم به، لقد ألح علينا عارف في رسالته الأولى قبل موته وأطلق عليها أمنية قبل الأخيرة كانت إنقاذ ذلك المعتوه الضاحك حين نقله لذلك المكان أما في رسالته الأخيرة أراد منا إنقاذك لأنه أدرك أنك ستعدم في نهاية المطاف وترك دليلا يدل عليك لهذا طلب منا ارسال العديد من الثوار ليكونوا قرابين للحكومة حتى يعدموا مكانك وتنجو أنت... لقد ضحينا بخمسة ثوار منا حتى نتمكن من جلبك اليوم وبالمقابل لقد جلبنا خمسة من أهل المستعمرة لحسن حظك لم يمسكوا بعد بأولئك الثوار الذين يرتدون أقنعة الغربان...

تأسفت لما سمعته حقا لكن هناك سبب وجيه لفعل كل ما ذُكر، أتذكر في إحدى الليالي حين كنت أضع المرهم على كتفه المصاب قال لي مباشرةً:

_ بني، هل تثق بي؟

أجبته قائلا:

_طبعا أثق بك أنت ونجمة...

قال بلا تردد:

_قريبا جدا ستكون في مكان جديد تماما غير هذه المستعمرة سيتم إنقاذك من الإعدام بمساعدة مرتزقة وحين تصل لذلك المكان لا تثق بأحد عدا شخص سيسبقك لهناك وأعطه ما تملك فور لقاءك به بدون أن يلاحظه أحد... أكمل عدني يا إياد أنك ستغير مجرى التاريخ لصالحك...

قلت له:

_أنت تمزح صحيح... التفكير في أنني سأعدم مثل أهل المستعمرة يوما ما يجعلني أشعر بالتقيؤ...

أكمل بحزم:

_كن حذرا من تلك الفتاة ولا تثق بها كثيرا لأنها تخفي عنا سرا عظيما...

***

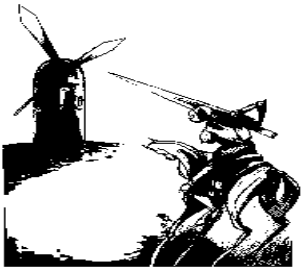

(18)
الشامي

عدت لحاضري عندما خاطبني القائد فؤاد قائلا:
_ سأحكي لك قصة توارثناها من أسلافنا القدامى عن تكوين هذا العالم حتى تكون على علم بما نحن مطلعين عليه، لا نية عندي لإخفاء حقيقة يعلمها الجميع لأنها تدور حولك أيها الفتى..

قديما كان هناك عالم واحد يجمع البشر جميعا مع بعضهم البعض في ألفة وسلام وتناغم فيما بينهم كان هناك العديد من العائلات والأعراق المختلفة التي تتعايش بالقرب من بعضهم بانسجام لا مثيل له والفضل كله كان للشجرة المباركة والتي كانت استثنائية كما قيل أن حجمها بحجم الجبال، أغصانها تمتد لمسافة كبيرة من الكيلومترات لتغطي مساحات شاسعة بظلالها الباردة كذلك أمكنها إنتاج جميع الفواكه والخضروات بشتى أنواعها بشكل دائم وكانت لديها أحاسيس ومشاعر مثل البشر بحيث إن قدمت فواكه بوفرة فهي سعيدة اليوم وإن قدمت عدد ضئيل من الفواكه مع تساقط أوراقها الصغيرة فهي حزينة أيضا كانت مسكنا لكل طيور العالم ... كانت روح العالم في الماضي ومركزه، لكن الطريقة التي تسقى بها لم تكن طبيعية فقد كانت تسقى بدماء طفل حديث الولادة مرة كل سنة تختاره بحيث يوضع كل المواليد أسفلها وعند سقوط ورقة منها فوقه يُختار لينحر بواسطة أبيه حتى يقدم كقربان من أجل استمرارها في العطاء المستمر، قيل كذلك أنه إن أصابها مكروه ستحدث كارثة تصيب العالم أجمع وتقلبه رأسا على عقب...

معظم الرجال في ذلك الزمان كانوا يملكون عددا كبير جدا من الأولاد فقط لينال أحدهم شرف نحر ابنه ليصبح أحد نبلاء عالمه، لقد

تسابقوا لهذا الحدث لعدة عقود منهم من أصبح نبيلا ومنهم المنتظر ليقع الاختيار على ابنه...
كانت مكانة الرجل تقاس على ثلاثة مراحل.. الأولى طبقة النبلاء والتي تختار الشجرة ابنه فيرتقي للمرتبة العليا أما الثاني الذي لديه أبناء ويطلق عليه الخادم بحيث يعملون لدى النبلاء و بإمكانهم أن يصبحوا نبلاء فور اختيار الشجرة لأحد أبنائهم أما الطبقة الثالثة والأخيرة المنبوذون فهي للذين لم يرزقهم الله أطفالا والتي كانت شبه معدومة تقريبا...

مضت سنوات عديدة حتى كادت تندثر الطبقة الثالثة لولا وجود رجل واحد يدعى الشامي هو الشخص الوحيد فقط في العالم أجمع لم يكن له أطفال أي أحقر شخص حينها في مجتمعه، كان يتعرض للسخرية طيلة خمسة عشر عاما يوميا بلا توقف من السكان المحيطين به... أصيب بعجز وحزن شديدين من سخرية الناس منه، لكن أكثر ما كان يعصر قلبه حسرةً عندما يرى أطفال الغير يلعبون بجانبه يقولون كلمة أبي بشكل متواصل...لم يكن يريد إنجاب طفل ليصبح نبيلا مثل أفراد مجتمعه بل أراد طفلا ليعرف ما معنى إحساس الأبوة... إحساس العائلة المتكاملة... إحساس السعادة الحقيقية

مضت أربع سنوات وبفضل من الله حملت زوجته بعد انتظار تسعة عشر عاما بعدما كان قد فقد الأمل نهائيا، أصبح يركض كل يوم وهو ينادي سأصبح أبا... سأصبح أبا... حتى وصل يوم ولد ابنه والذي تصادف مع يوم النحر المبارك للشجرة المباركة... حمل ابنه الرضيع حديث الولادة رغما عنه والأسى ينهش روحه قضمةً قضمة لا يريد الذهاب لكنه مجبر على ذلك... خاطب نفسه قائلا:
_ أتمنى ألا أجبر على نَحر ابني الحبيب الذي انتظرته تسعة عشر عاما...

وصل ووضع ابنه مع عشرين رضيعا بجانبه... كان هناك حشد كبير للغاية ليراقب الحدث السنوي سمع بعض الأشخاص يقولون بحسد:
_ يا له من محظوظ ذلك الشامي يمكن أن يصعد من كونه آخر شخص في الطبقة الدنيا إلى الطبقة العليا مباشرةً...
كل الأشخاص الذين بجانبه كانوا يتمنون وقوع الورقة المباركة على أبنائهم إلا الشامي الذي كان يبكي ويناجي الله لكي لا تقع الورقة على ابنه الوحيد...
بالفعل أطلقت الشجرة تلك الورقة الصغيرة من أغصانها كان الجميع يتابعها بتمعن وهي تتلولب في الهواء وتتحرك برعونة شمالا ويمينا حتى تختار أحد الرضع...

ما حدث أنها وقعت على ابن الشامي الذي صعق عندما شاهدها وهي تتوقف في يديه الصغيرتين وقام بإمساكها، تعالت الصيحات من كل جانب الأولى لتهنئته على كونه أصبح أحد النبلاء بالفعل والثانية تلعن حظهُ العظيم الذي مكنه من أن يصير نبيلا بين ليلة وضحاها...

تقدم بخطى ثابتة ممسكًا سكينا مثل التي بحوزتنا اليوم... تمنى توقف الزمن أو الهروب لكن لو رفض فعل ذلك ستقطعُ الشجرة المباركة خيرا تها على الناس وهذا ما يرفضه أهل العالم، أمسك به بينما هو يُلاعب أباه لأول وأخر مرة ويُلامس وجهه بيديه الناعمتين تقاطرت من سماء عينيه بضع دموع لتتزحلق على وجه ابنه الصغير، أمسك به واحتضنه برفق مصدرا صراخا أسكت هتافات كل المتواجدين هناك... صراخ يمزق الأفئدة مما يحتويه من ألم ولا يعلم ألمه إلا من حرم نعمة الولد... صراخ في طياته يقول لماذا اخترت ابني أيتها الشجرة اللعينة... صراخ لا تكفي كلمات الدنيا لوصفه...

نحر الشامي ابنه الوحيد سريعا حتى لا يتألم أسفل الشجرة رافعًا وجهه المغطى بالدموع، تمركز نظرهُ المدجج حقدا على الشجرة المباركة قائلا:

_ سأنحرك... هنا كانت الطفرة التي قسمت العالم نصفين...

أصبح الشامي نبيلا ورزق بطفل آخر ثم بدأ يقوم بتأسيس مجموعات تحرض على قطع الشجرة المباركة مرسخًا معتقد أن البشر هم أسمى المخلوقات وليست تلك الشجرة التي تعطي بالمقابل...وقد جذب في صفه كل النبلاء تقريبا لأنه استغل جشعهم وشهوانيتهم التي تتمحور حول كلمة... المزيد...

نشبت حرب عظمى سميت بالحرب الظالمة... بين مجموعتين من البشر الأولى تريد حماية الشجرة وكانت الأقلية وأغلبها من الطبقة الخادمة أما الثانية كانت طبقة النبلاء والجهة الأكثر كفاءة وقوة...

استمرت الحرب بين الطرفين ساعتين حتى تعرض الطرف الأول للخيانة بواسطة أتباعه من الخدم الذين باعوا مبادئهم ليصبحوا نبلاء بعد وعود الشامي لهم... انهزم الطرف الأول ونجا منه مجموعة معينة فقط كانت لا تستطيع الحراك بسبب أثر تلك القوة الغاشمة من طرف النبلاء...

أخيرا انفرد الشامي وجماعته بالشجرة المقدسة التي كانت تتساقط منها الأوراق دلالةً على حزنها اليوم... نظر إليها قائلا بصوت مرتفع:

_ سأقطعك بنفسي اليوم...

أخرج سكينه ثم غرسها في جذعها بتعسف... أتى صراخ من شدته طارت جميع الطيور من أعشاشها، سحب سكينهُ وجدها ملطخة بدماء قال وهو يغرس سكينهُ تواليا بشدة بعدما استشاط غضبا:

_ هذه دماء بني الطاهرة اليوم أخرجها منك... دماء بني... دماء بني...

بعد أن سمع صوت بكاء الشجرة المباركة والذي كان أشبه بصوت امرأة تبكي على فراق زوجها... توقف أمرا أفراد جيشه بجلب المناشير العملاقة المصنوعة خصيصا لهذه العملية بحيث في كل منشار يمسكه خمسون شخصا...استمر قطعها أسبوعًا كاملا وتوقف صراخها في اليومين الأولين...

لحظة سقوطها سمع الجميع صوتا أشبه بصوت امرأة عجوز تقول:

_ لقد قُطعت... ستحل عليكم اللعنة... انقسموا إلى جزئين...الجزء الأول أسمتهم الأخيار... أما الجزء الثاني أسمته الأشرار...

ما قيل لنا أنه تم فصل العالم لعالمين، الأول حيث كنت متواجد فيه أيها الفتى كما قلت وهو العالم الذي جُمع به الأشخاص الذين دافعوا عن الشجرة قبل قطعها ليعيشوا فيه... أما الثاني فهو عند موضع قدميك... عالمنا هذا... أنت مع أقبح أصناف البشر... أليس كذلك!

أكمل بعد تلك الحادثة تم نفي الشامي وابنه مع أقربائه الذين يحملون دمائه لهذه القارة بمعنى آخر أصحاب العيون السوداء والشعر الأسود هم من نسله... نسل الشيطان الذي زعزع أمان العالم لهذا قد رأيت بعض الأشخاص راضخين لموتهم بسهولة هم يعتقدون أنهم يكفرون أخطاء جدهم الأكبر بهذه الطريقة الحمقاء...أما النبلاء فإنهم يسكنون في القارتين المجاورتين لنا، ويقومون بمعاقبتنا حسب ظنهم.. على خطأ لا دخل لنا به...

قلت في نفسي محتارا:

_ أشرار وأخيار أتذكر أنه في عالمي هناك مجموعة من الأخيار والأشرار مثل مروان... وكذلك في هذا العالم توجد مجموعة من الأشرار والأخيار مثل نجمة والعم عار والبقية... غير منطقي...

أكمل فؤاد قائلا:

_ ويمكن الانتقال بين العالمين وفق شروط معينة، نسبيًا هما عالم واحد لحد الآن وفصل بينهما بأبواب معينة ومثل كل باب يفتح يجب توفر

المفتاح الخاص به الذي قامت بصنعه الشجرة المباركة لحظة سقوطها وإلقاءهم عبر القارات الأربع... سألني:

_ أتعلم ماهي الأبواب المؤدية لعالمكم ؟

أجبته مندهشا مما سمعت:

_ لا ،لا أعلم...

أجابني مبتسما:

_ إنهم البشر... من نسل الشامي خصيصا... وحين يستخدمون هكذا مصيرهم الموت... هم ملعونون...

جثوت على ركبتي ورجعت بي الذاكرة لذلك الحلم الذي لم يتركني وشأني في لحظة داخل الكهف عند فرار عمر مع ذلك الطفل الصغير ليلتقيا برجل مكبل داخله... متأكد الآن ذلك الطفل هو أنا... إذن لقد قتلت ذاك الشخص حين قربت المفتاح نحو جسده... تبا... تبا... أنا قاتل بالفعل... أنا أحد أشرار هذا العالم.

قاطعنا إسماعيل قائلا:

_ أنت أخبرنا كيف وصلت لهذا العالم ؟

قلت له بعدما ساعدني فؤاد في النهوض:

_ عبر شجرة غريبة الشكل...

قال أسعد وهو يصفع وجهه:

_ هذا منطقي أربع بوابات وأربع أشخاص كأضحية وأربع أشجار مباركة في عالم الأخيار وأربع مفاتيح...

خاطبه إسماعيل غاضبا:

_ يكفيك حماقة...

قال فؤاد:

_ حسنا سأطلعك على أخر معلومة في حوزتنا... أظن أنك رأيت تلك الأرقام الموضوعة في الأقنعة وفي أجبنة الناس... تلك ليست فقط كرقم تعريف على صاحبها بل هي كذلك رقم تسلسلي يدل على الأشخاص

الذين يمكن فتح الباب بهم للمرور للعالم الثاني بواسطتهم... ببساطة العشر عائلات الأولى هم الأكثر أهمية لحكومة القارة لأنهم من نسل الشامي مباشرة وإذا انقرضوا فإن اللعنة تنتقل لدماء الأقرب لدمائه مثلا للعائلات المحصورة من عشرة لغاية العشرون وهكذا... وبما أن هناك أربع بوابات فالعائلات من الرقم واحد حتى الأربعة هم الأكثر أهمية بين جميع المستوطنين بالنسبة لحكومة القارة وفي الأساس هم يعيشون مع النبلاء في القارات المجاورة...

فقدت حاسة الشعور بالمحيط الخاص بي بحيث الكل أصبح يتحرك ببطء أشاهد فم القائد فؤاد وهو يتحرك مع عدم سماعي لكلامه ونظرة إسماعيل التي تجمدت في محياه مع تلويح أسعد ليديه... قلت متجهما:

_ نجمة !

***

(19)
قارة النبلاء

على عجلٍ خرجت من ذلك المجلس لأجري فقط، الاتجاهات أصبحت كلها اتجاها واحدا بالنسبة لي... بعد مدة تعبت من الجري خلف خيال نجمة الذي تهيأ لي أني سأجده هنا... وضعت كفي على ركبتي قائلا:

_ إذن ذلك الإعلان في المستعمرة لم يكن يعنيني بل كان على نجمة... كانت على حق في قولها... يا ليتني علمت أنها هي المستهدفة لقدمت نفسي مكانها... يا لها من غبية...

ارتفعت ضحكات على يميني أمكنني تمييزها إنه الضاحك مشى قربي قائلا:

_ أنت تتألم لأن حبيبتك مفقودة لقد سمعت أنهم أمسكوا بها، أنا أكثر من يفهم شعورك يا صاح...

نظرت له بغضب وطلبت منه أن يتركني وشأني، يكفيني ما سمعته من قبل القادة...ابتعد عن وجهي ليست لي الرغبة لتبادل أطراف الحديث معك..

أخرج المفتاح من جيبه ضاحكا:

_ انظر لقد رعيته لك سالما كما طلب ذلك العجوز مني...

رماه ناحيتي لألتقطه وأرجعه لداخل جيبي ثم أخرج ورقة مطوية من جيبه.

قائلا:

_ أتعلم يا صاح... لنا هدف مشترك علينا توحيد قوانا...

أكمل أنت مذهول من كوني حيا أرزق للحظة، لكن صدقني يا صاح ذلك العجوز داهية في وضع الخطط لقد أخرجني من هنا بعدما ضحى بابنه من أجلي في المخرج الرئيسي ليرسل معه رسالة أخذها أحد الثوار للجيش

الثوري قائلا فيها أنقذوا الشخص الذي سيعدم بعد يوم التفتيش الروتيني... ضرب عصفورين بحجر واحد الأول ضمن صوتي حتى لا أفصح عنه لأنني علمت كونه ثوريا بعد الإشارات التي تلقاها من الثوري الآخر على منصة الإعدام... ثانيا هو لم يكن يريد حمايتي استخدمني فقط كوسيلة لإيصال رسالة ثانية بخصوصك حتى يتم إنقاذك واشترط علي أن أكون مع المرتزقة الخاصة بإنقاذك...

الرسالة الثالثة طلب مني تسليمها لك شخصيا عند وصولك سالما لمخبأ الثوار... رماها لي لألتقطها خبأتها حين ناداه أيوب قائلا:

_ أيها الضاحك تعال ساعدنا لقد تمكنا أخيرا من إمساك خمسة من الغربان الذين وجدناهم أمام أرضنا...

ودعني ضاحكاً كعادته وهو يقول:

_ أراك في الأرجاء يا صاح...

فتحت تلك الرسالة محاولا قراءتها، كتب فيها التالي:

_ إياد إن كنت تقرأ هذه الرسالة الحمد لله على سلامتك واعذرني لأنني تحركت لوحدي دون إخبارك لكن كان علي ذلك للحفاظ على حياتك وأيضا لتكمل المهمة التي أوكلت لي ولإبراهيم... سألتك في أول لقاء لك عن فكرة مساعدة الآخرين ورددت إيجابا شعرت أنك شخص ذو قيمة وتأكدت من هذا حين قرأت تلك القصاصة الورقية منذ أول يوم لك بيننا... إنك ابن مالك إيفان، حسنا إن أردت فعلا مساعدة أهل القارة الأم عليك إيجاد شخص معين وقتله مباشرة ذلك الشخص هو بينكم الآن وربما هو يراقبك وأنت تقرأ هذه الرسالة ذلك الشخص حبسني في الداخل ومنعني من الخروج لأقضي ما تبقى من حياتي بين أسوار المستعمرة لأنه يعلم جيدا أنني سأعثر عليه وما فعله أنه قد هددني بقتل ابني الأكبر أيوب الذي أخفيته سرا عنكم.. ذلك الشخص هو المسؤول الرئيسي عن كل ما يحصل في القارة وسكانها منذ سبعة

وعشرين سنة.. اعثر عليه بمساعدة الضاحك لا تتحرك وحيدا، ذلك الشخص يا إياد هو عمود القارة الأم إنه بينكم... سيتأكد وجوده إن تمكن جيش حكومة القارة الأم من معرفة موقعكم وغزوكم خلال ثلاثة أيام كأقصى تقدير لأنك مهم جدا بالنسبة لهم وسيفعلون المستحيل للحصول عليك كن حريصا على نفسك يا بني الغالي...

ابتلعت تلك الورقة وارتجفت في موضعي إذا صدق ما قيل بجوف هذه الرسالة ستحدث كارثة... و بالعودة لتلك القصة التي قالها القائد فؤاد سابقا أنا وتلك الشجرة المباركة نتشارك نفس الاهتمام من كلا الطرفين... لا أريد أن يقتل أحد بسببي... سأسعى لأجد هذا الشخص في أقرب فرصة تتاح لي... لكن سأتأكد من وجوده بيننا حين أسمع التالي...
مضت أربع ساعات كنت أراقب كل فرد على حدى محاولا معرفته، قلت مستحيل كيف سأعلم من يكون، هناك ما يقارب العشرة آلاف من الثوار يعيشون أسفل هذه السلاسل الجبلية لن أعثر عليه بالمراقبة وحدها يجب أن أتقدم لعلي أجد دليلا يقودني إليه... كنت أمشي لأجد أيوب أمامي طلبت منه أن يطلعني على مقر الثوار لأنه أثار فضولي حوا سبب تواجد الأكسجين فيه كنا نتمشى في الأنحاء بينما أنا أراقب بعيني كل فرد وخصائصه، ارتطمت بشخص أوقعته أرضا بغير قصد مددت يدي نحوه قائلا:

_ اعذرني يا عم لم أرك...

قال:

_ لا بأس يا بني...

بينما أحاول سحبه ليقف توارت على مخيلتي بعض الأحداث في الماضي قلت له بحيرة:

_ ألم نلتق من قبل؟

قال نافيا:

_ لا يا بني هذه المرة الأولى التي ألقاك فيها...
طلبت المعذرة منه قائلا في نفسي:
_ نهش الشك رأسك يا إياد...
غدا سنرى إن صدق العم عارف في كلامه... حل الغد على خبرين كلاهما أبغض من بعض أولهما فرار تلك المجموعة من الغربان التى أمسكت أمس أفراد الحكومة مع قتل مجموعة من الثوار كان بينهم القائد فؤاد... لقد كان مستهدفا... أما الثاني فقد جاء بعد رؤية الثوري المتخصص بمراقبة المستعمرات حيث رأى جيش الحكومة يعد عدة جنوده الذين تبلغ أعدادهم الخمسين ألفا تقريبا... تيقنت أن ما قاله العم عارف صحيح ولا غبار عليه هناك خونة بيننا وسيوقعون بنا إن لم تحدد هويتهم...
طلب إسماعيل بعجلة الاجتماع فورا على تلك الطاولة وقال غاضبا:
_ بحق الجحيم كيف أمكنهم تحديد مكاننا وكذلك من الذي فك وثاق أسرانا، بيننا خونة يشربون وينامون معنا في نفس المكان من قعر تلك الحكومة القذرة... لقد قتلوا فؤاد العقل المدبر لخطط الجيش الثوري في حالة وقوع حرب كالتي نحن على أعقابها...
أكمل صارخا في وجهي:
_ سنهلك بسببك أيها الفتى لماذا لم تُعدم وتُرِحنا منك...
ابتلعت جرعة كلماته المرّة لأنني أعلم كرهه الواضح تجاهي مع جهلي السبب بالطبع فضلت عدم الرد
قال:
_ أيوب ستصبح القائد البديل أتمنى أن تكون ورثت البعض من حنكة والدك وإلا سنهلك، قُد الكتيبة اليمنى وأنا أقود الكتيبة الشمالية سيصلون بعد أربعة وعشرين ساعة...
قال أسعد:

_ جنودنا مدربون جيدا لو أننا استطعنا مواجهتهم في يوم الجزاء الكبير كان يمكن مجابهتهم حتى لو فاقونا عددا وعدة... أنا سأتولّى القيادة من الداخل إذا... انصراف...

كان الجميع يستعد للحدث الأكبر هذه الواقعة ستقرر مستقبل القارة إما الانتصار المستحيل أو الموت مرفوعي الرأس في الحرب...
كأنما للوقت يدين موضوعتين على رقبتي تقومان بخنقي لا أعرف ما أصنع لماذا أيها العم عارف وضعت حياة سكان القارة أجمع على كاهلي... كنت أقول إن أمسكت العمود وبما أنه مقدس لديهم سوف أرغمهُ على جعل جيشه يوقف الحرب نهائيا... أين تختبئ أيها العمود..
تأهب الجيش الخاص بنا ووضعوا أقنعتهم ليأتوا بالمخزون الاحتياطي من كبسولات الهواء التي تم جمعها لمدة سنين من أفراد الحكومة أمام المخرج المؤدي للخارج فلا نعلم كم ستدوم هذه الحرب يوم أو يومين... لا يمكنني إيجاده انتهى أمرنا قد يكون اختلط مع الثوار في الخارج أو أخفى نفسه... سمعت صوتا من ورائي كان صاحبه الضاحك:
_ يا صاح بهذه الطريقة لن نعثر عليه...
قلت:
_ لا وقت لي للحديث معك.
أكملت طريقي ليمسك بيدي وهو يضحك قائلا:
_ دع أمر إيجاده لي، هناك طريقة بسيطة وفعالة ستمكننا من إجباره على إظهار نفسه غصبا عن أنفه... هدفنا مشترك يا صاح.. وهدفه هو الإمساك بك...
قلت له صارخا:
_ لا تستهزئ بي يا هذا... كيف ستجده...
قال ضاحكا:

_ بما أنه يراقبك سيكون مرتاحا، ما يتوجب فعله هو اختطافك... أنا أسف يا صاح

قبل أن أتكلم حتى ناولني ضربة أسفل رأسي أفقدتني الوعي... كنت أطفو في السماء بينما أشاهد ذلك الحلم المزعج قائلا دعني أرتاح منك...

هنا انتبهت لردة فعل إحدى الغربان الذين طردونا قبل سبعة وعشرين سنة لقد رأيتها... هذه هي لقد علمت هويتك أيها الوغد...

اللحظة التي عاد فيها وعيي أخبرني الضاحك أن جيش الحكومة على الأبواب لقد وصلوا يعني أنني كنت فاقدا للوعي لعشرين ساعة.

قلت مخاطبا الضاحك:

_ هلم معي لقد عرفت هوية العمود يمكننا إيقاف الحرب إن عثرنا عليه...

ضحك الضاحك قائلا:

_ الحرب قد بدأت فعلا يا صاح...

***

اجتمع الجيشان في أرض كلها فراغ كأنها جعلت خصيصا لتحتضن هذه الحرب كانت الغيوم رمادية وصوت الرعد الغاضب فقط من يقتل السكون بين كلا الطرفين... الحركة الأولى ستكون من نصيب أيهما لا أحد يتوقع... من سيكون المقصلة التي تقطع عنق الآخر لا يمكننا التنبؤ كذلك...

نزل الغربان الذين امتطوا أحصنتهم وتراجعوا للخلف بينما تقدمت مجموعة من الوسط للمقدمة كانوا سكان المستعمرات، يريدون استعمالهم كخط أول للجيش... صحيح بالنسبة لهم حياتهم بلا قيمة هم فقط أدوات يتم استخدامها لمصالحهم الجشعة لترمى في نهاية المطاف

بينما الأمر مختلف تماما في الجهة المقابلة لا أحد يريد قتل أفراد عائلته بيديه هذا زحزح رغبة القتال لديهم...

قال إسماعيل:

_ يا لهم من أوغاد...

ما زاد المعركة عبء مناداة ثوري من الخلف للقائد إسماعيل:

_ أيها القائد، شخص ما حطم الكبسولات الاحتياطية التي لدينا!

لقد تم حصرنا من كلا الطرفين إن أردنا قتالهم سيتوجب علينا قتل أهلنا لنصل لهم منهكين وسنكون لقمة سائغة أو ينتظرون حتى تنفذ الكبسولات التي بحوزتنا فنعود مجبرين لداخل السلاسل الجبلية الخاصة بنا ليتم الإغلاق علينا... ماذا سنفعل... على هذا المنوال سنخسر الحرب...

***

صعدنا لتلك الغرفة المخصصة للقادة لنجد أسعد ممسكا أحد الغربان مربوطا من يديه وقدميه جالسا في مكان القائد فؤاد وكان معه ذلك الشخص الذي صدمته في السابق يبدو أنه مساعده الشخصي...

صرخ على ذلك الغراب قائلا:

_ تكلم أين المفتاح... أيها الرقم اللعين...

قلت له:

_ إذا لقد أمسكته قبلي... أحسنت أيها القائد، لكن منذ متى تُلقب الغربان بالأرقام...

قال وهو يصفع وجهه:

_ كلاهما على نفس الشاكلة من نسل الشيطان...

قلت له:

_ حسنا أخبرني ما اللقب الذي تريدني إطلاقه عليك... أسعد... القائد الثالث للجيش الثوري أو عمود القارة؟

اندهش مما نطقت ليضع يديه على قناع الغراب الجالس أمامه، تأجج غضب الضاحك وأصبح يضحك بقوة وتقدم بخطى ثابتة وهو يقول كنت أشك فيك سلفا لأن صدى صوتك لم يغادر أذني لكنني أردت التأكد سأقتلك وأنتقم لابنتي أيها الوغد... عند مهاجمته كشف عن قناع الغراب ليظهر شخص لم أكن أتوقعه نهائيا... إنها نجمة...

قال أسعد وهو يصفع وجهه:

_ إن تحركت سأدق عنقها...

أمسكت الضاحك بقوة كادت تحطم عظم يده لأظهر كذلك نية القتل في عيني لقد أوقد نار غضبي لتصل لأقصى درجات الحرارة قلت له:

_ لماذا أحضرتها إلى هنا...

قال باستحقار:

_ تلك المجموعة التي تم إمساكها من قبل الثوار كانت مهمتها الأساسية قتل القائد فؤاد مع بعض أتباعه حتى نتمكن من الفوز في الحرب وإدخال هذا الرقم بالغ الأهمية بطريقة لا تجعل أحدا يشك بي...

قلت له غاضبا:

_ اسمها نجمة وليست رقما... لماذا أحضرتها إلى هنا؟...

كان فمها مغلقا بفعل قطعة قماش نظرت إلي باكية تحاول قول كلمة... ساعدني... ثم أمسك تلك القطعة الملفوفة على جبينها قائلا سأجيبك:

_ نزعها... ليظهر رقم الفئة الرابعة الرتبة التاسعة والتسعين هي آخر ما تبقى في عائلتها... أدلف قائلا سأستخدمها للذهاب نحو العالم الثاني بعدما أحصل على المفتاح الذي بحوزتك...

أكمل قائلا:

_ لنعقد صفقة يا فتى يمكنك إعطائي المفتاح وبعدها سنتمكن من مغادرة هذا العالم المشؤوم... بالطبع أنت مشتاق لعائلتك المتواجدة في العالم الموازي لنا... ليست صفقة سيئة أليس كذلك...

كانت هذه أقبح طريقة أمكنني تصورها والتي بفضلها سأرجع بها لأمي المقعدة وأبي العاجز، سيتوجب علي أن أقتل من أحب لألقى من أحب يا لها من معادلة لا تحتمل إلا حلا واحد... لا أريد قتل نجمة لأنها تريد أن تعيش وتفي بوعدها لأمها... يا إلهي ساعدني هذا أصعب قرار سأتخذه طوال حياتي... ماذا سأختار...

***

إن بقينا هكذا سنهلك، ما العمل أيها القادة؟... لقد بدؤوا التقدم مختبئين خلف أهلنا سيصلون لنا بعد عشر دقائق بهذه الوتيرة ماذا سنفعل سيتوجب علينا قتلهم للوصول إليهم... أطبقوا علينا الخناق أكثر ماذا سنفعل...

نادى إسماعيل:

_ أيوب ألا فكرة لديك...

التزم أيوب الصمت مما دل على أنه لا شيء في جعبته لأنه قليل الخبرة... توقف جيش الحكومة عن الحركة ليتحرك أهل المستعمرة بمفردهم كان عددهم على الأقل سبعة آلاف شخص من كل الفئات.. تابعوا التحرك ثم الفعل غير المتوقع منهم قاموا جميعا بإمساك أقنعتهم... لينطلق أحد الغربان، ذي الرقم عشرة:

_ استسلموا... وإلا سترون الإعدام الجماعي لأهلكم...

من كان يظن أن أفراد الحكومة سيتمكنون يوما من إخضاع الثوار المعارضين لهم بطريقة كهذه، لو أرادوا الهجوم لهجموا بالفعل لكن هذه الحرب بالنسبة لهم هي عملية إذلال لكل معتقداتنا هي حرب لإخضاع النفس قبل الجسد إنهم يتذوقون طعما لطالما تمنوا تذوقه في رؤيتنا بتلك الحالة... فعلا بغير سابق إنذار رمى كل الجيش أسلحته أرضا رافضا خوض هذه الحرب...

قال ذلك الغراب:

_ أحسنتم يكفي أن تكونوا مطيعين... ليتقدم نصف الجيش نحونا وتوقفوا حين تتخطوا ذلك الحاجز القريب من أهلكم...

خمسة آلاف من الجيش الثوري تحركوا وعصوا أوامر إسماعيل وأيوب اللذان كانا يصرخان أنه فخ سيوقعونكم فيه... كانوا في تقدمهم مثل أسنان المشط منظمين للغاية كانوا في ذلك المشهد مثل أهلهم من المستعمرات كأنهم قاموا بإرجاعهم لما كانوا عليه سابقا قبل التحاقهم بالثوار.. تخطوا ذلك الحاجز المكون من أهلهم ليقول الغراب صاحب الرقم ثلاثة:

_ لقد تخطوا الحاجز من أهلهم، سنفتك بنصفكم الآن هجوم أيها الصغار...

تقدم خمسة آلاف من الغربان نحو الثوار ليقتلوهم كان بينهم إسماعيل الذي قرر التقدم خفية... قرروا تقديم أرواحهم بدل رؤية أهلهم يعدمون بملء إرادتهم أمام ناظريهم، لكن أهل المستعمرات هم كذلك هددوا بأهلهم داخل الأسوار إذ قيل لهم لا تتوقفوا عن نزع أقنعتكم حين تأمرون بذلك حتى لو طلب العمود نفسه منكم التوقف لا تتوقفوا... أكملوا عملية نزع أقنعتهم مقدمين أنفسهم طعاما... قال لهم إسماعيل بغضب:

_ توقفوا لا تنزعوا أقنعتكم أيها الجاهلون...ستجعلون تضحياتنا من أجلكم تذهب هباء...

ما حدث كان مفاجئا حيث أتت كرة عملاقة أصدرت صوت صفير ينقر الآذان شقت الغيوم الرمادية ولتطفئ بريق الرعود... سقطت علينا وصدر صوت انفجار بالغ القوة ذلك الصوت الذي كان جميع أهل المستعمرات يعرفونه جيدا...

بعد لحظات من الغبار المتصاعد إذا بالشمس تسطع لتعلن بنورها لحظة شروقها نظر إسماعيل للخلف مذهولا وهو يسأل نفسه ما الذي وقع هنا... ليجد جميع أهل المستعمرة نازعين أقنعتهم لكنهم واقفون

ولم يمت أي شخص منهم كيف حدث هذا... أذلك الشيء العملاق الذي سقط من وهلة خلق الوضع...

تفطن إسماعيل صارخا بأقصى صوته:

_ انزعوا أقنعتكم أيها الرجال لقد حدثت معجزة، أرض القتال أصبحت تحتوي على الأكسجين...هيا نصف الجنود ليبقوا معي لردع جيش الحكومة حتى وإن كنا عزلا والباقي ليصحبوا أهل المستعمرات عند خطوطنا الأولى... بسرعة... أمامنا أربعة وعشرون ساعة لننهي فيها هذه الحرب... يجب أن نستغلها لننتصر... قدموا كل ما تملكونه أيها الثوار...تقدموا...

***

تأزم الوضع جدا أي قرار سأختار يا ترى والداي أم نجمة... بينما أخوض حربا داخل عقلي إذ سمعنا صوتا قويا... قال العمود مذعورا:

_ ماذا حصل في الخارج؟

أكمل قائلا:

_ تعال أيها الأحمق وافتح الباب لقد هيأت لك الشروط المناسبة للعودة لعائلتك... ما الذي تنتظره

خرج ذلك الرجل فزعا وترك قائده وحيدا وهو يقول:

_ سأهرب بعيدا...

تركنا معنا نحن الاثنان لكن مازالت يداه النتنتان على وجه نجمة الباكي..

قال مشمئزا:

_ خائن تبا لك يا ضعيف القلب... أكان كل ما تستطيع عمله هو قتل قلة من الحثالة مع قائدهم فقط وتحرير بضعة غربان والآن في لحظة الحسم تهرب...

أكمل وعلى عينيه علامات الاستغراب:

_ كيف عرفت بأمري...

أجبته خائفا على حياة نجمة:
_ كنت أرى كابوسا منذ صغري وهناك حين وقعت مغمى علي رأيت ذلك الكابوس من جديد وانتبهت لردة فعل الغراب الذي أمر بالإمساك بنا تلك الليلة... كان يصفع نفسه مثلك تماما لهذا علمت هويتك الحقيقية، شكرا لحماسك المبالغ فيه...

قال العمود:
_ صحيح لقد نُصبت عمودا من قبل الجد على هذه القارة اللعينة لمدة سنوات طويلة لكن كان يستغلني... وضع قوانين بخصوص هذه القارة وعن كيفية تأهيل جيل لا إرادة فيه فقط أجساد تنصاع لقوانينه ومن يخالف يعدم والغرض منها هو التقليل من حجم عدد سكان القارة... كان هدفه الرئيسي هو نهب جميع خيرات القارة على يد أحفاد الشامي... ظن السكان أنهم بانتهاء استخراج الثروة المكلفين بها يأخذون حريتهم وذلك كان تاريخ نهاية صلاحية حياتهم للأسف ليعدموا جميعا... وهكذا سينقرض السكان المتواجدون في هذه القارة مع انتهاء ثرواتها... لهذا أردت الهروب للعالم المقابل حتى لا أعدم من قبل الجد لأنه أخطر من مالك إيفيان بمراحل... إنه يريد إبادة نسل الشامي عن بكرة أبيهم لكن بعد استغلالهم...
في تلك الأحيان حادثة هزت سلسلة الجبال بمن فيها تحركنا يمينا وشمالا لأتزحزح ونغير أماكن مواضعنا جميعا تركت يدي الضاحك بحيث سقطت نجمة قرب الباب مع الضاحك والعمود وأنا لأنني أمسكت بالطاولة لم أتحرك كثيرا...انقلب الوضع بعد سماعنا لدوي يشبه الدوي الذي سمعناه يوم الجزاء الأكبر، أتت الفرصة التي انتظرتها لسنوات... هجم الضاحك على العمود ليمسك عنقه قائلا له وهو يضحك بأقصى ما يستطيع:
_ أتتذكرني!
_ أين هي زوجتي... أين ميليسا...أين هي...؟

خنقهُ حتى احمر وجهه، وأشار بيديه على جهة اليمين... تركه الضاحك قائلا مع قهقهات متتالية:

_ أجبني... أيها الحثالة...

قال بسعال:

_ إنها متواجدة في القارة المجاورة لنا... قارة النبلاء...

بينما هو يسعل إذ غدر الضاحك بطعنة من الخلف في ظهره.. نظر ليعرف من صاحبها فوجده ذلك الشخص مساعد العمود الذي هرب قبل قليل قائلا له مع تغيير جذري في صوته:

_مُت!

سقط الضاحك على الأرض نازفا بغزارة لأن إصابته كانت في أنسجته الحيوية بشكل مباشر...

قال له العمود وهو يسعل:

_ اقتلهم جميعا واجلب لي المفتاح... حالا

ثم نظر للعمود بنظرة تعال قائلا:

_ مرحبا بك أيها البديل الخاص بي... وقام بطعنه هو الآخر في الجهة اليسرى من صدره... أكمل لو لم أسحب في ذلك اليوم للعالم المقابل لكنت مكانك أيها الفاشل، لكنت أنا عمود هذه القارة... لأنك أردت خيانة سيدي مصيرك الموت المحتم... لا يمكنك المضي في مصالحك الشخصية على حساب مصالح سيدي المطلقة...

بينما هو يسحب سكينهُ من جثته تراءت لي صورة رأيتها سابقا قلت له مرتجفا:

_ هذا مستحيل... أأنت ذلك الشخص من العالم الآخر، أتذكر أنني ساعدتك يومها في حمل أغراضك عندما تساقطت منك... إذن أنت من دمرت حياتي وأوصلتني لما هي عليه... سأقتلك...

وضع سكينه على عنق نجمة قائلا:
_ أنحرها إن تحركت سنتيمترا واحدا... وأكمل ظللت لسنوات طوال وأنا أبحث عنك في العالم المقابل لأجدك وسط عائلة صغيرة تتكون من أمك المقعدة ووالدك المجنون...

ليكن في علمك أن الانتقال للعالم المقابل له شروطه المحددة وإن انتقلت بغير توفرها ستصيبك لعنة الشجرة المباركة كونك أصبحت دخيلا في عالم لا يريد احتواءك... ومفاد هذه اللعنة أنه لا يمكن إنشاء علاقة بين الطرفين من عالمين مختلفين مهما كانت مودة أو كره أو حقدا.... إن كنا من نفس العالم لن يحدث شيء حتى لو في عالم غير عالمهما... لكن في حالتك أيها الفتى أجزم قطعا أنك أصبت أمك بشلل دائم وأباك بالجنون... كل ما حدث لهما بسببك لأنك شخص ملعون أنت المسؤول الأول عما حدث لهما... مؤسف جدا لهما كانا شخصان لطيفان...

ما قاله أدخلني في حالة نفسية صعبة لا تحتمل أفقدتني الشعور بجسمي... سقطت على الأرض لكن هذه السقطة ليست كسابقاتها إنها التي لا أستطيع النهوض منها مطلقا، عاد شريط مخيلتي للوراء وأنا أراجع ما قاله سلفا قلت قائلا وأنا أضع يدي على رأسي ودموع هربت من سجن العين:
_ صحيح هذا منطقي للغاية، لقد فهمت الآن لطالما شعرت بتأنيب ضمير مجهول كل ما رأيتهما... ليس لعدم قدرتي على مساعدتهما ، كان السبب مخالفا تماما...إذ أنا السبب في كوني أبي فاقدا لعقله... أنا السبب الرئيسي لشلل أمي... أنا السبب في افتراق أبي عن أمي طول تلك السنوات... أمسك ذلك الرجل نجمة فاقدة للوعي وقام بحملها على كتفه قائلا:
لا يمكنني أخذكما أنتما الاثنان معا... بالطبع المفتاح وحده لا يكفيني.. لأنني أريدك أنت أن تجلبه لي فبهذا سأحصل عليك معه... أنا أعلم أنك ستأتي من أجلها...

أكمل حديثه وهو مغادر بين كل تلك الجلبة:
_ سأنتظرك في القارة المجاورة قارة النبلاء أيها الفتى...

***

الفهرس

الرقم	العنوان	الصفحة
01	عصر الاختناق	07
02	حياتي	17
03	ذكرى من الماضي	39
04	لماذا أنا؟	48
05	رحلة إلى المحمية	63
06	الكابوس	72
07	عالمي	80
08	أول يوم في الخارج	94
09	النشيد	121
10	الحياة أو الموت	134
11	ميليسا	146
12	أنا أحبك	159
13	يوم الجزاء الأكبر	174
14	الضاحك	184
15	دعوني أتكلم	191
16	أعيدوها إلي	200
17	إعلان الحرب	207
18	الشامي	219
19	قارة النبلاء	227
20	لفهرس	243